THE GOOD EARTH

الأرض الطيبة

BY

PEARL BUCK

بقلم بيرل بيك



الأرض الطيبة

بيرل بك

ترجمة

محمد جاد عفيفي

ليسانسيه في الأدب الإنجليزي ـ جامعة القاهرة
دبلوم معهد التحرير والترجمة والصحافة « «
دبلوم معهد التربية العالي للمعلمين ـ عين شمس

ملتزم الطبع والنشر مكتبة الصباح بالفجالة
تليفون ٧٦٦٩١٢

مطبعة دار التأليف ـ ٨ شارع يعقوب ت ٢١٨٢٥

كتب مترجمة للأستاذ محمد جاد عفيفي

١ ـ قصة مدينتين عن تشارلز دكنز
٢ ـ مستر بكويك « «
٣ ـ أوليفر تويست « «
٤ ـ قصص قصيرة لأعلام من الكتاب
٥ ـ الأرض الطيبة عن بيرل بيك
٦ ـ الماسة القمرية « ويلكى كولنز



لقد وهبنى الله الأرض ، والزوجة ، والولد . . !

مقدمة

الأرض الطيبة: قصة الكفاح الدؤوب ، والأمل المتوثب والسعى الحثيث لأداء الواجب !

هى قصة الأرض التى يفيض بالخير باطنها ، ويجلو العين ظاهرها ، وتشبع البطون غلتها ، ويدفع ركب الحضارة معادنها وذهبها وفضتها ؛ هى ينبوع الحياة ورمسها ، ومهد الكائنات وقبرها ؛ تهدأ فتبتسم لبنيها وعلى وجهها نبت وزرع وأزهار ، وتغضب وتثور فتفجر من قلبها النار والخراب والدمار . .

هى الأرض القاسية الحانية ؛ العنيفة الرقيقة ؛ مبدأنا ومنتهانا ؛ منشأنا ومستقرنا ؛ مسرح نشاطنا ، ومقر هدوئنا . .

الأرض مهبط الوحى والرسل والإنسان والحيوان والحشرات ؛ ومركز الهداية والغواية والشيطان والآفات ؛ « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

الأرض الطيبة: قصة الحياة الإنسانية ؛ ذات الصور الريفية ، والمشاعر البريئة الفطرية ؛ قصة الصين فى ريفها ومدنها ؛ فى جوعها وشبعها ؛ فى هدوئها وانفعالها ؛ فى جدبها وثرائها . .

تحليل القصة: وانج لنج فلاح فقير ؛ رأى نور الحياة فى الريف ، فأحبه حباً ملك عليه وجدانه وروحه ، وقدس أرضه وأخلص لها ،

(ب)

وجاد فى سبيلها بما وهبته الحياة من نشاط وصبر ، وقوة وعزم ؛ يستيقظ من نومه فيهرع إلى حقله ، وينام فيحلم بأرضه ، يجد فيجنى ، ويزرع فيحصد،ويقتصد فيثرى،يتزوج فيسعد ويرضى ، تخاصله زوجته العمر كله ، وتلد له البنين والبنات ، وتعمل معه فى حزم وصمت وثبات ، حتى إذا ماواتتهما الثروة ، وحالفهما الدهر ، نسى أهله وأرضه إلى حين ؛ أما هى فلم تبهرها الفضة والذهب ، ولم تكف عن العمل بيديها فى الحقل والطين ! .

اتحد (وانج لنج) وزوجته (أولان) فى الصفات والمشاعر ، ووحد بين قلبيهما الفقر ، وما أسرع ما تتجاوب قلوب الفقراء ! وتبدو شخصية الزوجة (أولان) أقوى من زوجها فى كدها وكفاحها وصمتها ، وظلت على حالها لم تتغير أو تتبدل ؛ ولذلك كانت (أولان) ذات طابع فريد ، ووحدة متماسكة ، صهرتها الحياة فى بوتقة الحزن الصامت الدفين ؛ فكانت لا تثرثر أو تهرف أو تنحرف ؛ ولاشك أنها ستحوز إعجاب القارىء لما جبلت عليه من خلال قوية ، وسمات وديعة رضية .

تغلب وانج لنج على ما اعترض سبيله من صعاب ، واجتث مافى أرضه من أشواك ، وحالفه الحظ فاشترى أرض السيد العظيم (هوانج) الذى كانت زوجته (أولان) جارية رقيقة فى بيته . . وهكذا تضرب المؤلفة الأمثلة العديدة على أن النجاح ثمرة الجد، الصابر، العامل،الكادح،القانع المقتصد ، الذى يحدوه أمل متجدد ، وتدفعه إلى الأمام غاية نبيلة .

بعد أن شبع وانج لنج وارتوى ، وصار من الأغنياء الموسرين ، بهره بريق المال ، وأسرته شهوة الحياة ، فانحرف عن الطريق المستقيم ،

وهو الذى عاش طوال حياته مثلا أعلى للسذاجة ، وطيبة النفس ، ووداعة الزوح ؛ لايعرف من النساء غير زوجته وأم أطفاله ، لا يعنيه قبحها قدر ما تزدهيه أخلاقها ، ولا تستهويه أنوثتها أو تضايقه خشونتها وإنما يسبي عقله طهيها ونظامها ومعونتها . . . وبعد أن أصبح لديه المال والولد ، والصحة والفتوة ، والفضة والذهب ، طغى وانج لنج وتكبر ، ونسى سنوات البؤس والشقاء والمجاعة والقحط ، ورحيله إلى الجنوب يكدح ويستجدى ، يرضى بأكلة ، ويهنأ بكوخ ، ويسعد بدرهم ، أو حفنة من أرز أو قمح ؛ نسى هذا الشقاء كله ، ولم يعد يتذكر شيئاً سوى ماله ؛ فاحتقر زوجته ، ورماها بالقبح والدمامة ، وعيرها بالخشونة والقذارة ، وأخذ منها لؤلؤتيها اللتين ادخرتهما لوقت الحاجة ، وأغدق هداياه على (لوتس) تلك المرأة المرحة اللعوب ، الجية الرقطاء ، الناعمة الطروب؛ فتزوجها وأفرد لها فى بيته جناحاً يفيض بالنعيم والأثاث والرياش ؛ ونهشت الغيرة قلب امرأته (أولان) إلا أنها لاذت بالصمت ، تشكو همها الدفين إلى ربها ، لعله يعيد إليها زوجها ، ويحفظ عليها أمنها ، ويقى من غوائل الدهر أبنائها . . .

وهكذا أرادت المؤلفة (بيرل بك) أن تبين لنا أن المال والنساء هما غايه الإنسان المنشودة ، إذا كانت نفسه عاطلة كسولة . . .

ظلت الكوارث تترادف على وانج لنج ، فنضب معين أرضه ، وأرسل الله إليه عمه وزوجته وابنهما ليعيشوا عالة عليه ، يحطمون من صرح سعادته،ويأتون على بقية ماله وثروته ؛ وصُدم والده الشيخ المحطم

من هول الفاجعة ، عند ما علم أن ولده قد تزوج ثانية ، وأنه أصبح متلافاً مبذراً . . .

تيقظ ضمير وانج لنج متأخراً ، إذ كان ذات يوم وسط حقوله ، وقد انعكست عليها أشعة الشمس فكستها بلون فضى جميل ، فصرخ هاتفاً من أعماق قلبه ، ومزق سرواله الحريرى ، ولطخ نفسه بالطين ، وعاد إلى (لوتس) فلاحاً من رأسه إلى أخمص قدميه ، فأشاحت بوجهها عنه ، ونأت بروحها منه ، ولكنه لم يعبأ بها ، أو يكترث لها ، فقد عاد حنينه إلى أرضه ، ونازعه الشوق إلى حقله ، فعاد ينظم حياته ، ويعوض مافاته ، ويصلح ما أفسدت يداه ، ويبنى من جديد ماحطمه غرامه وهواه ؛ فعكف على رعاية أبنائه وتربيتهم ، وعمل على هناءتهم بتعليمهم وتزويجهم ، وهرع إلى بيته الريفى بعد أن ماتت زوجته الريفية أولان ، ووالده الشيخ وصديقه الوفى (تشنج) ، وبعد أن قضى الله على عمه الشرير اللص ، وزوجته الماكرة الخبيثة ، وابنه الأفاق المتشرد .

عاد إلى أرضه الطيبة ، يتنسم هواءها ، ويمتع نظره بخضرتها ونباتها وزهرها ، ويشنف آذانه من موسيقى جداولها المترعة بالماء ، وطيورها الصداحة بالغناء . .

عاد إلى أرضه أصل حياته ، ومصدر ثروته ، وصرح سعادته ، وأمل أسرته ، وعند ما عاد إلى أرضه ، عاد إلى دينه ، وفكر فى آخرته وكأن نفسه كانت تقول له : « ما أجمل الدنيا والدين إذا اجتمعا » وأدرك أن السعادة ليست اكتناز المال ، وحبسه عن المعوزين والمحتاجين ، وإنما السعادة راحة البال ، ورضاء الضمير ، والصحة الطيبة ، وأداء الواجب ،

والتمسك بالشرف ، والخلق القويم ، وأن الحياة فى سرائها وضرائها ، ونعيمها وشقائها ، هى هى الحياة . . .

هذا الإطار الريفى الجميل ، رسمته لنا المؤلفة النابغة (بيرل بك) بريشتها الصناع فى صورة أنيقة عميقة ، ولوحة جميلة رشيقة ، نالت بها إعجاب الأدباء ، ورجال القصة ، فتوجوا هامتها بجائزة (نوبل للسلام)، لأمانتها فى الوصف ، وأسلوبها القصصى السلس ، وثقافتها الرفيعة ، وهدفها الإنسانى النبيل ، الذى ترتكز عليه روايتها (الأرض الطيبة) فهى لم تكتب قصة من وحى الخيال ، وإنما عاشت فى الصين ، وخبرت أهله ، وأحست بظلمهم وشقائهم ، وانفعلت بإحساسهم ، فكتبت ما رأت وما أحست فى صدق وإخلاص . . .

ولقد ولدت المؤلفة فى بلدة هيلز بورو بولاية فرجينيا الغربية بأمريكا سنة ١٨٩٢ ، ومكثت منذ طفولتها فى الصين ، وغادرتها أعواماً قليلة لتتم تعليمها فى وطنها أمريكا ؛ حيث نالت أرفع الدرجات العلمية التى أهلتها للعمل فى الجامعات الصينية ؛ وقد كتبت قصصاً وروايات عديدة منها (ريح الشرق) و(الأم) و(آلهة آخرون) ثم وصفت أهوال الحرب العالمية الثانيـــة فى روايتها (بذرة الفول) ثم أسست جمعية (الشرق والغرب) وغرضها محو الفروق بين الغربيين والشرقيين . .

ولا مراء أن روايتها (الأرض الطيبة) قد أكسبتها شهرة عالمية ، وأصبحت بها نجماً لا يخبو نوره . واحتلت مكانتها فى مصاف ديكنز وشارلوت برونتيه ، وأميلى برونتيه ، وجين أوستن ، وفرجينيا وولف من أعلام القصة الإنجليزية ؟

محمد جاد عفيفى

الفصل الأول

إنه يوم زواج « وانج لنج » ولذلك لم يستطع بينه وبين نفسه أن يعلل أولا لماذا اختلف الفجر عن كل فجر مضى إذ كان السكون يسود البيت لا يقطعه إلا سعال أبيه الذى كانت غرفته مواجهة لغرفة إبنه ، ولذا كان سعال الشيخ أول ما يرن فى أذنيه كل صباح ، وكان من عادة « وانج لنج » أن يظل راقداً فى فراشه مرهفاً سمعه لتلك السعلة ، ولا يتحرك من مرقده إلا على صوتها ، وهى تقترب وتطرق أذنيه . .

ولكن فى هذا الصباح لم يطل انتظاره بل إنه قفز من فراشه ، وأزاح ستائره وذهب تواً إلى الطاقة المستديرة من النافذة ومزق الورق المحيط بها تمزيقاً وأخذ يتمتم لنفسه : « إنه فصل الربيع ولست فى حاجة إلى هذا » وكأنما اعتراه الخجل أن يجأر برغبته فى أن يبدو البيت أنيقاً فى ذلك اليوم . . وهبت ريح رخاء ندية من الشرق فبدت له طالع يمن وبركة فالحقول كانت متعطشة للمطر لتنضج إلا أن المطر لن يسقط فى هذا اليوم . ولكن فى خلال أيام قليلة إذا استمرت هذه الرياح فى هبوبها فسوف يتدفق الماء بالخير ، وتزدهر غلة الأرض .

وأسرع الخطى إلى الغرفة الوسطى وهو يرفع سرواله الخارجى الأزرق وترك صدره عاريا حتى يسخن الماء ليغتسل . . ودخل الحظيرة التى كانت فى الوقت نفسه تتخذ مطبخا . . نخار الثور فى الحظيرة المعتمة عند دخوله ، وكانت مشيدة من اللبن كالبيت أى من حجارة كبيرة مربعة

من الطين الذى انتزع من أرض حقولهم ، وسقف بقش حنطتهم . . ومن تربتهم بنى جده فى شبابه الفرن الذى احترق وأسود من إعداد الطعام خلال سنوات عديدة . . واستقر على سطح الفرن قدر ضخم عميق مستدير من الحديد . .

وملأ هذا القدر كله تقريباً بالماء غمره من جرة من الطين المجفف كانت بجوار القدر وأخذ يغمرها بحذر وحرص على الماء الثمين ثم رفع فجأة الجرة إلى أعلا وأفرغ كل الماء الذى بها فى القدر الضخم . .

إنه فى هذا اليوم سيغتسل وينظف جسده كله . !

ثم ذهب إلى ما وراء الفرن وانتقى حفنة من الأخشاب والحطب الجاف الملقى فى ركن من المطبخ ثم صفهـــا فى خفة ورقة ثم أشعل النار من زناد قديم فى قطعة من الحديد ، وألقى جذوتها فى القش فاشتعلت النار وتوهجت . .

إنه لآخر مرة يشعل فيها النار بيديه فى الصباح فكم أشعلها كل صباح ستة أعوام منذ أن ماتت أمه . . كان يوقد النار ويغلى الماء ، ويصبه فى وعاء ثم يحمله إلى حيث كان أبوه يجلس على فراشه ، يسعل ويتحسس الأرض بحثاً عن حذائه ولقد ظل الرجل العجوز يترقب ابنه كل صباح فى خلال اعوام ست لكى يحضر إليه الماء الساخن الذى قد يهدأ من حدة سعاله فى الصباح ، ولقد حان الوقت الذى يمكن للأب وإبنه أن يستريحا فستحل امرأة بالبيت فلن يعاود ، وانج لنبج ، استيقاظه كل فجر صيفاً وشتاءاً ليوقد النار ، وأنه ليستطيع أن يرقد فى فراشه وينتظر حتى يحمل إليه وعاء من الماء ، بل إذا جادت عليه الأرض وأخصبت

فسيكون فى الماء الساخن أوراق الشاى ، فمنذ أعوام أينعت الأرض مرة وأغدقت عليه . .

وإذا أحست المرأة بالضيق فسيكون معها أطفالها ، وسيوقدون النار بدلا منها ، وتوقف « وانج لنج » عن تأملاته ، فقد أسرته فكرة أطفاله وهم يجرون داخل وخارج غرفهم الثلاث . . عما قريب سيولد له أطفال ، وستصف السرر بجوار الحائط فى الغرفة الوسطى ، وسيمتلأ بها البيت ؛ خمدت جذوة النار فى الفرن عندما وصل « وانج لنج » فى تخيلاته إلى السرر التى سوف تملأ نصف البيت الخالى من الأثاث ، وبدأ الماء يبرد فى القدر ، وظهر الرجل العجوز واقفاً فى مدخل الباب وهو يتدثر بملابسه التى لم يحكم أزرارها بعد . . وكان يسعل ويبصق ، ثم خاطبه وهو يلهث : « كيف لم تعد لى الماء بعد لكى أدفأ بها رئتى ؟ » . فحملق « وانج لنج » وقد اعتراه الخجل . . إلا أنه تمتم من وراء الفرن قائلا : « إن هذا الوقود رطب ، والريح رطبة » .

واستمر الشيخ يسعل ولم يتوقف إلا بعد أن غلا المـاء ، فصب وانج بعضاً منه فى الوعاء . ثم بعد لحظة تناول كمية من الأوراق الجافة الملتفة ، وبسطها على سطح الماء ؛ ونظر الشيخ أمامه واتسعت حدقتاه فى شغف وبدأ فى الحال متململا شاكياً : « لماذا أنت مبذر ؟ إن شرب الشاى يساوى أكل الفضة » فقال له « وانج لنج » : « إنه يومنا » ثم ضحك ضحكة قصيرة وأردف قائلا : فلتأكل وليهنأ بالك .

وقبض الشيخ على الوعاء وهو يعبر عن عدم رضائه بصوت مكتوم كصوت الخنزير ، وأخذ يراقب الأوراق وهى تتفتح وتنتشر على سطح الماء وقد بدا عليه أنه لا يطيق أن يجرع هذا الشراب الثمين . . فقال له

إبنه : إن الشاى سيبرد . . فرد عليه الشيخ قائلا : حقا . . حقا . . .
أخذ يتجرع جرعات كبيرة من الشاى الساخن ومع ذلك فلم يكن ساهما أو ناسيا فى أن يراقب (وانج) وهو يصب الماء بوفرة من القدر فى برميل عميق من الخشب ثم رفع رأسه وحملق فى ولده ثم خاطبه على الفور قائلا : هذا ماء وفير كاف لإنبات غلة محصول . . إلا أن وانج لم يرد عليه ، واستمر يصب الماء إلى آخر قطرة منه . . وصرخ فيه والده قائلا : ماذا حدث لك ؟ . فأجابه وانج فى صوت خفيض : إننى يا أبتى لم أغسل جسدى كلية منذ عيد رأس السنة . . وهرول إلى الخارج حاملا البرميل الصغير إلى غرفته الخاصة ، ولم يحكم غلق بابه ، ووضع الشيخ فمه فى فتحة الباب وصرخ فى إبنه قائلا : إن الأمور لن تستقيم إذا ما بدأنا مع المرأة هكذا . . شاى فى ماء الصباح ، واستحمامك هذا .

فصرخ وانج مجيبا : إنه يوم واحد فقط . . ثم أردف قائلا : سأرش الأرض بالماء عندما انتهى من استحمامى ، وعلى هذا فلن يضيع الماء سدى . . . وبذلك صمت الأب ، وفك الابن حزامه ، وخلع ملابسه وعلى الضوء المشع من خلال كتلة مستديرة من الفتحة ، اعتصر فوطة صغيرة فى الماء المتصاعد منه البخار ، ثم أخذ يحك بها جسمه الأسمر النحيل ، ثم ذهب إلى صندوق كان ملكا لأمه وأخرج منه حلة قطنية زرقاء جديدة ثم ارتدى فوقها سترة قطنية أيضا ـ تلك السترة الفضفاضة التى كان يقصر ارتدائها على أيام الأعياد فقط . . أى اجمالا عشرة أيام أو نحوها فى العام كله . . ثم دلف بأصابعه فى رأسه ، وفك رباط ضفيرته التى كانت تتدلى على ظهره ، ثم انتزع مشطا خشبيا من المنضدة الصغيرة المتأرجحة وأخذ يمشط شعره .

واقترب منه أبوه مرة أخرى ، ووضع فمه فى فتحة الباب وصاح متألما : أسأبقى بلا طعام هذا اليوم ؟ إن عظامى فى سنى المتقدمة هذه تظل فى الصباح رقيقة كالماء مالم يشد أزرها الطعام .

فرد عليه (وانج) مجيبا : سآتى حالا . . ثم استمر يجدل شعره فى خفة ونعومة ، ثم عقده فى جدائل سوداء حريريه . . وبعد هنيهة خلع ردائه الطويل ، ثم طوى شعره حول رأسه وخرج حاملا البرميل الصغير المملوء بالماء ، إنه قدنسى طعام الافطار تماما ، وأنه لسوف يسكب قليلا من الماء فى مقدار من الحنطة ثم يقدمه طعاما لوالده . . أما عن نفسه فهو لن يأكل شيئا ، وسرعان ما اعترته موجة من الغضب عند تفكيره فى أبيه وغمغم لنفسه فى فوهة الفرن قائلا : إن عقل هـــذا الشيخ لا يفكر فى شىء سوى طعامه وشرابه . . نعم إنه آخر صباح يجب عليه فيه أن يجهز الطعام لأبيه العجوز . . ثم وضع قليلا من الماء فى القدر ، بعد أن اغترفه فى جردل من البئر القريب من الباب ، وبعد أن غلى الماء سريعا خلط الحنطة به ، وحمله إلى أبيه الشيخ . . وخاطبه قائلا : سنتعشى الليلة أرزاً ياوالدى . . أما الآن فهاك هذه (العصيدة) ... فرد عليه أبوه قائلا: لم يتبق يابنى فى السلة سوى قليل من الأرز .

ثم أخذ مكانه الى المنضدة فى الغرفة الوسطى ، وقلب الثريد الأصفر السميك ، بعودين صغيرين من الخشب . . فرد عليه (وانج) قائلا : إنه ليجب بالتأكيد أن نقلل من طعام الأرز فى عيد الربيع . . الا أن والده لم يرد عليه ، فلقد كان يزدرد عشاءه من وعائه فى نهم . !

ذهب (وانج) إلى غرفته الخاصة ، ثم سحب على جسمه مرة أخرى

رداءه الطويل الأزرق ، وأرخى ضفيرته ثم مر بيده على حاجبيه الحليقين وعلى خديه ثم تساءل : لعله من الأفضل أن يحلقهما من جديد . فإن الشمس لم تبزغ من خدرها بعد ، وفى استطاعته أن يجول فى شارع الحلاقين ليحلق رأسه قبل أن يتوجه إلى البيت حيث زوجته المقبلة تنتظره ، ومادامت النقود معه فان هذا كله ممكن .

وأخذ من حزامه كيسا من القماش الرمادى المتسخ بالدهن ، وعد النقود التى به ، فوجدها ستة ريالات فضية ، وحفنة من النقود النحاسية ولم يكن قد أخبر والده بعد ، بأنه قد دعا بعض أصدقائه إلى تناول العشاء فى تلك الليلة ، ذلك أنه قد دعا ابن عمه الشاب وعمه إكراماً لخاطر والده وثلاثة من جيرانه الفلاحين فى القرية ، وقد قر رأيه على أن يشترى من المدينة فى الصباح لحم خنزير ، وقليلا من السمك الرخيص ، وحفنة من أبى فروة ، وبعض أعواد الغاب من الجنوب ، ومقداراً من لحم البقـــر ليسلقه مع بعض الكرنب الذى زرعه فى حديقتـه . وإنه ليستطيع أن يشترى كل هـــذا لو تبقى معه نقوداً فائضة بعد شرائه الزيت وصلصة الفول فإذا ماحلق رأسه فقد لايستطيع على الأقل شراء اللحم . . حسنا ، إنه سوف يحلق رأسه فلقد عقد العزم على ذلك فجأة .

ترك أباه الشيخ دون أن ينبس ببنت شفة ، وهرول إلى الخارج عند تباشير الصباح . وقد تلألأت أشعة الشمس على قطرات الندى التى كست عيدان القمح والشـــعير الممتدة بقاماتها الهيفاء . . فانحنى وانج ليفحص براعمها المتعطشة للمطر والتى لم تكتمل بعد ، ورفع رأسه إلى السماء فرأى فى صفحاتها الغمام . وقد ران المطر على تلك السحب الداكنة ، التى تدفعها الرياح

أمامها فى تثاقل . وخيل إليه شراء عود من البخور ، ليضعه فى المعبد الصغير لرب الأرض .

وشق طريقه بين الحقول وسط الممر الضيق ، وسار فى طريقه وقد لاح على مقربة منه سور المدينة الرمادى ، ومن خلال بوابة هذا السور أدرك أنه سوف يجتازها إلى البيت الشامخ حيث زوجته التى حلت به جارية منذ نعومة أظفارها . . إنه لبيت هوانج .. ودارت فى رأسه هذه الخواطر فهو عند ما سأل والده « أفلا أتزوج إطلاقا ؟ » قال له أبوه « إن حفلات الزفاف تتكلف كثيراً فى هذه الأيام اللعينة ، وإن النساء يرغبن فى اقتناء الخواتم الذهبية ، والملابس الحريرية قبل زواجهن ، أفليس من الخير للفقراء أن يتزوجوا من الجاريات ؟ » وعلى أثر ذلك تحرك والده بنفسه وولى وجهه شطر بيت هوانج ، وسأل سادة البيت عن جارية يمكن أن يتفضلن بها على إبنه كزوجة له . . وقال لهم « جارية ليست فى ربيع العمر ولا رائعة الحسن والجمال » .

ولقد عانى وانج الأمرين لأن زوجته لن تكون على قسط وافر من الجمال . . وعندما لمح والده فى وجهه أمارات السخط صرخ فيه قائلا : « وما شأننا بالمرأة الفاتنة ؟ يجب أن نقتنى إمرأة تعنى بالبيت ، وتكدح فى الحقل فهل ترضى المرأة الفاتنة أن تفعل هذه الأشياء ؟ إن فكرها الدائم سيكون متصلا بملابسها التى توافق هواها . . لا ، إن المرأة الفاتنة لا مكان لها تحت سقفنا فنحن فلاحون .

ولقد أدرك وانج أن أباه قد أبدع القول وأجاد ، ثم قال لوالده : إنى لا أريدها على الأقل أن تكون شوهاء الوجه من آثار الجدرى ، أو تكون شفتها العليا مشقوقة .

فقال له أبوه : سنحاول أن نظفر بما يمكننا الحصول عليه .. مرحى! لم تكن شوهاء الوجه بآثار الجدرى ، ولم يكن بشفتها العليا قطع .. ولقد عرف ذلك تمام المعرفة ولم يدرك شيئاً سواه .. فلقد اشترى هو وأبوه خاتمين من الفضة ، مطليين بالذهب وأقراطا فضية ، وكل هذه الهدايا حملها أبوه إلى سيد الجارية كدليل وبرهان على الخطوبة ، وما عدا ذلك فلم يعرف شيئا قط عن المرأة التى ستصبح زوجة له ، إلا أنه فى يوم الزفاف سيتوجه إليها ويحصل عليها .. !

وتهادى إلى بوابة المدينة وهواء الليل الرطب يلفح وجهه فشاهد السقائين خارج المدينة وعرباتهم محملة ببراميل كبيرة مملوءة بالماء ، المتدفق منها كلما جالت هنا وهنالك ، ولذلك كان نفق البـــوابة رطباً مبللا ، ذلك النفق الممتد تحت جدران سميكة مشيدة من الطين والتبن ، كان رطباً فى أيام الصيف القائظة ، ولذلك كان بائعو البطيخ يعرضون فاكهتهم على أرضه إلا إنه لم يعرض بعد ، لأن الموسم لم يحن بعد ، ولـكن سلالا من الخوخ الصغير الحجم الأخضر كانت موضوعة بجوار الجدران . . .

فهمس وانج لنفسه : إذا كانت زوجتى تحب الخوخ ، فسأشترى لها حفنة عند عودتى . . .

واستدار نحو اليمين مخترقا البوابة ، وبعد لحظة كان يجول فى شارع الحلاقين ، وعلى طول الطريق ، وفى صف مستقيم وقف الحلاقون خلف أكشاكهم الصغيرة ، وذهب وانج إلى أبعدها ، ودخل وجلس على الكرسى ، فرآه الحلاق وذهب إليه توا ، وانهمك فى صب الماء الساخن فى حوض صغير . . وسأله الحلاق : أتريدها حلاقة كاملة ؟

فأجابه وانج : رأسى ووجهى فقط ، فسأله الحلاق : هل أنظف لك أذنيك وخياشيمك ؟

فسأله وانج وكم يتكلف هذا علاوة على ما سبق ؟ فرد عليه الحلاق قائلا : أربعه بنسات . . ثم أخذ يغمس قطعة من القماش فى الماء الساخن ثم أخرجها . . .

فقال له وانج : سأعطيك بنسين . . . فرد عليه الحلاق قائلا : سوف أنظف لك أذنا واحدة وخيشوما واحداً . . . ثم التفت الحلاق إلى زميل له وغمز له بنظرة خبيثة، وقال مخاطباً وانج : على أى جانب من وجهك تريد ذلك ؟

ـ كما تشا . كما تشاء . . .

وحينئذ سمح للحلاق فى أن يغطى وجهه بالصابون ثم يدلكه بيده ويحلق له ، وحالما حلق جبهة وانج العليا قال له : إنك لن تبدو فلاحاً كئيب الطلعة إذا ماحلقت لك شعرك ، فإن الحلاقة الحديثة، تقضى بقص الضفيرة .. وامتدالمقص فاغراً فاهه حول خصل الشعر فى قمة رأسه فصرخ فيه وانج محذراً : لايمكننى قصها ما لم أستأذن والدى . . فقهقه الحلاق ، وترك دائرة الشعر كما هى . . . وما أن انتهت الحلاقه ،حتى دلف وانج إلى الشارع والرياح المنعشة تلامس جلده المحلوق الأملس . ثم أوغل فى السوق ، واشترى رطلين من لحم الخنزير ، واستقرت عيناه على الجزار وهو يلفها فى ورق اللوتس ، ثم اشترى بعد ذلك سته أوقيات من لحم البقر . . . وما أن انتهى من شراء هذا حتى ابتاع أيضاً مربعات من الفول المطحون ، المصنوع على هيئة (الماظية) فوق ورق الفول (وهو لون خاص من الأطعمة الصينية) . . . ثم ذهب إلى تاجر شمع ،واشترى عودين من

البخور ، ثم استدار بخطـــوات ملؤها الخجل صوب بيت هوانج .

ولأول مرة امتلأ قلبه بالرعب وهو واقف أمام بوابة البيت ، ذلك أن قدمه لم تطأ عتبة بيت منيف من قبل .. . وكان البيت مغلقا ، وواجهه تمثالان لأسدين من الحجر ، هجع كل منهما على الجانبين لحراسة البيت ولم يكن هنالك إنسان سواه ، وعاد من حيث أتى ، إذ كان من المستحيل أن يلج ذلك البيت ..

وشعر بإعياء مفاجيء ، فوجد أنه من الضروري أن يذهب أولا ، ويبتاع قليلا من الطعام فلم يكن قد أكل بعد ، فدخل مطعما صغيراً ووضع بنسين على المنضدة ، وجلس إليها ، ولما اقترب منه صبي يرتدي مئزراً لامعاً أسود قال له : هات سلطانيتين من عصيدة الأرز ، وعندما أحضرهما إليه التهمهما في شراهة ، دافعا ما فيهما إلى فمه بعودين من القش ، بينما وقف الصبي قابضا على الدراهم بين إبهامه المتسخ وسبابته . . . وسأله الصبي : هل تريد المزيد ؟

فهز وانج رأسه ، واعتدل في جلسته ، ونظر حوله ، فلم يجد أحداً يعرفه في الغرفة الصغيرة المظلمة المزدحمة بالمناضد ، ولم يكن بها سوى رجال قلائل يأكلون ويشربون الشاي ...

وظل وانج جالسا بينما ارتفعت الشمس إلى عرشها ، وظل الصبي واقفا يتطلع حوله في قلق وقال لوانج في قحة : إذا لم تطلب شيئا آخر ، فعليك أن تدفع أجراً لكرسيك ... ... واحتدم وانج غضبا وكان موشكاً على النهوض إلا أنه كان مشغول البال بالذهاب إلى بيت هوانج ، فانفجر العرق فوق جسده كله كما لو كان يكدح في حقل . . .

وخاطب الصبي بانكسار قائلا: هات لى شايا ... وما كاد الصبي يتركه حتى عاد يحمله له ، وسأله فى خشونة : أين الدرهم ؟

فوجد وانج أنه ليس هناك فائدة سوى أن يدفع فى الحال ، فأخرج من حزامه درهما آخر وناوله للصبي ثم شرب الشاى فى جرعة واحدة ، وانصرف سريعا من الباب الجانبي ، وسرعان ما وجد نفسه مرة أخرى فى الطريق ، وغمغم لنفسه قائلا : لا بد مما ليس منه بد ... ثم سار فى خطى وئيدة صوب بوابة هوانج ...

وفى هذه المرة كان الوقت ، وقت الظهيرة وكانت البوابة مفتوحة وكان حارسها جالسا فى تكاسل ينظف أسنانه بعد غذائه ، وعند ما لاحت له طلعة وانج ، صرخ فيه بخشونة وقد حكم عليه من السلة التى فى يده أنه قد حضر لبيع شيئا ما ، فقال له : ماذا تريد ؟

فأجاب وانج بصعوبة كبيرة : أنا وانج لنج الفلاح . .

فأجابه البواب الذى كان مهذبا فى معاملة الأصدقاء الأغنياء كسيده وسيدته فقط : حسنا أنت وانج لانج الفلاح .. فماذا تريد ؟

فتضاءل صوت وانج إلى درجة الهمس على الرغم منه وقال :هنا امرأة.. ثم بدا وجهه مبللا بالعرق وقد سطعت عليه الشمس فندت من الرجل قهقهة عالية وزأر قائلا : وإذن فأنت هو ... فلقد أخبرت أن انتظر حضور عريس إلا أنى لم أعرفك وأنت تحمل هذه السلة فى يدك ... فقال له وانج : إن هى إلا قطعة صغيرة من اللحم . . وتوانى وانج لنج عسى أن يقوده البواب داخل الدار . إلا أن البواب ظل ثابتا لا يريم . . ثم قال له أخيراً : إن قطعة صغيرة من الفضة هى الوسيلة الوحيدة !..

وأدرك وانج أن البواب يريد منه نقوداً فعقب قائلا :

إنى رجل فقير ... فرد عليه البواب . دعنى أرى ما فى حزامك . .

وهنا كشر البواب عن أنيابه عندما نثر وانج فى سذاجة ما معه من نقود فى يده اليسرى ، وكان مبسوطا بها قطعة واحدة من الفضـــة ، وأربعة عشر درهما من النحاس .. فقال له البواب فى برود : سآخذ قطعة الفضة .

ثم عبر البوابة فى خطى سريعة مردداً : العريس .. العريس .. على الرغم مما أعترى وانج من غضب شديد لما حدث ، ولما بدر من البواب فلم يسعه إلا أن يتبعه ويسير فى أثره حاملا سلته لا يتلفت يمينا ولا يساراً . وبعد لأى بدا له أنه قد اخترق مائة غرفة ، ووقف البواب فجأة ، ودفعه إلى داخل غرفة إنتظار صغيرة حيث وقف وحيداً ، بينما دخل البواب غرفة أخرى وعاد بعد لحظة يقول :

إن السيدة الكبيرة تأمر أن تتشرف بالمثول بين يديها ... وعند ما حاول لانج أن يتقدم إلى الداخل ، أوقفه البواب صارخاً فى وجهه باشمئزاز : لا يمكنك المثول بين يدى سيدة جليلة وأنت تحمل سلة كهذه على ذراعك فخبرنى كيف يمكنك أن تنحنى إجلالا لهـا ؟ فأردف وانج على الفور : حقاً .. حقاً .. إلا أنه لم يتجاسر على وضع السلة على الأرض خشية أن يسرق منها شىء ، فلاحظ البواب الخوف على وجهه ، وصرخ فيه باحتقار شديد : فى قصرنا المنيف هذا نطعم مثل هذا اللحم للكلاب . وقبض على السلة ووضعها وراء الباب ، ودفع وانج أمامه فى بهو واسع لم ير له مثيلا . ورأى أمامه منصة تتوسط غرفة جلست عليها سيدة طاعنة فى السن قد لفت جسدها النحيل بالحرير الرمادى المطرز باللآلىء ، وتتطلعت إليه بعينين سوداوين صغيرتين حادتين ، غائرتين

كأنهما عينا قرد ، تلمعان فى وجهها النحيف الذى وخطه الشيب ، وتجاعيد الكبر - فخر وانج فى خشوع على الأرض ، ودق رأسه بأرض الغرفة . .

فقالت السيدة للبواب : إرفعه . . هل جاء يطلب المرأة ؟ فأجابها البواب : نعم أيتها السيدة الماجدة - ثم ألقت عليه السيدة العجوز نظرة فاحصة وخاطبته قائلة : لعلك أتيت تطلب الجارية المسماة (أولان) . إنى لأ ذكر أننا قد وعدنا بتزويجها لفلاح ما ... فهل أنت الفلاح؟ - فأجابها وانج : هأنذا ياسيدتى : . . فقالت السيدة لجارية واقفة بجوارها : ناد (أولان) فى الحال . . . - وبعد هنيهة عادت الجارية تجر بيدها شابة ربعة القوام ، طويلة نوعا ما عليها سترة نظيفة زرقاء قطنية ، وترتدى سراويل ، فخفق قلب وانج عند ما ألقى عليها نظرة . . . إنها إمرأته بعينها . . !

وقالت لها السيدة فى اهمال ، تقدمى أيتها الجارية . . إن هذا الرجل قد أتى يطلبك . . ومثلت المرأة أمام السيدة ووقفت أمامها منكسة الرأس ويداها متشابكتان .

وسألتها السيدة : هل أنت على استعداد ؟ ، فأجابتها المرأة فى بطء كأن صوتها رجع الصدى : مستعدة يامولاتى . .

وعندما سمع وانج صوتها لأول مرة ، نظر إلى ظهرها وهى واقفة أمامه ، لقد كان صوتها رخيما ، ليس نشازاً ، أو ناعما ، بل جليا يدل على طبع هادىء ، وكان شعرها مرتبا ، ناعما ، ومصففاً ، نظفيا ، ولكنه رأى وخيبة الأمل تملأ قلبه ، ان قدميها غير مربوطتين .

ثم خاطبت السيدة البواب آمرة : احمل صندوقها إلى البوابة ، ودعهما

ينصرفان .. ثم نادت على وانج لنج وقالت له : قف بجوارها بينما أتحدث .
إن هذه المرأة جاءت الى بيتنا ، عندما كانت طفلة فى العاشرة ، ولقد عاشت فى رعايتنا حتى بلغت الآن العشرين من عمرها . . لقد اشتريتها فى سنة اجتاحت الناس المجاعة عندما رحل والداها الى الجنوب لأنهما لم يجدا مايسدان به رمقهما . . ولعلك تراها الآن قوية البنية ، مكتنزة الخدين ، ولذلك فهى ستشد أزرك من فى الحقل .. إنها ليست جميله ، ولكن لا بأس فأنت لا تطلب الجمال كما وانها ليست ماهرة إلا أنها تؤدى ما يطلب منها خير أداء ، وطبعها هادى ، خذها وعاملها برفق .

ثم خاطبت المرأة قائلة . أطيعيه ، واحملى له أبناء تلو الأبناء ، واحضرى طفلك الاول هنا لأراه .

فردت الجارية : سمعا وطاعا ياسيدتى الماجدة .

ووقفا مترددين ولم يدر وانج هل ينبغى أن يتكلم أم لا . ولكن السيدة العجوز قالت فى ضيق . هيا اذهبا ـ فأحنى وانج رأسه سريعا ، وأدار ظهره ثم انصرف وعروسه فى أثره ، وفى أعقابهما سار البواب حاملا صندوقهما على كتفه ، ثم وضعه على أرض الغرفة التى كان وانج قد ترك سلته فيها وعاد إليها ليأخذها ، إذ رفض البواب أن يحمل الصندوق أكثر من ذلك ، بل إنه اختفى دون أن تصدر منه كلمة ما .

ثم أدار وانج وجهه نحو زوجته ، وتطلع اليها لأول مرة ، فراعه منها وجهها المربع الذى تشيع فيه الأمانة ، وأنفها القصير ، ذو الخياشيم الكبيرة السوداء ، وفمها الواسع ، وكانت عيناها صغيرتين سوداوين ، يشع منهما بريق من الذكاء ، بل كانتا مفعمتين بحزن دفين ، ورأى وانج

أن وجهها لا يشرق بالحسن ، أو تبدو فيه مسحة من الجمال ، أو أى نوع من الجاذبية ، فما هو إلا وجه أسمر ، عادى ، ينبىء عن قوة الاحتمال والصبر ، وكفاه أن بشرته السمراء لا يشوبه أثر من آثار الجدرى ، وأن شفتها ليست مشقوقة ، ولمح قرطيها المتدليين من أذنيها ، هديته اليها ولمح كذلك أن أصابعها مزدانة بالخاتمين اللذين كان قد أرسلهما لها ثم نأى بوجهه عنها ، وقد أشرق بسرور خفى . . حسنا أنه امتلك امرأته فقال لها : هاك هذا الصندوق ، وهذه السله . . وبدون أن تنبس بكلمة انحنت على أحد طرفى الصندوق وحملته على كتفها وترنحت تحت ثقله ، وجاهدت لتنهض به ، بينما كان يراقبها وخاطبها فجأة .

« سأحمل عنك الصندوق ، وعليك بحمل السلة . ورفع الصندوق على على ظهره ، دون أن يعير ثوبه المفضل أدنى اهتمام ، ورفعت هى الأخرى بدورها السلة وهى لا تزال ممعنة فى صمتها . . . وأخذ يفكر فى مئات الغرف التى قد اجتازها وظهره ينوء تحت هذا الحمل الثقيل . . . !

وتمتم قائلا : هل يوجد بوابة جانبية ؟ فأومأت رأسها له بالإيجاب بعد لحظة قصيرة من التفكير ثم تقدمته فى أرجاء غرفة صغيرة ، غير مستعملة وكان لها باب مستدير قديم ، عبراه إلى الطريق .

وكان ينظر خلفه من حين لآخر ليتطلع إليها وهى تسير فى ثبات على قدميها الكبيرتين كأنما كانت معتادة على أن تسير هكذا طوال حياتها ، وكان وجهها لا ينطق بأية تعبيرات ، وعندما وصل إلى باب السور ، توقف وبحث بإحدى يديه فى حزامه عن الدراهم التى كان قد أودعها فى هذا المكان ، بينما ثبت الصندوق على كتفه بيده الأخرى ، وأخرج درهمين ، واشترى بهما ستة خوخات صغيرة ، ثم قال لها : خذى هذه والتهميها ... فتناولتها من

يده فى نهم ، وتركتها فى يدها ، والصمت يعقد لسانها وعند مانظر إليها وهما يسيران على حافة حقول القمح ، وجدها تقضم إحداها ، ولما التقت عيناها بعينيه ، أطبقت عليها بيدها مرة أخرى ، وسكت فما عن الحركة وسارا على هذا المنوال حتى وصلا إلى الحقل الغربى الذى شيد فيه ، معبد الأرض ، وكان هذا المعبد غير مرتفع ، لايزيد ارتفاعه عن قامة إنسان ، وقد بنى من طوب أسمر وسقف بالقرميد أو بالآجر ، ولقد بناه جد وانج لنج بعد أن أحضر له الطوب من المدينة على عربة كان يمتلكها . .

وكان يقبع فى بهو هذا المعبد تمثالان صغيران يشيعان الرهبة والجلال . وقد بنى كل منهما من طين الحقول المحيطة بالمعبد ، وكان واحداً من هذين التمثالين ، يمثل الإله ، والآخر يمثل زوجته ، يغطيهما ثوبان من ورق أحمر مذهب . . .

وفى غرة كل عام جديد كان والد وانج يشترى لهما أفرخ الورق الأحمر ، تقص كل منها بعناية فائقة ، ويلصق ثوبان جديدان على الصنمين مادام المطر ينهمر عليهما كل عام . والثلج يعصف بهما ، وحرارة الشمس تسطع عليهما فى الصيف فتفسد ثوبهما . .

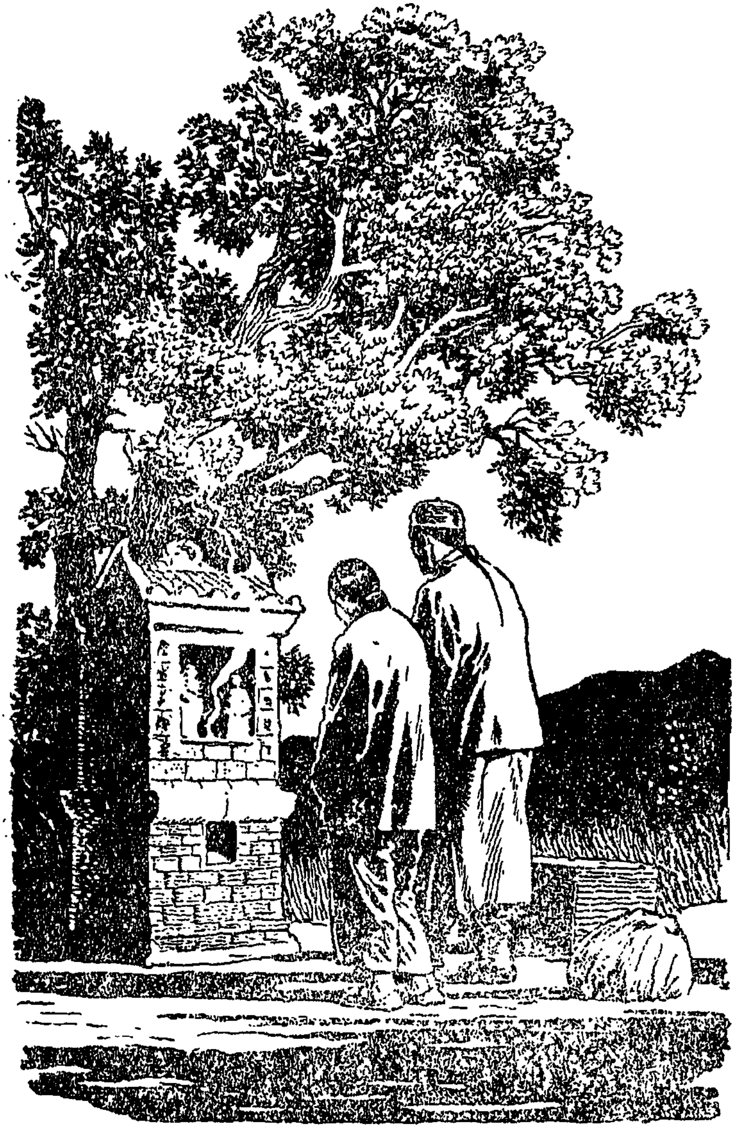
بيد أن الثوبين كانا يبدوان جديدين آنذاك . فشعر وانج لنج بالفخر والتيه لمنظريهما الأخاذ ، فأخذ السلة من يد المرأة وبحث فى دقة تحت لحم الخنزير عن عيدان البخور ، وقلبه يرتجف خوفا من أن يكونا قد تحطما ، فيبدو ذلك فالا غير حسن ، ولكنه وجدها سليمة فلصقها بجوار بعضها البعض فى رماد عيدان البخور الأخرى المكدسة أمام الآلهة ذلك أن جميع الناس فى هذه المنطقة ، كانوا يعبدون هذين الصنمين الصغيرين ، ثم أوقد النار فى العيدان من زناد وقطعة من الحديد . . .

ووقف كلاهما : الرجل والمرأة أمام إلاهى الحقول ، خشعا أمامهما فى صمت رهيب ، بجوار بعضهما البعض ، بينما تصاعدت رائحة البخور ، وأخذت تتلاشى إلى رماد . ولما كانت الشمس آخذة فى المغيب ، حمل وانج الصندوق على كتفه وتوجها إلى البيت . . .

وكان والد وانج يقف على عتبة الباب وهو يشاهد الشمس ترسل آخر شعاع أصفر ساعة الغروب ، ولم يلق لهما بالا إذ كان مما لا يتفق مع سنه ووقاره أن يراقب امرأة ، ولذلك صرخ قائلا : إن هـــذه السحابة التى تتعلق بالطرف الأيسر من القمر الجديد تنبىء بالمطر ، وهى لن تفيض بالمطر قبل الليلة القادمة — ثم صرخ مرة أخرى قائلا : وهل أنفقت نقوداً . . ؟ .

ووضع وانج السلة على المنضدة وقال : سيحل فى بيتنا ضيوف الليلة ثم حمل الصندوق إلى غرفة نومه ، ووضعهـــا بجوار صندوق ملابسه ووصل والده إلى الباب وخاطبه قائلا : لست أرى حداً لتبذير المال فى هذا البيت . ! وفى الواقع أن الرجل كان يحس بسرور خاص لدعوة ابنه لضيوفه . ولـكنه وجد أنه من الأنسب ألا يفصح عن شىء إلا الشكوى أمام زوجة إبنه حتى لاتصبح مسرفة ـ ولاذ وانج بالصمت وأخذ السلة إلى المطبخ ، حيث تبعته المرأة فقال لها : هذا لحم خنزير . وهذا لحم بقر وسمك . . سيحضر سبعة ضيوف للعشاء ، أيمكنك طهى الطعام لهم ؟

ولم يتطلع لوجهها وهو يخاطبها لأنه وجد أنه ليس من اللائق به أن ينظر اليها فردت عليه المرأة بلهجتها البسيطة : لقد كنت جارية فى المطبخ منذ أن حللت ببيت هوانج . وكانت اللحوم تقدم فى كل الوجبات .



وقف سوياً فى خشوع وجلال فى المعبد . . . !

فأومأ لها وانج برأسه موافقا . وتركها ولم يرها حتى ازدحم بيته بالضيوف ، وفى مقدمتهم عمه وإبنه ، ورجلان من القرية ، وجاره القاطن بجواره ؛ المدعو تشنج ، وهو رجل ضئيل هادىء ، وما كادوا يحتلون مقاعدهم فى الغرفة الوسطى ، حتى ذهب وانج إلى المطبخ ليخبر زوجته أن تعد الطعام . وسر قلبه عندما قالت له :

ـ سأناولك الأوانى لتضعها على المائدة فانى أبغض الظهور أمام الرجال

ولقد تأوه وانج زهواً وفخراً لأن امرأته لم تخش الظهور أمامه ، ولكنها تأبى ذلك أمام الأجانب ، وناولته الأوانى بيدها أمام المطبخ ، ثم رتبها على المائدة فى الغرفة الوسطى ، ونادى بأعلى صوته على ضيوفه :

هيا تفضلوا الطعام ياعمى ، ويا أخوانى ـ وعندما قال له عمه المحب للمزاح :ـ ألن ترى عروسك ؟

أجابه وانج فى ثبات : إننا لم نقترن بعد . . وليس من الصواب أن يراها أى رجل سواى حتى يتم قراننا .

ورجاهم وانج أن يأكلوا ، فأكلوا بشهية من الطعام اللذيذ الطعم ، وكان هذا الضيف يمتدح جودة صلصة السمك بينما كان الآخر يثنى على طهى لحم الخنزير ، وكان وانج يرد عليهم مرة بعد أخرى : عفوا إنه طعام ردىء . . سيىء الاعداد ـ والحق يقال أنه كان فى قرارة نفسه فخوراً كل الفخر بتلك الأصناف ، ذلك إنه بالإضافة إلى اللحوم التى طهتها المرأة فانها قد وضعت سكراً ، وخلا ، وقليلا من النبيذ .

وبمهارة فائقة أجادت طهى اللحم واستخلصت كل ما فيه من عصارة ومذاق ، حتى أن وانج نفسه لم يتذوق مطلقا مثل هذه الألوان من الطعام على مائدة أصدقائه .

وفى تلك الليلة بعد أن انتهى أصدقاؤه من تناول الشاى ، وتبادل النكات ، وبعد أن شيع آخر صديق إلى الباب ، دخل وانج إلى المطبخ حيث وجد زوجته تغط فى نومها على القش بجوار الثور ، فأخذها من يدها وقادها إلى الغرفة التى كان قد اغتسل فيها فى الصباح ، وأشعل شمعة حمراء ، ووضعها على المنضدة ، فزحفت المرأة حول ركن من الستارة ، وأخذت تعد الفراش لها ولزوجها . .

الفصل الثانى

فى صباح اليوم التالى اضطجع وانج لنج فى فراشه ، وأخذ يراقب زوجته ، وعلا سعال الشيخ عند الفجر، فخاطبها زوجها قائلا : احملى لأبى وعاءاً من الماء الساخن ليدفىء رئتيه .

فسألته قائله : هل أضع به أوراق الشاى ؟

وأزعج سؤالها وانج ففكر فى نفسه أنه حتى الجوارى قد لا يشربون فى بيت هوانج الماء فقط ، ولكنه أدرك أن والده قد يتملكه الغضب لو أن زوجته قدمت له شايا بدلا من الماء . أضف إلى ذلك أنهم فقراء فرد عليها باكتراث : شايا ؟ لا لا داعى ، فانه يزيد حدة السعال عنده ...

وظل راقداً فى فراشه شاعراً بالدفء والكسل بينما أشعلت زوجته النار ، وغلت الماء فى المطبخ ، وقد أمضى وقته مشتت التفكير فى عمله بحقوله ،وبذر اللفت الأبيض الذى سوف يشتريه من جاره (تشنج) وفى زوجته وطرأ فى باله فجأة سؤال : هل يا ترى تحبه زوجته ؟

وفتحت باب غرفته ، ودلفت منه تحمل وعاءا فى كلتا يديها ، وعاءا مليئا بالماء المغلى ، وقد لاذت بصمتها المألوف . . فى سريره وتناوله منها فوجد بعض أوراق الشاى تطفو على سطحه ، فسدد اليها نظرة سريعة ارتاعت منها وقالت له :

« إنى لم أضع شايا لوالدك الشيخ . وقد فعلت كما أمرتنى ، ولكن لك فإنى . . !

وكان وانج لنج مسروراً ، ورد عليها قبل أن تنهى كلامها . إنى أحبه إنى أحب الشاى ، » ثم أخذ يرتشف الشاى ويتجرع منه جرعات عالية تنم عن سعادته ، وقال مخاطبا نفسه : إن زوجتى تحبنى حبا جما .

وجال فى خاطره أنه فى خلال هذه الأشهر لم يفعل شيئا ما سوى أنه كان براقب زوجته هذه ؛ وفى الواقع إنه كان يسير فى عمله على نفس المنهاج فكان عادة يحمل فأسه على كتفه ؛ ويتوجه إلى المساحات المقسمة من أرضه ، ويزرع صفوفا من الحبوب بالحب . ويحرث الحقل الغربى بالثوم والبصل ، وكان من قبل يعد الوجبات لنفسه عند عودته من الحقل على الرغم من تعبه الشديد ، ولكن حاله قد تغير الآن فالطعام قد أعد له ليأكله ، والمنضدة نظيفة قد أزيل ما علق عليها من تراب ، وقد صفت عليها بأناقة الملاعق الخشبية .

إنه يستطيع الآن أن يأخذ مكانه على الدكة أمام المائده ، فيتناول طعامه فى الحال ، أما زوجته فانها بعد انصرافه فى الصباح ، كانت تأخذ بجرفة من البوص ، وتجول فى أنحاء القرية تجمع العشب أو الورق ، وتعود إلى البيت فى الضحى بما يكفى من الوقود لطهى طعام الغذاء ، وهذا لامراء أثلج صدر الشيخ لأنهم قد أصبحوا فى غنى عن شراء الوقود . .

وفى المساء كانت تحمل فأسا وسلة فوق كتفها ، وتذهب إلى الطريق الرئيسى حيث تلتقط سبلة البغال ، والحمير ، والخيل ، وتحملها إلى البيت لاستخدامها كسماد فى الحقل ، وكانت تؤدى هذه الأعمال فى صمت تام ودون أن يدعوها أحد إلى أدائها ، حتى آذنت الشمس بالمغيب ، كان لا يستقر لها جنب ، أو تهدأ قليلا تستشعر الراحة حتى تنتهى من إطعام الثور وسقيه فى المطبخ .

فرد عليها الرجل قائلا : نعم . . نعم . . الطعام . ثم تبعها إلى المطبخ كالطفل البرىء ، بل أن تفكيره فى الطعام جعله ينسى حفيده الذى ستضعه ، واتخذ وانج مكانه على المقعد إلى المائدة ، وقد لفه الظلام واحتوى رأسه بين يديه مفكرا أومحدثا نفسه :

طفلى . . طفلى . . إنها لحياة جديدة . !

وكانت تأخذ ملابسهم وترقعها ؛ وتضع الفراش فى الشمس ، وتغسل أغطيته وتتركها على أعواد الغاب لتجف ؛ وكل يوم يمر فى أثريوم تؤدى عملا فى أثر عمل حتى بدت النظافة فى أرجاء الغرف ، ولاحت عليها دلائل العز والرخاء ، وخفت حدة السعال التى كانت تعترى الأب ، وكان يجلس بجوار الجدار الجنوبى مستمتعا بدفء الشمس وأشعتها ، فتغفو عيناه وقد شملت أوصاله الحرارة ، وملأ قلبه الرضا .

وخيم الصمت على هذه المرأة ، فهى قليلة الكلام ، لا تتحدث إلا فى ضرورات الحياة ، وكان أحيانا يتجه بتفكيره نحوها ، ويده لا تكف عن العمل فى الحقل ، ماذا يا ترى قد رأت فى المائة بهو فى بيت هوانج وكيف كانت تمضى حياتها ، تلك التى لم يقاسمها ويشاركها فيها ، ولم يكن ليهتدى إلى شىء ، ثم كان يعتريه الخجل لإغراقه فى التفكير فيها والاهتمام بأمرها ، فهى ليست أقل أو أكثر من مرأة . ا

ومع هذا كله فان ترتيب ثلاث غرف ، وإعداد وجبتين ، ما كان ليشغل بال امرأة ظلت جارية إلى حين قريب فى بيت عريق ، تعمل فيه من الفجر حتى منتصف الليل .

وذات يوم بينما كان منهمكا فى زراعة حبوب القمح ، شأنه فى كل يوم حتى كاد الأعياء يقصم ظهره ، وإذا به يرى ظلها وقد انعكس على الأرض الذى كان منحنيا فوقها ، فرآها حاملة الفأس على كتفها ، وبدأته الحديث قائلة : ليس فى البيت عمل أؤديه حتى هبوط الليل . ثم لاذت بالصمت ، وأعملت فأسها فى الأرض على يساره فى ثبات .

وأرسلت شمس الصيف القائظة أشعتها الحـــارة على أجسامهما ،

فتقاطرت حبات العرق من جبينها ، وظل كلاهما ينتقل من ركن إلى آخر كأنهما جسد واحد ، وقد انخرطا فى العمـــل ليستخرجا ثمر الأرض الشهى .

ولما آذنت الشمس بالمغيب ، ومالت إلى خدرها، قوم ظهره فى تؤدة وسدد نظره إلى زوجته ، فرأى وجهها وقد اختلط فيه العرق بالتراب . وجهها الأسمر الذى يحاكى الأرض لوناً ثم قالت على طريقتها البسيطة ، وبلهجتها العادية التى لا يشوبها شىء سوى السذاجة ، قالت وقد سرى صوتها فى نسيم الليل الهادىء :

— إنى حامل . . !

وسمع زوجها كلماتها وظل فى مكانه ذاهلا ساكنا ، فماذا بالله يكون رده على ذلك ؟ ولكن قلبه كان مفعما بالزهو ، فالتقط من يدها الفأس وقال لها : كفانا الآن ما أديناه من عمل . . وانتهى يومنا . . هيا لنخبر أبى الشيخ !

واتخذا أوبتهما إلى البيت ، وهى تسير خلفه قيد خطوات ، كما ينبغى أن تسير المرأة ، وكان الشيخ واقفا بالباب ، وقد استبد به الجوع تواقا إلى وجبة العشاء ، التى لن يعدها لنفسه مادامت قد حلت هذه المرأة فى بيته وكان قلقا فصاح قائلا : إنى رجل عجوز لا يمكننى الانتظار لطعامى طويلا هكذا . !

وبينما كان وانج يعبر الغرفة ، مر بوالده وأخبره بما قالته له زوجته ؛ فغمز الشيخ بعينه لحظة . ثم فهم ما قاله إبنه ، وقرقر بالضحك عندما دخلت زوجة إبنه الغرفة ، ولم يستطع أن يرى وجهها فى الغسق وخاطبته فى هدوء : سأعد لك الطعام الآن . .

الفصـــل الثالث

حانت أيام الوضع : فقال وانج لزوجته :

ـــ يجب أن يكون لدينا شخص ليساعدك فى ساعات الوضع ــ إمرأة ما .

وهزت له رأسها نافية ، ومعبرة عن عدم حاجتها إلى مثل هذه المرأة ، وكانت منهمكة فى حمـــل الصحون من فوق المائدة بعد العشاء ، وآوى الشيخ إلى فراشه ، فظلا جالسين سوياً فى سكون الليـل فسألها قائلا : أترفضين المرأة ! فهزت رأسها مرة أخرى ...أما هو فقد بدأ يألف حديثها معه الذى لا يزيد عن إيماءة بالرأس ، أو إشارة باليد ، أو على الأكثر كلمة تخرج من فمها الواسع بلاطواعية أو اختيار واستطرد قائلا: ولـكن الأمر سوف يبدو غريباً شاذاً ، فالبيت لا يضم سوى رجلين . وكانت أمى تدعو امرأة من القرية فى مثل هذه الأحوال ، ألا يوجد جارية عجوز فى ذلك البيت العظيم ، كنت تصطفينها وتصادقينها فيمكنها الحضور هنا لمساعدتك.

فصرخت فيه غاضبة ثائرة : لا أحد فى ذلك البيت .

فسقط غليونه من يده وهو ملآه ، وحملق فيها ، إلا أنها كانت تجمع العيدان الخشبية التى يأكلون بها ، وكأنها لم تفصـــل شيئاً ، فقال لها فى دهشـة : حسنا . هـذا رأى ! ولـكنها لم ترد عليه ، ثم استأنف حديثه قائلا :

« ليس فى البيت سواى وأبى الشيخ ، وكلانا جاهل بهذه الأمور ، إننا فى حاجة إلى واحدة من البيت ، والآن . . .

وظلت تنظر إليه ، وبعد لحظة أجابت قائلة : عند ما أعود الى ذلك البيت سيكون طفلي على ذراعي ، وسألبسه معطفا أحمر ، وسراويلا مزركشة بورد أحمر ، وسأضع على رأسه قبعة تحلى غرتها صورة ذهبية صغيرة (لبوذا) ، وفى قدميه حذاء رسمت على مقدمته صورة لنمر ، أما أنا فسأنتعل حذاءاً جديداً ، وثوبا من الحرير الأسود ، وسأدخل المطبخ الذى أمضيت فيه أيامى ، والبهو العريض الذى تجلس فى صدره سيدة البيت ، وسأدعهم جميعا يرونى ويرون طفلى .

إنه لم يسمع منها مثل هذه الكلمات من قبل ، وأدرك أنها وضعت أسس حياتها الجديده جميعها بنفسها ، وإنها لاشك كانت تضع نهجها وهى تعمل بجواره فى الحقل . كم تدعو إلى الدهشة هذه المرأة ! ! ، إنه كان يقول لنفسه إنها لا تفكر فى طفلها إلا لماما وانها تقوم بأداء عملها فى هدوء كلما تعاقبت الأيام . يوما فى إثر يوم . وأدرك أن الكلمات لاتخرج من فمه لأول مرة ، وقال لها أخيراً : أظن أنك فى حاجة الى بعض المال ؟

فأجابته فى ارتياع : اذا تفضلت بمنحى ثلاث قطع فضية ، فإنها ستكون مبلغا كبيراً ، ولكنى قد أعددت لكل شيء عدته ، ولن أضيع درهما هباء .

وتحسس وانج لانج فى حزامه ، وتذكر أنه فى اليوم السابق قد باع حملا ثقيلا ونصف حمل من الغاب الذى كان ينمو فى البركة ، بالحقل الغربى فى سوق المدينة ، وكان معه فى حزامه أكثر قليلا مما رغبت ، فوضع ثلاث دولارات على المنضدة ، وبعد لحظة قصيرة ، أضاف إليها دولاراً رابعاً . . . .

وقال لها وهو يشعل غليونه : من الأفضل أن تأخذى القطعة الأخرى ، ليمكنك أن تصنعى له أيضاً معطفه بقطعة من الحرير . ومهما يكن من أمر فهو طفلنا البكر . . .

فلم تأخذ النقود فى الحال — بل تمهلت وهى تنظر إليها ، فقالت وهى شبه هامسة : هذه هى المرة الأولى التى أتناول فيها قطعة من فضة . .!!

وفجأة تناولتها ، وأسرعت إلى غرفة النوم . . .

وجلس وانج لنج يدخن ، ويفكر فى العملة التى كانت موضوعة من قبل على المنضدة ، إن هذه القطعة قد اكتسبها من الأرض ، نعم هذه الفضة من باطن الأرض . . ! و قبل زواجه كان يشعر انه كلما أعطى أحداً أية قطعة كما لو كان ينتزع قطعة من حياته ليعطيها لشخص ما فى إهمال . . ولكن الآن ولأول مرة لم يحس بالم لتخليه عن هذه القطعة ، ذلك أنه لم ير القطعة الفضية فى يد أحد التجار فى المدينة ، بل أنه رأى بعين الخيال أن هذه النقود الفضية ، قد استحالت إلى ملابس تغطى جسم طفله ، وامرأته هذه التى تشتغل بكل جهد وفى صمت ، والتى يبدو عليها أنها لا ترى شيئاً ، قد رأت أولا طفلها هكذا مرتديا ملابسه على الصورة التى تخيلتها . . . !!

لن يكون أحد بجوارها عند ما تحين ساعة الوضع بل حانت تلك الساعة فى ذات ليلة ، مبكرة قبل أن تتأهب الشمس للمغيب ، وكانت بجواره تعمل فى جنى المحصول ، وكانا قد قطعا سنابل القمح من قبل وامتلأت بها الحقول على سعتها ، وعلت هامات الأرز ... واستقامت على عودها ، ثم صارت ممتلئة بالمحصول الوفير ، وتفتحت سنابلها بفضل هطول الأمطار فى الصيف ، ودفء حرارة الشمس فى بواكير الخريف ،

وظلا سوياً يقطعان حزم الأرز طيـــلة النهار ؛ وانحنت فى مشقة وكان جسمها قد بدأ يتصلب ، فتحركت فى بطء شديد ، لذلك لم يتساويا فى جث المحصول ، إذ كان صفه فى المقدمة ، وصفها ورائه ، وازداد بطئها عند ما ارتفع الضحى وولت الظهيرة وأوشك المساء على إسدال ستائره ، فعاد لينظر إليها فى قلق ، فتوقفت ثم تطلعت إليه قائلة : لقد حانت الساعة وسأذهب تواً إلى البيت ، فلا تدخل الغرفة حتى أنادى عليك .....!

وتوغلت فى الحقول فى طريقها إلى البيت وكأنها لا تتوقع أن شيئاً سيحدث لها ، فوقف يراقبها وهى تسير . وتـكاثفت ظلمة الخريف ، تـكسو الوجود بغلالة سوداء ، وفى الحال تبعها زوجها إلى البيت .. فلما وصل وجد طعام العشاء ساخنا ومعداً على المائدة ، ليأكل والده ، فأدرك أنها كانت قد توقفت لتعد طعامها ، وتوقف بجوار باب غرفتها ، ونادى عليها ، آملا أنها سترد عليه ولـكنها لم تجبه .. !

رفع الشيخ وجهه من صحفته ليقول :

ـ كل وإلا برد طعامك، فلا تزعج نفسك الآن فقد يطول الوقت على ساعة الوضع ... ثم قال مرة أخرى كأنما يفـكر فيها فقط : لعلى فى مثل هذا الوقت من الغد أصبح جدا لولد ذكر ....! ثم جلس فى ارتياح ، وقد أغرق فى الضحك لفترة طويلة فى ظلام الغرفة ...

وتوقف وانبج مرهفا أذنيه على باب الغرفة ، ولما نفذ صبره ، ولم يعد يحتمل أكثر مما يجب كاد أن يقتحم الغرفة ، إلا أن صرخة حادة رفيعة صدرت من الغرفة ، وطرقت أذنيه ، وأنسته كل شيء ... فصرخ قائلا وقد نسي زوجته : أهو غلام ذكر ؟ ـ فردت عليه فى خفوت ووهن : نعم إنه ذكر ...

فأسرع وانج الى المنضدة، وتهاوى على المقعد، أما الطعام فكان قد برد، وأما الشيخ فكان يغط فى نومه على مقعده، نعم. لقد حدث كل هذا على جناح السرعة — ثم أخذ يهز كتف أبيه الشيخ وصاح فى ظفر «انه طفل ذكر . . .» قد أصبحت الآن جداً وأنا أب . . !!

واستيقظ الجد بغتة، واستغرق فى الضحك كما كان يضحك قبل نومه

وتناول وانج لنج وعاء الأرز البارد وبدأ يأكل، وعند ما التهم كفايته، وقف بباب غرفتها مرة أخرى ونادت عليه ليدخل ، وكان نور الشمعة الأحمر يضيء الغرفة، وهى راقدة على فراشها ، تحت أغطيتها فى عناية ودقة، فوجد إبنه راقداً إلى جوارها، ملفوفا فى زوج من سراويله القديمة، كالعادة المتبعة فى ذلك المكان وهرول اليها ،ولم تسعفه الألفاظ، وانحنى على الطفل لينظر إليه ،وكان وجهه مستديراً، مجعداً ، شديد السمرة، يغطى رأسه شعر طويل، رطب، أسود، وكان طفله قد كف عن الصياح، ونام وعيناه مغلقتان تماماً . . !

ونظر إلى زوجته، فأجابته بنظرة مثلها فخفق قلبه فى صدره، لزوجته وطفله . وقال وكأنه لا يعرف شيئا آخر يمكن أن يقال :

— «غداً سأتوجه إلى المدينة، وسأشترى رطلا من السكر الأحمر، وأذيبه لك فى مقدار من الماء لتشربيه» وأخيراً نظر إلى الطفل وكأنما قد بدأ يفكر فيه فى تلك اللحظة فقط . . ! سوف نشترى ملء سلة من البيض، ونصبغها باللون الأحمر لنوزعها على أهل القرية، وبذلك يعرف الجميع أنه قد أصبح لى ولد . . . !!

الفصـــل الرابع

فى صباح اليوم التالى بعد ميلاد الطفل نهضت المرأة كالمعتاد ، وأعدت لهم طعام الإفطار ، إلا أنها لم ترافق وانج لنبج إلى الحقول للحصاد وبذلك عمل ذلك اليوم بمفرده حتى وقت الظهيرة ، ثم ارتدى رداءه الأزرق ، وذهب إلى البلدة ، واشترى من السوق خمسين بيضة وإن لم تكن طازجة ، فإنها كانت جيدة ، كل بيضة منها بدرهم واحد ؛ واشترى ورقا أحمر ، ليغليه فى الماء مع البيض ليصطبغ باللون الأحمر ، ثم توجه إلى حانوت لبيع الحلوى ؛ واشترى رطلا أو يزيد من السكر الأحمر ، وأخذ يمتع نظره برأى البائع وهو يضع قصاصة من الورق الأحمر تحت الخيط الرفيع الذى لفه به ، وابتسم وهو يخاطب وانج : أهذا لأم قد وضعت حديثا ؟

فقال وانج فى ازدهاء : — إنه إبنى البكر . . !!

فقال له البائع : حظ سعيد ! . . ثم بدت الدنيا جميلة لوانج وهو يسير تحت أشعة الشمس الحارة فى الطريق المملوء بالتراب ، لقد كان أسعد إنسان فى الوجود !!

ثم دلف إلى حانوت لبيع الشمع والبخور حيث ابتاع أربعة عيدان من الطيب الشذى ، عوداً لكل فرد من أفراد أسرته ، ثم ذهب إلى المعبد وثبت العيدان الأربعة فى الرماد المتخلف من البخور التى وضعها هو وزوجته آنفا ، ووقف يشاهد العيدان وهى تشتعل وتتوهج ، ثم بعد ذلك عاد أدراجه إلى البيت رضى النفس ، قرير العين . . !!

وبعد أن مر هذا اليوم عادت المرأة إلى الحقل بجواره ، لتعمل دون

أن يدرك أى فرد مقصدها ... وانتهت أيام الحصاد ، وخزنت الحبوب ! ولم يبق إلا غرس محصول الشتاء من جديد ، وعند ما بدأ وانج لنج فى حرث الأرض ، كانت زوجته تسير خلفه ، تحمل فأسها . . !

اشتغلت المرأة طيلة يومها . وأرقدت طفلها على لحاف قديم ممزق فرشته على الأرض ، وكانت سمرة الأم وطفلها تحاكى سمرة التربة ، وعلق تراب الحقول بشعر المرأة ، ورأس الطفل اللدنة السوداء . . !!

وأقبل فصل الشتاء فأخذا يستعدان له . وكان يتدلى من عروق السقف خيوط من البصل والثوم المجفف ! وفى أنحاء الغرفة الوسطى وفى غرفة الشيخ ، وفى غرفتهما كانت توجد حصر مصنوعة من البوص ، مطوية على شكل زلع ضخمة مملوءة بالقمح والأرز ، وإن مقداراً كبيراً منها لسوف يباع عند ما يكسو الثلج الأرض فى عيد رأس السنة . حيث يكون الناس قادرين على أن يدفعوا عن طيب خاطر ثمن طعامهم ..!

وكان من عادة عمه أن يبيع حبوبه قبل أن يتم نضجها ، لكى يحصل على نقود قليلة فى يده . لذلك كان يبيعها وهى لم تنضج بعد فى الحقل ليوفر على نفسه مشقة جمع المحصول ، وكانت زوجة عمه امرأة غبية ، بدينة ، كسولة لا تكف عن طلب الطعام الحلو ، والأحذية الجديدة ، التى تباع فى المدينة ، وكانت زوجة وانج لنج على النقيض من ذلك تصنع الأحذية لزوجها ، ولوالده الشيخ ، ولنفسها ، ولطفلها ...

ولم يكن هناك إطلاقاً شىء يتدلى من عروق السقف فى بيت العم ، أما فى بيته هو فكان يوجد كل شىء من فخذ الخنزير ابتاعه من جاره تشنج ، وكانت فخذاً كبيرة ملحتها أولا تمليحاً كاملا ، وعلقتها لتجف . . .

وفى غمرة هذا الخير الوفير ، كانوا يجلسون ليستقبلوا رياح الشتاء الباردة تهب من الصحراء على موقعهم الشمال الشرقى ـ رياح عاتية لاذعة.. وأصبح الطفل قادراً على أن يجلس بمفرده ، وكان كل فرد يغبط وانج ويحسده على طفله ـ ذى الوجه المستدير كالبدر ، وكان خداه عاليين كأمه . . وصار الآن عند حلول الشتاء يجلس على لحاف على أرض الغرفة المبنية من الطين ، وكانوا يفتحمون الباب الجنوبى للدار ليدخل منه النور ، ثم تتدفق أشعة الشمس منه وتغمر الغرفة ، وتعصف الرياح من الشمال أن تؤثر فى جدار البيت .. !

وكانت هذه الرياح الجافة لا تساعد حبوب القمح على الإنبات فى التربة ، وظل وانج يرقب بقلق هطول الأمطار ، ثم انهمرت فجأة فى يوم هادىء معتم ، فجلسوا جميعاً فى البيت ينعمون بالرضا ، يراقبون انهمار الأمطار ، وسقوطها بغزارة فى الحقول ، فتملكت الدهشة الطفل ، ومد يده ليمسك تلك الخيوط الفضية من المطر وهى تتساقط ، فأثار ضحكهم ثم ضحك معهم . . .

وسرعان ما نضج القمح ، واستوى على عوده الأخضر فوق التربة الرطبة السمراء . . . !!

وكان فى مثل هذا الوقت يطيب للناس التزاور ، لأن كل فلاح قد قد شعر لأول مرة أن السماء ، تؤدى أعمالهم فى الحقول ، وأن محاصيلهم تروى دون أن تقصم ظهورهم فى سبيل ذلك ، وفى الصباح كانوا يجتمعون فى هذا البيت أو ذاك يشربون الشاى .. !!

ولم يكن وانج وزوجته يكثران من هذه الزيارات ولم يكن فى القرية

بيت من البيوت المتناثرة تسرى فى رحباته الدفء ،وتموج جنباته بالخير مثل بيتهم .

وأحس وانج أنه لو صادق أهل القرية إلى حد غير مألوف ، فلا بد وأن تنشأ عادة الإقتراض منه ، ولا سيما وأن عيد رأس السنة قد اقترب ، ولا أحد لديه من المال مايعينه على شراء الملابس الجديدة وإقامة الولائم .. !! واستقر فى عقر داره ، وانشغلت زوجته فى ترقيع وحياكة الملابس ، بينما انهمك هو فى إصلاح مجرفته المصنوعة من البوص المشقوق ، وإذا ماوجد حبلها ممزقا ، فإنه ينسج لها حبلا آخر جديداً من الكتان ، وإذا ماوجد طرفا من المجرفة مكسوراً ، فإنه يثبت فيها قطعة أخرى من البوص ...

وهكذا توزع العمل بينهما ، فبينما يقوم هو بكل الإصلاحات لأدوات المزرعة ، كانت زوجته بدورها تقوم بإصلاحات الأدوات المنزلية ..

وعلى هذا المنوال استقر كلاهما فى البيت ، كل منهما راض عن صاحبه ، راضخ لمشيئته ، والسير على هواه ، إلا أنهما لم يتحدثا قط فى شيء سوى تبادل بعض الكلمات المتناثرة ، من حين لآخر مثل هذه الكلمات :

« هل ادخرت الحب من البطيخة الكبيرة للغرس الجديد ؟ » ...

أو .. « سنبيع التبن ، ونحرق سيقان الفول فى الفرن . » أو .. أحيانا كان وانج يقول . « إن هذا الطبق من حساء الشعرية لذيذ حقاً ... » .

فتجيبه أولان قائلة :

« إن الدقيق الذى صنعناها منه هذا العام من أطيب وأجود القمح الذى زرعناه فى حقولنا » .

وفى هذا العام هبطت على وانج كمية وفيرة من الدولارات الفضية تكفيهم وتزيد ، وكان يخشى على هذا المبلغ المدخر فى حزامه ، فلم يخبر أحداً عنه سوى زوجته ، وملكتهم الحيرة فى الاهتداء إلى مكان يحفظان فيه هذه الدولارات ، وبعد لأى حفرت المرأة بمهارة ثقباً صغيراً فى جدار غرفتهما ، خلف سريرهما ، أخفاها فيه وانج ، وغطت هى على الثقب بقطعة من الطين ، فلم يبدو مطلقا أن وراءه ، أو فيه شيئا ما ، وأحس كلاهما بشعور واحد خفى ، باقتناء ثروة خفية ، ولذلك كان وانج يسير وسط رفقائه راضياً عن نفسه كل الرضا ، وراضيا عن الناس أجمعين . . ! !

الفصـــل الخامس

أهلت طلعة العام الجديد ، وكانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق في كل بيت ، وذهب وانج إلى المدينة واشترى من بائع الشمع بعض القصاصات من الورق الأحمر ، لصقها على أبواب بيته ، وعلى أدواته الزراعية ، تيمنا واستبشاراً بالحظ السعيد ، واشترى أيضاً ورقا أحمر لتكون أردية للصنمين ، صنعهما أبوه لهما صنعا متقنا ، ثم أخذهما وانج وألبسهما للصنمين ، وأحرق البخور أمامهما بمناسبة عيد رأس السنة ، واشترى لبيته شمعتين حمراوين فى ليلة العيد تحت صورة إله كانت معلقة على الحائط فى الغرفة الوسطى فوق المائدة . . !

وذهب وانج مرة أخرى إلى المدينة ، واشترى دهن خنزير ، وسكراً أبيض ، وخلطتهما زوجته ، وصنعت منهما كعكا دسما للعيد ، وكان هذا الكعك يسمى كعك القمر ، كالذى رأته يعمل ويؤكل فى بيت هوانج . . !

وعندما وضعت الكعك على المائدة ليبرد ، كاد قلب وانج يثب فى صدره ، وينفجر من الفخر بزوجته ، وخيل إليه أنه لا يوجد امرأة مثلها فى القرية ، قادرة على صنع ما صنعته بيديها ، مثل الكعك الذى لا يتوفر على صنعه وأكله إلا الأغنياء والموسرين ولذلك قال : إنه لمن المؤسف أن يؤكل مثل هذا الكعك . !

وكان والده يحوم حول المائدة ، جذلا مسروراً كالطفل لرؤية هذه الألوان الحمراء الزاهية .

فقال لإبنه : ناد أخى وأطفاله ـ دعهم يرون هذه الأشياء . !

ولـكن رغد العيش ، ووفرة الخير جعلت وانج رجـلا حريصاً ، فالإنسان لايحب أن يدعو الفقراء الجائعين ليروا الـكعك فقط ، وكانت زوجته ملوثة اليدين بالدقيق الناعم ، والدهن السميك فقالت : إننا لسنا أغنياء غنى فاحشاً لنأ كل سكراً أبيض ، ودهناً ، فإنما قد أعددت هـذا الـكعك لأحمله إلى سيدتى العظيمة فى بيتها العظيم وسأحمل طفلى فى اليوم الثانى للعيد ، وأقدم كعكى هدية لهم . وأصبح كل شىء عدا هذه الزيارة إلى البيت العظيم فى ذلك العيد أمراً تافهاً ، ولذلك عنـد ما ارتدى وانج معطفه القطنى الجديد الذى صنعته له زوجتـه أولان قال وانج لنفسه : سأرتدى هذا الثوب عند ما أصحب زوجتى وطفلها إلى البيت العظيم .

ولمـا أشرق صباح اليوم التالى للعيد ، اليوم الذى تزور فيـه النساء بعضهن بعضاً ، بعـــد أن يكون الرجال قد أ كلوا فشبعوا ، وشربوا فارتووا ، إستيقظ وانج وزوجته عند مالاحت خيوط الفجر ، فألبست الأم طفلها ثوبه الأحمر ؛ وحـــذائه المحلى بوجه النمر من صنع يدها ، ووضعت على رأسه التى حلقها له أبوه بنفسه قبل أن تلفظ السنة الماضية أنفاسها فى آخر يوم لها ، وضعت على رأسه قبعته الحمراء المتواضـعة المطرزة فى جبهتها صورة (بوذا) المذهبة ، ثم وضعته على السرير ، ثم ارتدى وانج لنج ملابسه سريعاً ، بينما أخـذت زوجته تمشط شعرها الطويل الأسود ، وعقدته بدبوس من النحاس الأصفر المطلى بالفضـة الذى أهداه لها زوجها ؛ ثم ارتدت ثوبها الجديد الأسود ، وحمل زوجها طفله ، وحملت هى كعكها فى السـلة ، وانطلقا سويا فى الطريق ، وسط الحقول الجرداء ، فى فصل الشتاء !

وحينئذ تلق وانج لنج جزاءه الحسن عند باب بيت هوانج العظيم ، ذلك إنه عند مالبي البواب نداء المرأة فتح عينيه ، واتسعت حدقتاه ، وصرخ قائلا : آه . وانج الفلاح . إنكم فى هذه المرة ثلاثة أفراد . إنكم سعداء وإن الإنسان ليس فى حاجة لأن يتمنى لكما حظا أسعد هذا العام عما نعمتما فيه فى الزيارة السابقة . هلا جلست فى غرفتى المتواضعة حتى أعان قدوم زوجتك وطفلك لدى سادتى ؟ ! .

ومضى وقت طويل قبل أن يرجع البواب بالمرأة والطفل من داخل الدار وبدا على وجه المرأة آيات الرضى .

وسار وانج بجوارها مشغوفا لسماع مادار فى داخل البيت مع زوجته والسيدات ، حيث أنه انتهت مهمته لم بعد له شأن فى البيت . وقال وهو يسرع الخطى مع أولان « خيراً » ؟ « فاقتربت منه وهمست له قائلة:

— أعتقد ، إذا سؤلت أن أهل البيت لا يمتلكون مالا وفيراً هذا العام ! .

فسألها وانج قائلا . ماذا تعنين ؟ .

— أعنى أن السيدة الكبيرة كانت ترتدى هذا العام نفس الثوب الذى ارتدته فى العام الماضى ولم ألاحظ مثل هذا يحدث مطلقا من قبل ، أما الجوارى فليس لديهم ثياب جديدة ، فلم أجد جارية هناك ترتدى ثوبا مثل ثوبى هذا ، أما عن طفلنا فلم يكن هناك طفل يماثله فى جماله ، أو يضارعه فى بهاء ثوبه ! .

وما انتهت من كلامها هذا حتى علت وجهها ابتسامة عريضة ، وضحك وانج ضحكة عالية ، ثم قال لزوجته : — « ألم تكتشفى لماذا قد أصبحوا فقراء ؟ » .

ـــ « إن الطباخة التى كنت أعمل تحت إمرتها ، أخبرتنى أن السادة الشبان الخمسة يبعثرون اموالهم ويبذرونها كالماء فى جهات غريبة ؛ وأن الإبنة الثالثة سوف تتزوج فى الربيع ، وانها ستحظى بالحصول على كل ماهو طيب وثمين ، ولذلك فلا بد وانهم سيصبحون فقراء .

ثم استطردت قائلة : « أما بخصوص السيدة الكبيرة فقد اخبرتنى بنفسها انهم يرغبون فى أن يبيعوا قطعة الأرض التى تقع فى جنوب البيت خارج الأسوار حيث كانوا دائما يزرعون الأرز .

فأعاد وانج مدهوشا : أيبيعون الأرض !

إنهم حقا موشكون على الفقر ـــ ما الأرض إلا لحم الإنسان ودمه !!

وفجأة جالت بخاطره فكرة ، فاستدار نحو المرأة وقال لها : هذا ما لم أفكر فيه ! سنشترى الأرض ! وحملق كلاهما فى الآخر ، والسرور يفعمه ، والذهول يتملكها ! .

« وصاح فى صوت كصوت السادة مردداً : سأشتريها ـ سأشتريها من بيت هوانج العظيم ! .

فردت قائلة . إن هذه الأرض شاسعة البعد . وسيتحتم علينا أن نسير الصباح كله حتى نصل إليها .

فرد عليها مردداً ومؤكداً : سوف اشتريها ! . فأجابت قائلة : إنه لأمر محبب إلى النفس أن نشترى أرضاً ! . ولكن لماذا لانشترى قطعة من أرض عمك فهو يريد أن يبيع المساحة القريبة من حقلنا الغربى الذى نملكه .

فقال لها وانج فى كبرياء : لا أريد شراء أرض عمى فتربتها يابسة كالجير . . كلا . . سأشترى بالتأكيد أرض هوانج .

وكفت المرأة عن المعارضة وقالت :

دعنا نشتريها ، ومهما يكن من أمر فإن الأرض التى تزرع بالأرز ؛ أرض طيبة ، وهى قريبة من الخندق وتستطيع أن تحصل على الماء كل عام .. هذا أمر مؤكد . .

وانتشرت ابتسامة بطيئة خفيفة على وجهها ، وبعد لحظة قالت : يا إلهى!! فى العام الماضى ما كنت إلا جارية فى ذلك البيت ...

واستمرا فى سيرهما ، صامتين ، وقد تملكت منهما هذه الفكرة وسيطرت عليهما . . .

الفصـــل السادس

إن قطعة الأرض التى أشتراها (وانج لنج) كانت حدثاً هاماً غيرت من مجرى حياتهما تغيرا ملحوظا .. فأولا بعد أن أخرج الفضـــة التى اكتنزها من الحائط ، وحملها إلى البيت الـكبير، امتلأ قلبه بالندم ، وود لو أنه استرد فضته . ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الأرض سوف تستغرق منه ساعات من الجهد والعمل ، وكما قالت أولان إنها على بعد أميال وأخيراً فان هذه الأرض قد اشتريت عن طريق وكيل السيد العجوز وهو شخص بغيض ، ولذلك كانت أحيانا تبدو الفضة التى دفعها وانج لنج أكثر قيمة ، وأعز منالا من الأرض، ولا غرو فإن الإنسان يستطيع أن يراها أمامه فضة متلألئة ..! حسنا . إن الأرض قد أصبحت ملـكا له على الرغم من كل شىء ، وفى ذات يوم لم تـكن شمسه ساطعة ، فى الشهر الثانى من العام الجديد ، ذهب ليلقى نظرة على الأرض ، ولم يكن يدرى أحد أن الأرض قد أصبحت ملـكا له ، ولذلك توجه ليراها وحيداً ، وكانت عبارة عن قطعة أرض مربعة من الطفل الأسود السميك تمتد مترامية بجوار الخندق المحيط بسور المدينة ، وقال محدثا نفسه وهو ينظر اليها فى شكلها المربع ، إن هذه الأرض لا تعنى شيئا لهؤلاء القاطنين فى البيت الـكبير ، ولـكنها بالنسبة لى تعنى كل شىء ..!

وأقبل الربيع ، وهبت رياح عاتية ، تدفع سحبا ممزقة تحمل بين طياتها المطر ، وامتلأت أيام وانج لنج العاطلة عن العمل فى فصل الشتاء لمنتصف النهار ، إمتلأت بالعمل الجدى ، والـكفاح المتصل ، فى أرضه .

وكان الجد الشيخ يعنى بحفيده الطفل ، بينما كانت الأم تعمل مع زوجها ، من الفجر حتى غروب الشمس ، وعندما علم وانج لنج ذات يوم أن زوجته ستضع طفلا آخر ، كانت فكرته الأولى هى أنها لا يمكنها أن تعمل أثناء الحصاد وفيما عدا هذا لم يتحدثا فى شيء عن الطفل الثانى ، حتى حان يومها فى الخريف ، عندما وضعت فأسها فى الحقل جانباً ، وهرعت متسللة تجر أذيالها إلى البيت ، أما هو لم يرجع إلى البيت ذلك اليوم ليتناول طعام الغذاء ، لأن السماء كانت ترعد وتغطى صفحتها سحب داكنة ، أما أرزه الناضج تمام النضج فكان ينتظر حصاده ، وجمعه فى حزم ، وبعد ذلك وقبل أن تؤذن الشمس بالمغيب ، عادت المرأة مرة أخرى لتعمل من جديد بجوار زوجها .. !

وسألها دون أن يتوقف عن العمل : أهو ذكر أم أنثى ؟ فأجابته فى هدوء : إنه ولد ثان ..!

ولم يتبادلا كلمة فيما بينهما ، إلا أنه كان مفعم القلب بالسرور ، وظل يكدح ويعمل حتى بزغ القمر فوق كتلة من السحب ، وانتهى من عمله بالحقل ، وعاد إلى البيت ..!

وبعد أن تناول عشاءه ، واستحم بماء بارد ، ومضمض فمه بالشاى دخل وانج الغرفة ليرى طفله الوليد وكانت أولان قد اضطجعت على سريرها بعد انتهائها من طهى العشاء ، بجوار طفلها ، وكان طفلا بدينا هادئاً ، وديعاً ، فى صحة طيبة ، إلا أنه لم يكن ضخم الجثة ، كالطفل الأول فنظر إليه وعاد أدراجه إلى الغرفة الوسطى ، قرير العين . أبناء كل عام ! حقا إن زوجته هـــذه لم تجلب له شيئا ، سوى الحظ السعيد ! فصاح

بوالده قائلا : والآن يا أبتى الشيخ ، أما وقد ولد لك حفيد آخر ، فسندع حفيدك الأكبر ينام بجوارك .. !

وكان الشيخ مغتبطا مسروراً ، إذ كان يريد منذ وقت طويل أن يحتضن حفيده فى سريره ، ليدفئه ؛ ولكن الطفل ما كان ليبرح أمه ويفارقها بيد أن جده أخذ يحملق فى الطفل الجديد ، وهو راقد بجوار أمه ، وقد بدا عليه أنه قد أدرك ، أن طفلا آخر قد احتل مكانه بجوار أمه ، فسمح لنفسه أن ينام فى فراش جده .

ومرة أخرى عاد عليه الحصاد بأطيب الثمر ، وجمع وانج نقوداً فضية كثيرة من بيع محصوله ، وأخفى النقود مرة أخرى فى الحائط ، وأصبح كل فرد يعلم الآن أن وانج لنج يمتلك الأرض ، وجرى حديث فى القرية لاختياره لهم رئيسا .. !

الفصـــــل السابع

أصبح عم وانج لنج مصدراً للقلق والمتاعب ، وهـذا ما كان يخشاه وانج من البداية ، .وكان هذا العم هو الأخ الأصغر لوالد وانج ، وطبقا لما تقضى به تقاليد الأسرة جميعها ، له أن يعتمد على ابن أخيه وانج إذ أعوزته الحاجة ، هو وأسرته وما دام وانج وأبوه فقيرين فإن العم كان يجد الكثير الذى يمكنه من إطعام أطفاله السبعة ، وزوجته ، وإطعام نفسه وهكذا كانوا يجدون الطعام لقمة سائغة لذلك كانوا لا يعملون شيئا ، فلم تحاول الزوجة أن تحرك نفسها لتكنس أرض كوخهم ، ولم يكترث الأطفال بتنظيف وجوههم لما علق بها من طعام ، وكان من المخجل إنه كلما كبرت البنات ، وتقدم بهم العمـــــر ، لا يزالون يجرون فى شوارع القرية ، وأحياناً يتحدثون مع الرجال . !

وعندما تقابل وانج ذات يوم ، مع ابنة عمه ، استبد به الغضب ، واستجمع شتات شجاعته وذهب إلى زوجة عمه ، وقال لهـــا : خبرينى الآن من يقبل الزواج من فتاة مثل ابنة عمى ؟

ولم يكن فى زوجة عمه عضو نشيط يضارع نشاط لسانها ، وهذا اللسان أطلقته فى وانج ، :ـ مرحى ... من سيدفع تكاليف زفافها ؟ إنه لمن المستحسن أن يتكلم هؤلاء الذين يملكون الأرض الشاسعة ولا يعرفون مايفعلونه بها ، ولكن عمك رجل مسكين ، وإذا كان هنالك أناس غيره ينتجون الحب الوفير الثمر ، فإن بذوره تموت وهى ما زالت نبتاً فى الأرض ولا تثمر إلا العشب .

وانفجرت عامدة فى عويل متصل ، ودموع مدرارة ، وشملتها سورة من الغضب والهياج ، واندفع جيرانها من النساء من بيوتهن ، ليشاهدوها ويسمعوها ، وكان ونج لنج واقفا فى مكانه لا يبرحه حتى ينجز المهمة التى أتى من أجلها ، ولذلك قال: ولو أنه ليس من شأنى أن أنصح شقيق والدى فإنى سأقول هذا : أنه لمن الخير أن تتزوج الفتاة وهى ما زالت صغيرة ، ولا يؤذن لها أن تجول فى الطرقات .

وبعد أن أبان عن مقصده بهذا القول الواضح انصرف إلى حال سبيله ، إلى منزله تاركا زوجة عمه تصرخ وتولول .. وفى صباح اليوم التالى جاء عمه إلى الحقل حيث كان وانج يعمل فى أرضه ، أما أولان فلم تكن موجودة هناك ، لأنها كانت ستصنع طفلا ثالثا . وفى هذه المرة لم تكن على ما يرام ، وظلت عدة أيام لا تحضر إلى الحقل ، ولذلك عمد وانج لنج إلى العمل بمفرده ..

جاء إذن عمه إلى حيث كان وانج لنج ، ووقف فى صمت بينما كان وانج يدق بفأسه فى خط ضيق ، بجوار مساحات الفول العريضة التى كان يزرعها ، وأخيراً قال وانج لنج دون أن يرفع رأسه إلى أعلى :-

معذرة يا عمى لعدم توقفى عن العمل ، فلاشك أن فولك قد تم زرعه أما أنا فبطىء - فلاح مسكين ، لا أنتهى من عملى لأستريح .

فهم عمه بجلاء ما قصده وانج بكلامه ، ولكنه رد عليه قائلا : إننى سىء الحظ إلى أقصى حد ، سنشترى الفول هذا العام ، إذا رغبنا فى أكله . ! وأعقب ذلك تنهيدة عميقة . .

وتحجر قلب وانج لنج فقد أدرك أن عمه قد جاء ليطلب شيئا منه ، ثم عاد عمه إلى الحديث :-

إن المرأة التي في البيت قد أخبرتني عن اهتمامك بابنتي الجارية الكبرى. وأنت على حق ؛ فإن عقلك راجح رغم صغر سنك ، وينبغي أن تتزوج ، ولو كنت غنياً مثلك الآن فإني ما كنت أتقاعس عن مقاسمة ثروتي معك ، لأزوج بناتك ، لأزواج صالحين ، فضلاء .. !

فأجاب وانج لنج في اختصار : أنت تعلم بأني لست غنياً ، وعندي الآن خمسة أفواه أطعمها ، ووالدي رجل طاعن في السن ، لا يستطيع العمل ولذلك أعوله وأطعمه ؛ وهنالك طفل آخر يولد في هذه اللحظة في بيتي كما أعلم .. !

فصرخ عمه قائلا :ـ انك غني ... أنت ترى ؛ من غيرك في القرية استطاع أن يشتري أرضاً من البيت الكبير ؟

وقذف وانج لنج فأسه ، وصاح بصوت عال ، محملقا في عمه : إذا كنت أمتلك حفنة من الفضة ، ذلك لأني أكدح وزوجتي تكدح ، ونحن لسنا كما يفعل غيرنا ، نجلس متكاسلين ، نثرثر ، ونبدد الوقت ، ونهمل الحقل فلا تنبت إلا أعشاباً ؛ أو نترك أطفالنا يتضورون جوعاً ..

وصعد الدم حاراً في وجه عمه الأصفر ، واندفع نحو ابن أخيه وصفعه على خديه ، وصرخ قائلا :ـ

إن هذا لتجاسرك على أن تتكلم بوقاحة لمن هم في جيل والدك ..

ووقف وانج عابساً ، وقد أدرك خطأه ، ولكن الغضب كان يملأ أعماق قلبه نحو هذا الرجل ، الذي يدعى عمه .. !

وصاح عمه بصوت ينم عن حدة الغضب :

ـ سأخبر أهل القرية جميعا بما قلته ... القرية كلها ... وكرر

هذه الجملة مرات ، ومرات ، حتى قال له وانج على كره منه : ماذا تريدنى أن أفعل ؟

وهدأ عمه فجأة ، وابتسم ، ووضع يده على ذراع وانج لنج ، وقال له فى هدوء : آه .. أنى أعرف أنك .. ولد طيب .. ولد طيب .. ضع قليلا من الفضة فى هذه اليد الفقيرة البالية .. قل عشرة أو تسعة ؛ وبذلك أقوم بالترتيبات مع وسيط الزواج ؛ بخصوص ابنتى . آه إن رأيك لصائب .. لقد حان الوقت . لقد حان وقت زواجها ..

والتقط وانج فأسه ، ثم ألقاه على الأرض مرة أخرى ثم قال فى إيجاز: تعال معى إلى البيت فإنى لا أحمل نقوداً فضية معى كالأمراء ، ثم خطا إلى الأمام وسار أمام عمه ، وقد ألجمته مرارة الألم فلم يتكلم ، لأن بعضا من نقوده الفضية العزيزة التى قد أزمع أن يشترى بها مزيداً من الأرض سوف تنتقل إلى جيب عمه ..

ثم هرول إلى داخل الغرفة ، وأبعد من طريقه ولديه الصغيرين ، اللذين كانا يلعبان ، عاريين فى الشمس الدافئة ، ونادى عمه على الطفلين ، وحملهما على ذراعيه وأخذ يضمهما — إلا أن وانج لم يتوقف ؛ ودخل الغرفة التى ينام فيها مع زوجته ، وطفله الأخير ، وكانت حالكة السواد ، فلم يبصر شيئا فى طريقه ، ولكنه كان يعلم أن زوجته نائمة فيها ، فنادى عليها بخشونة : ماذا جرى ؟ .. هل حان الوقت ؟ ..

ورد عليه صوت زوجته من تحت الفراش فى ضعف شديد لم يسمع مثله من قبل : لقد انتهى كل شىء هذه المرة .. إنها جارية هذه المرة . بنت لا تستحق الذكر !

ووقف وانج فى مكانه ساكنا ، وتملكه شعور بالشر والنحس أنى .. وإنها لأنثى تلك التى تثير كل هذه المتاعب فى بيت عمه. والآن فقد ولدت له أنثى فى بيته أيضاً . . !

وخرج دون أن يجيب، وذهب إلى الحائط وبدأ يتحسس خشونة الحائط ، والتى كانت هى العلامة على مخبأ النقود ، ثم أزال الحجر الذى يسد الثقب ، ثم عبث بأصابعه فى كومة النقود الفضية . وعد منها تسعة قطع .. وخاطبته زوجته فجأة فى الظلام متسائلة :

ــ لماذا تخرج النقود الفضية من مكانها ؟ . .

فرد عليها فى إيجاز :ــ إنى مضطر لأن أقرضها لعمى .. ولم تسرع زوجته بالرد أولا . ثم قالت بطريقة واضحة جزلة : من الأفضل ألا تقول (أقرض) فلا يوجد إقراض فى هذا البيت ، بل هو (المنح) فقط . . .

فأجاب وانج لنج بمرارة : حسناً .. أعلم ذلك .. وعندما خرج من الغرفة دفع المال إلى عمه ، وعاد أدراجه إلى الحقل على جناح السرعة ولم يفكر فى شىء إلا النقود الفضية ـ تلك النقود التى جمعها بالألم وعرق الجبين ، من ثمار حقله ، لتفىء عليه بالخير ، ولتعود بالمزيد من الأرض ..!!

وعندما ارخى الليل سدوله ، كانت سَورة غضبه قد تبددت ، فأصلح من شأنه ، وتذكر بيته ، وطعامه ، ثم فكر فى ذلك المخلوق الجديد الذى حل بالبيت ، ولم يفكر ، من فرط غضبه الشديد على عمه ، فى أن يتوقف ليرى وجه الوليدة الجديدة ..

ووقف مستنداً على فأسه ، وقد امتلأت نفسه بالغم ، فعليه أن ينتظر حتى يحين موسم الحصاد الجديد فيمكنه أن يشترى قطعة الأرض التى تجاور قطعته الحالية . . بالإضافة إلى المخلوقة الجـــديدة ، التى ستطعم عما قريب ، وحلق سرب من الغربان فوق رأسه ، وأخذت تنعق عالياً ، وراقبها قليلا ، فوجدها تختفى كالسحابة بين الأشجار ، صوب بيته ، وانطلق يعدو نحوها ، يصيح ، ويهز فأسه فى الهواء ، فحطت قليلا فوق الأشجار ، ثم انطلقت مرة أخرى . وحلقت مثنى وثلاث فوق رأسه ، ثم أمعنت فى الطيران فى السماء التى كانت تظلم رويداً ، رويداً ، . . وتنهد عالياً لقد كان ذلك فألا سيئاً ، وطالع نحس . . .

الفصـــل الثامن

إنه ليبدو أحيانا إذ تنكرت الآلهة لإنسان مرة فكأنما لن ترعاه مطلقاً ، فالأمطار التى كانت ينبغى أن تسقط فى بواكير الصيف ، امتنعت عن الهطول ، وظلت السماء يوما بعد يوم تلمع فى صفاء رتيب .

والحقول التى زرعها وانج ، والتى أستنفزت كل طاقته ، جفت تربتها وتشققت ، وسيقان القمح التى شبت عن طوقها عند حلول الربيع كفت عن النمو ، ثم أخيرا انكمشت ، فأصفرت ، وصارت هشيما تذوره الرياح وكذلك أحواض الأرز التى بذرها وانج لنج ، أصبحت كمربعات من حجر (اليشم) الأخضر على التربة البنية ، وبعد أن تخلى عن زراعة القمح ، ظل يحمل للأرز الماء يوما بعد يوم فى دلوين يحملهما على عصا سميكة من البوص على كتفيه . وأخيرا جفت المياه فى البركة ، وتراكمت فى قاعها كتلة مستديرة من الطين ، وهبط الماء فى قاع البئر حتى قالت أولان لزوجها أخيراً : إذ كان من الضرورى أن يشرب الأطفال ؛ وأن يلطف أبوك صدره بالماء الساخن ، فلا بد وأن يجف النبات . . . وانفجر وانج لنج بدموع وأنين مجيبا « حسناً . فليموتوا كلهم عطشاً ، إذا لم نجد للنبات ماء نرويه » .

« حقاً ان حياتهم جميعا ، وأرواحهم تعتمد على غلة الأرض ..!

ولم يكن هنالك سوى قطعة من الأرض بجوار الخندق هى التى كانت تحمل محصـــولا ، لأن وانج قد ترك كل حقوله الأخرى ، وظل طيلة النهار فى هذه الأرض ، يحمل لها الماء من الخندق ليصبها فوق التربة العطشى ، وفى هذا العام لأول مرة ، باع قمحه بمجرد أن حصده ، وعندما شعر

بالنقود الفضية فوق كفه ، قبض عليها بقوة ، وهرول مسرعاً إلى بيت هوانج ؛ وقابل وكيل الأرض وقال له فى الحال :

« معى من النقود مايعيننى على شراء الأرض الملاصقة لأرضى بجوار الخندق . »

وأطبق الوكيل بقبضته على المال ، وانتقل المال من يد إلى يد ، ووقعت الأوراق وختمت وأصبحت الأرض ملكا لوانج لنج ، وأصبح وانج لنج يمتلك حقلا فسيحاً من الأرض الطيبة ، وكانت مساحة الأرض الجديدة ضعف حقله الأول ، ولم تكن خصوبة الأرض السوداء هى التى أفعمت قلبه سروراً ، وزادته زهواً ، وإنما شعوره بأنها كانت ملكا لأسرة أمير ثم أصبحت ملكا له ، وفى هذه المرة لم يخبر أحدا بما قد فعله ..

ومر الشهر تلو الشهر ، ولاتزال السماء جامدة لا تجود بالمطر ، وعند ما اقترب الخريف ، تجمعت سحب خفيفة صغيرة فى السماء ، وكان الناس يقفون فى شوارع القرية عاطلين ، قلقين . يتناقشون ويتساءلون : هل ياترى هذه السحابة ستجود بالماء ؟ ولكن قبل أن تتجمع سحب كافية لتوفى بالوعد ، هبت ريح قارصة من الشمال الغربى ، من أقصى الصحراء ، ودفعت السحب أمامها فى صفحة السماء ...

وجنى وانج لنج نذراً يسيراً من محصول فول جامد . ومن حقل القمح الذى كان قد غرسه عند ما أصفرت وماتت أحواض الأرز ، اقتطف سنابل قصيرة سميكة ، فى كل سنبلة حبات ضئيلة ، وقشرها هو وزوجته فوق أرض الغرفة الوسطى ، وهو يراقب بعين حذرة كل حبة تتطاير بعيداً ، وعندما أراد أن يضع القوالح جانباً لتكون وقوداً ، قالت له زوجته : كلا . . لا تبددها بالحريق ، فإنى لأتذكر عندما كنت طفلة ، حينما

مرت بنا سنوات عجاف ، أننا كنا نطحن (القوالح) ونأكلها فهي أفضل في أكلها من الأعشاب!

ولاذ جميع من في البيت حتى الأطفال بالصمت بعد أن تكلمت أولان ؛ فلقد كان التشاؤم يسيطر على مشاعر الناس في هذه الأيام الغريبة ، الساطعة الشمس عندما كانت الأرض عاجزة عن أن تجود عليهم بالخير ..

وكان وانج لنج إذا سأله أحد هذا السؤال : وكيف تجدون طعامكم خلال الشتاء ؟ — كان يجيب قائلا : لست أدرى . إننا نقتات طعاما ضئيلا من هنا أو هناك كيفما تشاء الظروف .. إلا أنه لم يكن هناك من يتوجه إليه بهذا السؤال ؛ فلم يكن هناك إنسان يتبرع بالسؤال عن غيره فكل واحد كان يفكر في نفسه فقط ، ويسألها هذا السؤال : كيف أجد طعامي اليوم ؟ .. ، وكان وانج يعنى بثوره كل العناية ، ويبذل له من ذات نفسه كل رعاية ، ثم حان يوم لم يتبق فيه مقدار من الأرز أو القمح إلا قليلا من الفول ، ومقداراً ضئيلا جدا من خزين القمح ، وخر الثور من شدة الجوع فقال الشيخ : سنذبح الثور ونأكله فيما بعد .. !

وصرخ وانج لنج لأن الثور كان رفيقه في الحقل ، ولقد عرفه منذ عهد الشباب عند ما اشتروه في ذلك الحين عجلا صغيرا .. !

وقال وانج : كيف نتجاسر على أكل الثور ؟ وكيف يمكننا أن نحرث الأرض مرة أخرى؟ ولكن والده الشيخ أجاب قائلا : حسناً فإما حياتك أو حياة الحيوان ، وإما حياة إبنك أو حياة الحيوان ولا شك أن الإنسان يستطيع أن يشترى ثوراً آخر ولكنك لا تستطيع أن تشترى حياتك في سهولة ويسر ..

ولكن وانج لم يرغب فى أن يذبح الثور فى ذلك اليوم ، ومر يوم وأعقبه يوم آخر ، وصرخ الأولاد من ألم الجوع ، ونظرت أولان إلى زوجها تستعطفه ، وأدرك أخيراً ما يجب أن يفعل ، ولذلك قال بخشونة : اذبحوه أنتم ، فأنا لا أستطيع . .

وهرولت أولان خارج الغرفة ، لتذبح الثور وقطعت فى رقبته شقاً عظيماً ، ثم سلخته ، وقطعت الحيوان الضخم إرباً إرباً . . ولم يتجاسر وانج لنج على الاقتراب منها حتى انتهت من مهمتها ، وطهت لحمه وأعدته على المائدة ، وعندما حاول أن يأكل لحم الثور ، لم يستطع أن يزدرده ، فشرب قليلا من حسائه ، وقالت له أولان :

ـــ ما الثور إلا ثور . وهذا الثور قد كبر وشاخ ، فكل منه وسيكون لدينا يوماً ما ثور أحسن منه . .

وواست كلماتها قلب وانج ، فالتهم قطعة ، ثم قطعة أخرى ، وهكذا أكل الجميع . .

ولاحت فى القرية بادىء الأمر بوادر الغضب والحقد على وانج لنج ، لأن أهل القرية ظنوا أنه يملك فضة يخفيها ، وطعاماً يختزنه فى مكان ما ، وكان عمه أول الساخطين ، فجاء إلى بابه يستجديه فأعطاه وانج فى نفور كومة صغيرة من الفول ، وحفنة ثمينة من القمح ثم قال له فى ثبات :

« إن هذا كله ما أستطيع أن أمنحه لك ، وهنالك أبى الذى يجب أن أرعاه ، ، وهذا إذا افترضت أنه ليس لى أطفال » .

وكان كلما أتت أسرة على خزينها فى القرية ، وأنفقت آخر درهم ،

فى شراء ما يلزمها من أسواق القرية القليلة ، وكلما هبت رياح الشتاء من الصحراء قارصة حادة ، كنصل السكين الصلب ، كلما امتلأت قلوب القرويين مرارة من الجوع ، وعندما همس عم وانج لنج فى آذان أهل القرية قائلا : هنالك شخص يفيض بيته بالطعام . . قبض الرجال على هراواتهم وهرعوا ذات ليلة إلى بيت وانج ، ودقوا عليه الباب فلما فتح الباب ، ليلبي أصوات جيرانه الصائحين أبعدوه عن طريقهم ، ودفعوه من سبيلهم ؛ وفتشوا كل ركن وكل مكان ظاهر وخفى بأيديهم علهم يجدون الطعام الذى أخفاه ؛ وعندما عثروا على كمية ضئيلة من الفول المجفف ، ووعاء من القمح المجفف ، صرخوا من خيبة أملهم ويأسهم ، ثم قبضوا على منضدته ، ومقاعده ، والفراش الذى يرقد عليه أبوه الشيخ وهو يرتعد ويبكى من الخوف . . ثم تقدمت نحوهم أولان ، وسرى صوتها الواضح النبرات ، الهادىء ، وعلا فوق أصوات الرجال .

ــ « وبعد فلم يصل الأمر إلى هذا الحد . . فقد أخذتم طعامنا . وإنكم فى بيوتكم ، لم تبيعوا موائدكم ومقاعدكم بعد ، فاتركوا هذه الأشياء لنا ، ولسنا نملك فولة أو حبة من الحب أكثر منكم ، كلا . . بل إنكم لتملكون أكثر مما لدينا الآن لأنكم قد أخذتم كل ما عندنا ، وإن الله ليعاقبكم إذا أخذتم منا أكثر ـ والآن هيا بنا نخرج سوياً ، نبحث عن حشائش لنأكلها ، وقشر شجر لكم ولأطفالكم ولنا ولأطفالنا . . »

وشعر الرجال بالخزى والعار من وقع كلماتها ، وتسللوا واحداً إثر واحد ، فلم يكونوا أشراراً بسليقتهم ، إنما الجوع قد استبد بهم فأطار صوابهم . . . ! !

وكان وانج لنج واقفاً فى الفناء حيث كان عاماً بعد عام ، يخزن فيه محصوله بعد درسه ، والذى أصبح الآن خاويا على عروشه ، عدة شهور لا قيمة له ولا نفع يرجى منه ، وتملكته لحظة من الخوف الشديد وانساب فى دمه مزيج من الرعشة كالخمر الملطفة وقال لنفسه ، ومن أطواء قلبه :

« إنهم لا يستطيعون أن يأخذوا منى الأرض ولو كانت الفضة معى لانتزعوها منى ، فما زالت الأرض فى حوزتى ، فهى ملكى ، وأنا صاحبها .

الفصـــل التاسع

كان وانج لنج جالساً قبالة الباب يحدث نفسه قائلا : لا بد أن أفعل شيئاً ... فلا نستطيع أن نبقى هنا فى هذا البيت الخالى ، لنهلك .. وبدأ فى جسده النحيل عزم وتصميم على الحيـاة ، وكانت تلم به ساعات من الجوع تدفعه إلى الخارج ، ويهز قبضة يده إلى السماء الكئيبة التى تضىء من قبتها الزرقاء الدائمة الزرقة ، الصافية الباردة ، لاتحجب صفحتها سحابة..

وذات يوم كان يسير فى تثاقل يجر ساقاً إثر ساق ، متجها نحو معبد الأرض ، فبصق متعمداً فوق وجه الصنم الصغير الذى كان يجلس هناك بجوار قرينته ، ولم تكن هناك عيدان من البخور يتصاعد منها الطيب وكانت ثيابهما من الورق ممزقة فبدت أجسامهما المصنوعة من الطين ، من ثقوب الورق ، إلا أن الصنمين كانا جالسين هنالك فى المعبـــد ، لايتأثران بأى شىء ، وعاد وانج إلى بيته وهو يتأوه ثم خر راقداً على فراشه

وكانوا نادراً ما يقومون من فراشهم فلن تكن هناك حاجة تدفعهم إلى النهوض ، وكان نومهم المتقطع ، يصرفهم فترة عن الطعام على الأقل ، وكانوا قد جففوا «قوالح» القمح وأكلوها ، وفيما عداهم فى أرجاء القرية كان الناس يأكلون مايستطيعون أن يجدوه من أعشاب فوق سفوح التلال التى أجدبتها الشتاء ، وخلا المكان من الحيوانات ، ولم يعد المرء يرى طفلا يلعب فى شوارع القرية ، وفى معظم الأحايين كان ولدا وانج لنج يزحفان إلى الباب ويجلسان فى الشمس ، ولم تكن الطفلة تستطيع أن تجلس بمفردها قط ، على الرغم من فوات الأوان لذلك ! بل كانت تظل ساعة بعد أخرى راقدة ملتفة فى لحاف قديم ، وكان صياحها بادىء

الأمر ، عند ولادتها يملأ البيت ، ولكنها أصبحت هادئة تمتص فى ضعف ووهن كل ما يمكنها أن تضعه فى فمها ....!

وكان استمرار حياة هذه الصغيرة على ذلك المنوال المؤلم ، قد أكسبها حب أبيها ، وكلما نظر اليها همس قائلا : يالها من بلهاء مسكينة ، يالها من بلهاء مسكينة صغيرة ...

وعندما حاولت ذات مرة أن تبتسم ابتسامة باهتة ، انفجر أبوها ، باكيا ، وبعد ذلك كان يحاول أن يرفعها أحياناً ويضعها تحت دفء معطفه ويجلس معها أمام الباب متطلعاً إلى الحقول الجافة المنبسطة ...

وأما أبوه الشيخ فكان يأكل كل مااستطاعوا أن يقدموه له ، حتى إذا لم يأكل الأطفال ، وكان هذا الشيخ ينام نهاراً وليلا ، ثم يستيقظ ليلتهم طعامه ؛ وكان أكثر أهل البيت إنشراحاً ومرحاً ، وقال ذات يوم بصوته الضعيف المرتعش : لقد مرت بى أيام أسوأ من هذه الأيام !

وفى ذات يوم جاءه جاره تشنج ، ليس عليه من الملابس ما يقيه ويبدو أقل من شبح إنسان ، جاء إلى بابه وهمس فى أذنه قائلا : إن الناس يأكلون الكلاب فى المدينة ؛ وفى كل مكان تؤكل الخيول والدجاج من كل نوع ... وهنا قد أكلنا الحيوانات التى حرثت أرضنا ، وأكلنا العشب ، ولحاء الشجر ، فماذا تبقى لنا لنأكله.؟

وهز وانج لنج رأسه فى يأس ، وسيطر عليه الخوف فجأة وقال بصوت عال :

— « سنترك هذا المكان — سنرحل نحو الجنوب » .

فنظر إليه جاره فى جزع : آه . . إنك مازلت شباباً . . قال ذلك

فى حزن ثم استطرد : أما أنا فأكبر سنا ، وزوجتى طاعنة فى السن وليس لدينا من حطام الدنيا سوى إبنة ، فمن اليسير الآن أن نموت مرتاحين . . !!

فقال له وانج لنج : إنك أسعد حظاً منى ، فأنا أعول والدى الشيخ وأطفالى الثلاث الصغار ! .

وحينئذ بدا له أن كل ماقاله صحيحا ، فنادى على زوجته أولان ، التى كانت تظل راقدة فى فراشها يوما بعد يوم . دون أن تنبس ببنت شفة ، حيث لم يبق عندها طعام ، تطهيه فوق الموقد ، أو وقود تشعل بها الفرن . .

هيا يازوجتى — سنرحل جنوباً . . ونهضت أولان من فراشها فى وهن ، واستندت على باب الغرفة وقالت إنه لمن الخير أن نفعل هذا . . فالإنسان على الأقل يستطيع أن يموت ماشياً .

وفى صباح اليوم التالى عند ما أشرقت الشمس كعادتها فى سمائها الزرقاء ، خيل إليه انه لمن ضروب الحلم أن يفكر فى الرحيل عن بيته ، ولم يكن معه مال ، ولكن ما دام لايوجد طعام ، فالمال ليس منه فائدة ترجى ، وحينئذ ظل جالساً على عتبة البيت ، فرأى أشخاصاً تخترق الحقول نحوه ، فلما اقتربوا منه ، تبين فيهم عمه وثلاث رجال أجانب لا يعرفهم .

ثم قال له عمه بصوت مرتفع : انى لم أرك منذ أيام عديدة . . لكم تبدو عيشتك هنية ، وكيف حال والدك ، أخى ، أهو بخير ؟

فنظر وانج لنج الى عمه ، ورآه نحيلا هزيلا ، حقا إنه لم يشرف على الموت جوعاً . . !

وشعر وانج لنج أن بقية قوته ، قد استحالت الى غضب شديد ، وسخط مرير على عمه فتمتم قائلا : « كم أكلت وشبعت .. كم أكلت وشبعت .. !!

فرفع عمه يده إلى السماء ضارعاً متوسلا ، وصرخ قائلا : أكلت .. آه ... لو استطعت أن ترى بيتى فلن تجد فيه شيئا ، فالعصفور لن يستطيع أن يجد الفتات ؛ وهزلت زوجتى ، وبدت عظامها ، وأخذت تصطفق فى جلدها ، لم يتبق لى من أطفالى على قيد الحياة سوى أربعة ، أما عن نفسى وحالى فها أنت ترانى . . » ثم أمسك بطرف كمه ، ومسح طرف عينيه فى عناية . .

فكرر وانج لنج فى بلادة : إنك أكلت كثيراً ..

فرد عليه عمه فجأة قائلا : إنى لم أكف عن التفكير فيك وفى أبيك، أخى ، وإنى لأبرهن لك الآن على ذلك ، لقد استدنت من أهل المدينة الطيبين كمية ضئيلة من الطعام ، واعداً إياهم بأنى سوف أساعدهم فى شراء بعض الأراضى فى قريتنا ، ولقد فكرت أولا فى أرضك الطيبة ؛ ولقد حضروا ليشتروا أرضك ، وليعطوك مالا ، وطعاما وحياة .

وظل وانج لنج صامتا لايحرك ساكنا ، فلم ينهض ، أو يتعرف من أى جهة قد حضر هؤلاء الرجال ، ولكنه رأى حقا أنهم رجال قد أتوا من المدينة ، يرتدون الثياب الطويلة الحريرية المتسخة ، وقد بدا عليهم الشبع ، وكان الدم ما يزال يجرى حاراً فى عروقهم ، وشعر بكراهية مفاجئة نحوهم ، وتطلع فى وجوههم بمقت وعبوس .

وقال : لن أبيع أرضى . . فخطا عمه إلى الأمام ، وفى هذه اللحظة حبا أصغر ولدى وانج على يديه وركبتيه ، ومنذ أن هزل جسمه ، فقد عاد إلى الزحف كما اعتاد أن يفعل زمن الطفولة ولم يقو على المشى . . وصاح العم عند ما رأى الطفل أمامه : أهذا ولدك ؟ أهذا هو الصبي البدين الذى رأيته فى الصيف الماضى . ؟

ونظر الجميع إلى الطفل ، وفجأة انفجر وانج فى بكاء صامت ، لأول مرة فى حياته ، وهو الذى لم يذرف دمعة واحدة طوال حياته . .

ثم قال مخاطبا الرجال : وماهو الثمن الذى ستدفعونه ؟ فأجابه واحد من أهل المدينة : أيها الرجل المسكين ، فى سبيل هذا الطفل الذى يموت جوعاً ، سنعطيك ثمنا لا يمكن أن يحصل عليه إنسان فى هذه الأيام الحالكة سنعطيك . . ثم توقف عن الحديث ثم استأنفه قائلا : سنعطيك خيطاً بمائة درهم ثمنا لكل فدان .

فرد عليه وانج بضحكة مريرة ، وصرخ قائلا : ولماذا كل هذا ! هذا معناه أنكم تأخذون أرضى كهدية . . أنى لأدفع عشرين مبلغاً كهذا عند ما أشترى الأرض.

وأجابه رجل آخر من أهل المدينة : آه . . ولكنك لا يمكن أن تشترى بمثل هذا الثمن من رجال يموتون جوعاً !.

واخذ وانج لنج ينظر فى وجوه الرجال الثلاث لقد كانوا واثقين منه هؤلاء الرجال الخبثاء ! من الذى يتقاعس عن منح إنسان مثل وانج فى سبيل إنقاذ أطفاله الجياع ، وأبيه الشيخ . . فاستحال ضعفه إلى غضب شديد ، لم يعرف له مثيلا ، فى حياته كلها من قبل ، فقفز نحوهم ، وصرخ

فى وجوههم : لن أبيع لكم الأرض مطلقا ، وسنموت فوق أرضنا التى وهبتنا الحياة !

وكان وانج يتكلم بعنف ، وتلاشى غضبه ، وذهب هياجه بدداً ، وظل واقفاً يرتجف باكيا ، بينما وقف أمامه الرجال ، وارتسمت على وجوههم ابتسامة خفيفة وأن الكلام فى مثل هذه الأحوال لضرب من الجنون ، وانتظروا حتى تلاشى غضب وانج وفجأة ظهرت أولان بالباب ، وقالت لهم : أما الأرض فلن نبيعها بكل تأكيد ، وإلا متنا جوعاً ، عند عودتنا من الجنوب ، ولن نجد ما يطعمنا ، ولكن يمكننا أن نبيع المائدة والسريرين وفراشهما ، والمقاعد الأربعة ، والقدر الضخم الذى بالفرن أما المنجل ، والفأس ، والمحراث ، فلن نبيعها ... وان نبيع الأرض ...

وسألها عم وانج فى تشكك : أحقا ستهاجرون إلى الجنوب ؟

وتمتم الرجال فيما بينهم ، ثم استدار أحدهم نحوها وقال : إنها لأشياء تافهة ، ولا تصلح إلا للوقود ، فخذى قطعتين من الفضة ثمنا لها جميعاً ، فإما أن تأخذيها أو تتركيها وأشاح بوجهه فى احتقار وهو يتكلم ، فأجابته أولان فى هدوء : إن هذا الثمن لأقل من ثمن سرير واحد ، ولكن إذا كانت النقود معك فاعطيها لى سريعاً وخذ هذه الأدوات ...

فأسقط الرجل النقود الفضية فى يدها الممتدة ، ودخل الرجال البيت وحملوا الأدوات فيما بينهم ... ولكنهم عندما دخلوا غرفة الشيخ وقف عم وانج فى الخارج ، فلم يرغب فى أن يراه أخوه الأكبر ...

وعندما تمت الصفقة ، وأصبح البيت خاليا من كل شىء إلا من

المنجليين ، والفاس ، والمحراث ، فى ركن الغرفة الوســـطى ، قالت أولان لزوجها :

ــ دعنا نذهب إلى الجنوب ، ما دامت معنا هـذه النقود الفضية ؛ وقبل أن نضطر إلى بيـع عروش السقف ، فلا نجد حجراً نقبـع فيه ونتزوى فى ركنه عند عودتنا ... فأجاب وانج لنج فى تثاقل : إلى الرحيل .. ثم أخذ يتطلع إلى الحقول خلال الأشباح الضئيلة للرجال الذين تركوه وتمتم مرات ومرات قائلا ... فعلى الأقل : ما زلت أملك الأرض ... ما زلت أملك الأرض .. !!

الفصل العاشر

لم يكن لدى وانج وزوجته شيء يفعلانه سوى أن يحكما غلق رتاج الباب، وارتدوا جميع ملابسهم، ووضعت أولان فى يد كل طفل وعاءاً من الأرز، وزوجا من العيدان التى يأكلون بها، وقبض الأولاد الصغار عليها بإحكام معللين أنفسهم بقرب الطعام، وساروا على هـذا الحال مخترقين الحقول؛ سار موكبهم المحزن متحركا فى تؤدة لاتبشر بوصولهم إلى سور المدينة إطلاقاً ...

ومروا فى صمت بجوار المعبد الصغير الذى يقبع بداخله الصنمان، اللذان لم يدركا شيئاً إطلاقاً عما يحدث، وكان وانج لنج يتصبب عرقا من ضعفه مع أن الجو كان بارداً، والرياح كانت قارصة، وصرخ الطفلان مع هبوب الرياح الشديدة، ولكن أباهم وانج أخذ يشجعهم قائلا: أنتما رجلان كبيران، ومسافران إلى الجنوب حيث الدفء والطعام وفير كل يوم، وحيث نجد جميعاً الأرز الأبيض وسنأكل ونشبع ..

وبمرور الوقت وصلوا إلى بوابة السور، وهم يستريحون كل مرحلة قصيرة، وكانت أقدامهم تغوص فى طين سميك، وكادت تجمد أطرافهم من شدة البرد، وأعيا السير الطفلين فلم يستطيعا أن يتقدما وكانت أولان تحمل طفلتها، وتنوء بحملها! وثقل جسمها نفسه وكان وانج لنج يترنح فى مشيته وهو يحمل أباه ثم كان يضعه على الأرض، ويرجع حيث يأخذ طفليه، ويحملهما بالتناوب، وهكذا وعند ما كان ينال التعب منه كل منال كان العرق ينهمر من كل جسمه غزيراً كالمطر، ثم يستريح طويلا بإسناد ظهره إلى الحائط الرطب ..

وساروا حتى وصلوا بجوار البيت الكبير . بيت هوانج ، ولكن الباب كان مغلقاً بإحكام ، حيث رقدت أمامه أشباح قليلة من رجال ونساء ، يحدقون بشدة ، ويكادون يموتون جوعاً ، فلما مر من أمامهم وانج لنج ، صاح واحد منهم يحدث زميلا له : إن هؤلاء الأغنياء القاطنين هذا البيت ، ما يزال لديهم أرز يطعمونه ، ومن الأرز الفائض عن حاجاتهم يصنعون الخمر ، بينما نحن نموت جوعاً .

ولكن وانج لنج لم يحر جواباً ، وساروا فى طريقهم نحو الجنوب والصمت يخيم عليهم . .

وعندما جاسوا خلال المدينة ، ودلفوا من الاتجاه الجنوبى ، أظلهم المساء ، ووجدوا أناساً كثيرين راحلين صوب الجنوب ، فسأل وانج لنج واحداً منه : إلى أين تذهب كل هذه الجموع ؟

فأجابه الرجل : إننا قوم موشكون على الموت جوعاً ، وذاهبون إلى حيث نركب العربة النارية (القطار) لنصل إلى الجنوب ، وإن العربة تبدأ من هذا البيت (يقصد المحطة) وتوجد عربات لأمثالنا ، أجرتها أقل من قطعة فضية وقال ونج لنج لنفسه مندهشا : عربات نارية ! ! انه كان قد سمع فى الأيام السالفة أناساً يتحدثون عن هذه العربات ، المقيدة بعضها فى بعض بواسطة سلاسل ، ولا يجرها رجل أو حيوان ، وإنما تجرها آلة تنفث من باطنها النار والماء . . فالتفت فى شدة نحو زوجته وقال : هلا سافرنا نحن بهذه العربات النارية أيضاً ؟ وتبادل كلاهما النظر إلى بعضهما فى قلق وخوف ، وكانت أولان ما تزال تحمل الطفلة ، وكانت رأس الطفلة مدلاة فوق ذراع أمها ، وقد بدا عليها انها ميتة من عينيها المغلقتين فارتاع لذلك وانج ونسى كل شىء عداها ، وصرخ

قائلا لزوجته : هل ماتت الجارية الصغيرة ؟ فهزت أولان رأسها نفياً وقالت : انها لم تمت بعد . . ولكنها ستموت هذه الليلة بل كلنا جميعاً سنموت ما لم . . .

وكأنما لم تسطع أن تنطق بكلمة أخرى فنظرت إليه ، بوجهها المربع المتعب الهزيل ، ثم قال وانج لنج وصوته ينطق بالشر :

ـ هيا يا أولادى ساعدوا جدكم على النهوض سوف نسافر بالعربة النارية ونجلس فيها وهى تسير نحو الجنوب ...

ولم يكن ليدرى أحد هل استطاعوا أن يتحركوا من أماكنهم أم لا ما لم يسمعوا ضوضاء عالية سرت مرعدة وسط الظلام ، وانفجرت عينان تقذفان بالنار ، فتدافع الناس إلى الأمام وهرعوا بطريقة ما فى خلال الظلام ، وهم يصرخون إلى باب صغير مفتوح ثم دلفوا إلى حجرة كالصندوق ، وفى وسط الزئير والدوى المتصلين انطلق الشىء الذى ركبوه ، وهو يحملهم فى باطنه يشق غياهب الظلام ..

الفصل الحادى عشر

دفع وانج لنج بقطعتين من الفضة أجراً للسفر مائة ميل : وقد أعطاه الموظف الذى أخذ منه قطعتى الفضة حفنة من الدراهم النحاسية ، واشترى وانج عندما وقف القطار ، أربعة أرغفة من الخبز ، ووعاءاً من عصيدة الأرز لطفلته ، الصغيرة ، وكان الطعام وفيراً وفرة لم يعهد مثلها فى خلال الأيام السابقة العديدة ، ومع انهم كادوا يموتون جوعاً ، فإن شهية الأكل قد فارقتهم ، والطعام فى فمهم ، ولم يقبل الأطفال على الأكل ويزدرونه إلا بعد أن حثهم أبوهم على ذلك ...

ولم تكن الدراهم النحاسية هى كل ماصرفه وانج لنج فى الطعام بل انه احتفظ بكل ماتبقى معه من نقود ليشترى حصيراً ليبنى بها سقيفة ، تقيهم ويأوون إليها إذا ماحطوا رحالهم جنوباً ، وكان بالعربة النارية رجال ونساء يذهبون كل عام إلى المدن الغنية فى الجنوب ليعملوا ، أو يستجدوا الناس ، وهكذا يوفرون ثمن غذائهم ..

ولما اعتاد وانج لنج على رؤية الأرض فى دهشة وهى تندفع بجواره خلال فتحات العربة ، أخذ يصغى إلى حديث الرجال وهم يتخاطبون سويا ، فسمع أحدهم يقول لرفيقه :

ــ يجب أولا أن تشترى ستة من الحصر ، وهذان درهمان ثمناً لحصيرة واحدة ، وإذا كنت عاقلا فلا تسلك كفلاح ساذج فتدفع ثلاثة دراهم ، وهو مبلغ أكبر كثيراً من أن يدفع ثمنا لحصيرة واحده ، كما أعلم تمام العلم ...

فأرهف وانج أذنه فى شغف إلى هذا الحديث ...

ثم سأل المتحدث قائلا : وبعد ؟ وكان وانج جالساً فى قاعة العربة ، التى لم تكن إلا غرفة خالية من الخشب ، أرضها عارية وليس بها مقاعد أو أى شيء يمكن الجلوس عليه ، وكانت الرياح تهب والتراب يتطاير عليه وعلى أسرته من خلال شقوق أرضيتها ...

فرد عليه الرجل قائلا : وبعد فإنك تربط الحصير بعضها فى بعض لتصنع منها كوخاً ، ثم تخرج للاستجداء فأولا يجب أن تلطخ نفسك بالطين والقاذورات لتجعل من نفسك شـــكلا يستحق العطف والرثاء بقدر ما تستطيع ...

لم يكن وانج لنج . قد استجدى أحداً فى حياته مطلقاً ، ولذلك كانت فكرة الاستجداء بغيضة إلى نفسه ، الاستجداء من أهل الجنـــوب الذين لا يعرفهم ...

فكرر متسائلا : وهل يجب أن يستجدى الانسان ؟

فقال له الرجل : آه ... يجب حقاً ... يجب حتى تجد ما تقتات به فإن أهل الجنوب قوم موسرون ، ولديهم أرز وفير، ويمكنك أن تذهب كل صباح إلى مطبخ عام أى مطعم شعبي حيث تدفع درهما واحداً وتأكل وتشبع من عصيدة الأرز الأبيض ، ثم تعود إلى الاستجداء وأنت راضى النفس ، ثم تشترى بعد ذلك فولا ، وكرمباً وثوماً ...

ومرة أخرى ســـاءت فكرة الاستجداء لدى وانج لنج وأحزنته وقال فجأة متسائلا : ألا يوجد عمل يشتغل فيه الانسان بيديه أفضـل من الاستجداء ؟ ...

فبصق الرجل على أرض الغرفة ثم قال : نعم يوجد عمل ـ يمكنك أن

تجر عربة صفراء من يديها ليركبها رجل غنى إذا شئت ، وتجعل العرق يتصبب منك ، أو يتجمد فوقك كأنه ثوب من الجليد ، كلما توقفت فى انتظار راكب غنى آخر ، وانى لأفضل الاستجداء . . . ثم أخذ الرجل يسب ويلعن مما جعل وانج يكف عن السؤال مرة أخرى ...

وعندما أوغلت بهم العربة النارية فى الطريق وتوقفت طرأت فى بال وانج لنج فكرة فأعد نفسه لتنفيذها فسرعان ما وضع أباه وأطفاله بجوار حائط طويل رمادى لبيت من البيوت وانطلق يعدو ليشترى حصيراً..

ووجد حانوتا يبيع الحصر فى طرف المدينة ، ووضع أمام البائع الدراهم شأن رجل يعرف ثمنها تمام المعرفة ، وحمل لفة الحصر وانطلق عائدا ، فلما وصل إلى المكان الذى ترك فيه الآخرين، صرخ أبناؤه صرخة الفرح والارتياح لرؤية أبيهم ، ووجدوا أنهم قد امتلأوا رعبا بمفردهم فى هذا المكان الغريب ، وأخذ أبوه يراقب كل شىء فى سرور ودهشة ، وتمتم لابنه وانج قائلا : إنك ترى كم هم سمان هؤلاء أهل الجنوب ، وكم تبدو أجسامهم شاحبة دسمة ، إنهم ليأكلون لحم الخنزير كل يوم ، هذا مما لا شك فيه ...

ولم يكن يتطلع واحد من المارة الى وانج لنج ، وأسرته ، بينما أخذ يتلفت حوله باحثا عن مكان مناسب يشيد فيـــه كوخه ، وكانت توجد بعض العشش المقامة الملتصقة بالحائط خلفه ، ومن حين إلى آخر كان وانج يلقى نظرة على هذه العشش ليقيم عشته على غرارها ، وكانت عشته تبدو أمامه صلبة كئيبة الشكل ، مصنوعة من البوص المشقوق وفجأة لاحظت أولان فشله فى إقامة العشة ، ولذلك قالت له : يمكننى أن أقيمها ،

فإنى لأتذكر كيف تقام منذ أيام الطفولة ...

ثم وضعت طفلتها على الأرض ، وجذبت الحصر ، وأخذت تشدها بعضها الى بعض ، ثم أقامت دعائمها وشيدت لها سقفا إلى درجة عالية تسمح لشخص بالجلوس تحته ، فلا يصـــدم رأسه ، ثم ثبتت قوائم من الطوب فوق أطراف الحصر الممتدة على الأرض ، وأمرت أولادها بانتزاع أحجار أخرى لهذا الغرض ، وما انتهت من عملها حتى دخلوها ، وفرشت أرضها بحصيرة تمكنت من إبقاءها لهذا الغرض،وهكذا جلسوا فى عشتهم التى آوتهم ...

واستقروا فى جلستهم هذه ، ينظر بعضهم الى بعض ، فبدا لهم أنه من المستحيل ، أنهم قد تركوا بيتهم ، وأرضهم منذ يومين ، وأنهم قد أصبحوا على بعد مائة ميل منها ...

وامتلأت قلوبهم بشعور الرخاء والرغد فى هذه الأرض الغنية ، التى لا يوجد على ظهرها فرد جائع ؛ وعندما قال وانج لنج : « هيا بنا نبحث عن المطاعم الشعبية ، هبوا جميعا فى بشر وانشراح،وسرعان ما اكتشفوا أن مطاعم الفقراء كانت تقع فى نهاية الشارع الكائن فيه كوخهم ، وكان عدد كبير من الناس يسيرون حاملين أوعيتهم ، ودلائهم ، فارغة كلهـــا متجهين نحو هذه المطاعم ، وذهب وانج مع هؤلاء حتى وصلوا أخيرا إلى بنائين عظيمين من الحصر حيث أخذ كل واحد منهم يتجمهر ويزاحم رفيقه فى الفضاء المحيط بهذين البنائين ، وكان فى مؤخرة كل بناء أفران من الطين عليها قدور كبيرة من الحديد كأنها البرك فى اتساعها،وعندما رفعت أغطيتها الخشبية ، كشفت عن أرز أبيض يفور ويغلى ، وما كاد الناس

يشمون رائحتـــه ، حتى اندفعوا إلى الأمام فى كتل حاشدة وأخذوا يصرخون ، بينما كانت الأمهات تتصايح فى غضب وخوف خشية أن يطأ الناس على أطفالهن ، وزأر الرجال وهم يكشفون القدور مرددين : لدينا ما يكفى الجميع ، فلينتظر كل فى دوره ..٠!

ولـكن لم يستطع أحد أن يكبح جماح هذه الـكتل الجائعة من الرجال والنساء وتشاحنوا وتصارعوا كأنهم الوحوش الضارية ليحصل كل على نصيبه من الطعام ؛ ولم يستطع وانج لنج أن يفعل شيئا سوى أن يتعلق بأبيه وولديه ، ثم اكتسحه الزحام حتى أصبح واقفا أمام القدر الضخم ، فدبده بوعائه ، فلما امتلأ الأرز دفع درهمه وكل ما استطاع أن يفعله هو أن يقاوم قليلا حتى لا تجتاحه الجماهير ، قبل أن يحصـل على ما يريد . ولما عاد وانج وأسرته وإلى الشارع مرة أخرى وقفوا يأكلون أرزهم ، فأكل وانج معهم حتى شبع وتبقى قليل من الطعام فى وعاءه ثم قال : سآخذ معى هذا القدر الضئيل من الطعام إلى البيت لنأكله فى المساء .... ولـكن ثمة رجل كان بمثابة حارس فى هذا المـكان أجابه بخشونة : كلا . لا يمكنك أن تأخذ شيئا معك أكثر مما أكلت — فدهش وانج لنج من حديثه وقال حسنا . ما دمت قد دفعت درهمى فما شأنك أنت إذا ما حملت ما تبقى من طعامى فى وعائى أو فى بطنى ..

فأجابه الرجل قائلا : يجب أن تراعى اتباع هذه القاعدة ، لأنه يوجد أناس ممن يأتون إلى هنا ، ويشترون هذا الأرز الذى يعطى للفقراء ثم يحملونه إلى بيوتهم ليطعموا به الخنازير .

فأصغى وانج لنج لهذه الـكلمات فى دهشة بالغة وصاح قائلا : أيوجد

رجال قساة القلوب غلاظها كهؤلاء الناس ؟ ! ثم أردف قائلا : ولكن لماذا يعطى مثل هذا الطعام للفقراء ومن هو هذا الشخص الذى يمنحه لهم بهذا الثمن البخس ؟

فأجابه الرجل قائلا : أنهم سراة القوم فى المدينة . هم الذين يجودون بذلك ، فقال وانج لنج : أنه لعمل مفعم بالخير . . .

وتعلق طفلاه به ، فقادهما وانج لنج إلى كوخهما حيث راحوا فى سبات عميق حتى صباح اليوم التالى إذ كانت هذه هى المرة الأولى منذ الصيف يتخمون فيها بالطعام وفى صباح اليـــوم التالى وجدوا أنه من الضرورى أن يحصلوا على مزيد من النقود . وخاصة بعد أن صرفوا آخر درهم من النحاس فى شراء الأرز للإفطار ، فنظر وانج لنج إلى زوجته فى شك عما يجب أن يفعله للحصول على النقود ، وأجابته أولان كما لو كانت خبرت هذه الحياة :

« يمكننا أن نستجدى المارة ، . أنا والغلمان وأبوك الشيخ أيضاً ، ثم نادت على الغلامين وقالت لهما : فليمسك كل منكما وعاءه وليمدها فى يده هكذا . . . ويصرخ هكذا . . ثم أمسكت وعاءها الفارغ فى يدها ومدته إلى الأمام وأخذت تنادى فى حسرة وألم قائلة : الرحمـــة ياسيدى الطيب ، إن عملك الطيب فى سبيل حياتك ليصعد إلى السماء . . . إن ماتدفعه فوراً . . إن الدرهم النحاس الذى تلقيه ليطعم طفلا يموت جوعاً !

وحملق فيها زوجها وانج والغلامان مدهوشين ، وأخذ وانج يسائل نفسه : أين ياترى قد تعلمت الصياح فى مسكنة كهذا ؟ ألا ما أكثر ما كانت تعرفه هذه المرأة وما لا يعرفه هو عنها ! ! .

فردت عليه وكأنها قرأت مايدور في خاطره من تساؤل فقالت له :

هكذا كنت أستجدى لما كنت طفلة ، وهكذا كنت أطعم نفسى وفى سنة قحط ومجاعة كهذه باعنى أهلى كجارية .. وحينئذ أستيقظ الشيخ من نومه فأعطوه وعاءاً ، وخرج إلى الطريق ليستجدوا المارة ، وبدأت الأم تصيح وتهز صحفتها أمام كل عابر ، ودفع لها قليل من المارة قدراً ضئيلا من الدراهم . .

وبعد فترة من الوقت بدأ الغلامان يتخذان الاستجداء نوعا من اللعب ، وشعر الغلام الأكبر سنا بالخجل ، وبدأ يضحك وهو يستجدى المارة ، فلما لمحتهما أمهما جذبتهما إلى داخل الكوخ ، وكالت لهما اللطمات مرارا وتكرارا ، حتى أخذا ينتحبان ، ثم صرفتهما قائلة : والآن أنتما صالحان للاستجداء ، يكفيكما هذا العقاب ، فاذا عدتما إلى الضحك فستنالان أشد منه !...

أما وانج لنج فانه قد أخذ يتجول فى الطرقات حتى وجد مكانا تقف فيه النقالات لمن يستأجرها ، وهنالك ، استأجر واحدة فى مقابل نصف قطعة فضية يدفعها فى المساء ... ثم جذب تلك العربة الخشبية وهى تجرى خلفه على عجلتيها ، وشعر بالارتباك وهو واقف بين « عريشها » كأنه ثور يوضع تحت المحراث لأول مرة ، وكاد لايستطيع السير إلى الأمام ، فجرها إلى شارع جانبى ضيق ، ثم أخذ يسير فيه جيئة وذهابا فترة من الوقت ، وبينما هو موشك على أن يقنع نفسه ، أنه من الخير له أن يستجدى على أن يجر هذه العربة ، إذا بباب يفتح ؛ وبرجل طاعن فى السن يتقدم إلى الخارج وينادى عليه .

وبدأ وانج لنج يحدثه أولا بأنه حديث عهد بهذا العمل ، إلا أنه تبين أن هذا الشيخ أصم ، لأنه لم يسمع كلمة مما قاله وانج ولم يرد عليه ، سوى أنه قال له :

خذنى إلى معبد كونفيشيوس ... ثم جلس على العربة منتصب القامة هادئا ، فانطلق وانج لنج بالعربة إلى الأمام كما يفعل غيره ، مع أنه لم يكن لديه فكرة ما عن موقع المعبد ... ولكنه كان كلما تقدم يسأل الناس ، وبما أن الطريق الذى كان يسلكه غاص بالناس ، لم يجد وانج غضاضة فى ألا يندفع جاريا بل آثر أن يسير بقدر ما يستطيع من سرعة وقوة ... وترجل الشيخ من النقالة عند ما وصل وانج إلى أبواب المعبد ثم أخرج الشيخ قطعة فضية صغيرة وأعطاها لوانج قائلا : أنى لا أدفع مطلقاً أكثر من هذه فلا فائدة من شكواك ... وفى الواقع لم يكن وانج فى حاجة إلى الشكوى لأنه لم يكن قد رأى مثل هذه العملة من قبل ، ولم يعرف كم درهما يمكن صرفها ، ولذلك توجه إلى حانوت أرز مجاور ليصرفها، فأعطاه الصراف ستة وعشرين درهما مقابل قطعته ، وكان وانج لنج مأخوذاً من هذه الطريقة السهلة الهينة ، التى يحصل بها الانسان على المال فى الجنوب ، ولكن سائق عربة آخر كان يقف إلى جواره وقد أومأ برأسه نحوه وهو يعد النقود فقال لوانج لنج : ستة وعشرون درهما فقط ؟

ما المسافة التى جررت فيها النقالة لهذا الشيخ ... ؟ فلما أخبره وانج بحقيقة الأمر ، صرخ الرجل فى وجهه قائلا : ياله من رجل قاسى القلب ! إنه أعطاك نصف الأجر المناسب . ؟ وبكم ساومته قبل أن تبدأ فى جر

العربة ؟ . . . فقال وانج : إننى لم أساومه ، وكل ما فى الامر أنه عند ما قال لى تعالى ، ذهبت إليه ...

وصاح الرجل بأعلى صوته على الناس الواقفين حوله قائلا : هـذا ريفى ساذج دما ولحما ، أما أنت أيها الأحمق ، فلتعلم أن الاجانب البيض فقط هم الذين يساقون دون مساومة ، فإنهم حمقى لايعرفون الثمن الصحيح لأى شىء ، فلتدع الفضة تسيل من جيوبهم كالماء ... وأنصت له الجميع ثم اغرقوا فى الضحك .

ولم ينبس وانج لنبج ببنت شفة ، وشعر بالضعة والجهل بين أهل المدينة : ثم قال محدثا نفسه « ومهما يكن من أمر ، فإن هذه النقود ستكفى لإطعام أطفالى غداً ... ثم تذكر فجأة أنه يجب عليه أن يدفع ايجار النقالة فى المساء وأنه ليس معه نصف هذا المبلغ المطلوب ، وفى خلال الصباح جر راكبا آخر إلا أنه ساوم هذا الراكب واتفق معه على الأجر وبعد الظهر نقل راكبين آخرين ، وفى المساء أحصى ما معه من نقود ، ووجد أن معه درهما واحداً علاوة على أجرة العربة ، ثم عاد إلى كوخه ، ومرارة الأسى تلسع قلبه ...

وما أن دخل الكوخ حتى وجد ان أولان قد اكتسبت أربعين قطعة صغيرة ، أى مايوازى اقل من خمسة بنسات ، وان إبنه الاكبر قد جمع ثمانية قطع ، والاصغر ثلاثة عشرة قطعة ، وبإضافة هذه النقود بعضها إلى بعض وجد أنه لديهم ما يكفى لشراء الأرز فى الصباح ... وكان ابنه الأصغر مغرما بالكمية التى جمعها فنام تلك الليلة والنقود فى

يده ، ولم يستطيعوا انتزاعها منه إلا بعد أن دفعها بنفسه فى شراء الأرز الخاص به ...

أما الشيخ فلم يجمع شيئا على الاطلاق ، فلقد أمضى سحابة يومه جالسا إلى جانب الطريق ، ولكنه لم يستجد أحداً ، وكان ينام حيناً ، ويستيقظ حينا آخر ، ولما شعر بالسأم والضجر نام ثانية .. وحيث أنه رجل مسن ، ومن الجيل القديم ، فلم يخش لومة لائم ...

الفصل الثانى عشر

بعد أن هدأت سورة الجوع التى استبدت بوانج لنج ، بدأ يتعرف على هذه المدينة التى حط فيها رحاله ؛ فعلم أن الناس الذين يركبون فى عربته صباحاً ، إذا كانوا من النساء فانهن يقصدن إلى السوق ، أما إذا كانوا رجالا فانهم يذهبون إلى المدارس أو بيوت الأعمال والتجارة ..

وعند المساء كانوا يتوجهون فى عربته إلى المقاهى أو إلى أماكن التسلية ولكن وانج لنج لم يعرف نوعا واحدا من هذه الملاهى بنفسه لانه لم يغشاها ...

وهكذا أصبح وانج لنج وزوجته وأطفاله أشبه بالأجانب فى هذه المدينة الجنوبية ، وأنه لمن البين أن الناس الذين كانوا يجوبون الطرقات فى غدوهم ورواحهم يستهونه بشعرهم الأسود مثل وانج لنج وأسرته ، وأنه لمن الواضح والمؤكد أنه لو أصغى الفـــرد لهؤلاء الجنوبيين وهم يتحدثون بلغتهم فانه يستطيع أن يفهمها فى قليل من المشقة ...

ولكن القرية الصغيرة ، المتناثر فيها الحظائر والأكواخ ، كانت ملتصقة أشد التصاق بالسور ولم تصبح جزءاً من المدينة ، أو الريف اللتين تمتدان بعيدا ، وفى ذات يوم سمع وانج لنج شابا يهتف فى جمهور من الناس ويعلن أن الصين يجب أن تقوم بثورة وتعلن سخطها على الأجانب فانزعج وانج لنج وتسلل وحيدا ، وهو يشعر فى قرارة نفسه انه ذلك الأجنبى الذى خطب ضده ذلك الشاب .

حدث مرة أخرى أنه بينما كان ماراً فى شارع بسوق الحرير باحثاً عن مسافر أو راكب رأى عدداً هائلا من الأجانب فأدرك أنه ليس الاجنبى

الوحيد . . وفى نفس ذلك اليوم تصادف أنه كان يمر بباب حانوت لبيع الحرير ، فرأى بعض السيدات وهن يخرجن منه ، حاملات فى أيديهن ما اشترين من الحانوت فلمح من بينهن مخلوقاً خارجاً منه ؛ مخلوقاً لم ير له مثيلا من قبل ، ولم يستطع أن يميز أهو ذكر أم أنثى .ـ إلا أنه فارع الطول ، يرتدى معطفاً من قماش سميك يلف عنقه بجلد حيوان ، فأشار له هذا الإنسان أن يهدأ من عربته ، ثم أخبره بلهجة من العسير فهمها أن يوصله فى عربته إلى شارع الكبارى ؛ وبعد أن صـــعد الراكب فى العربة ، أخذ يجرها بسرعة فائقة وهو لايدرى حقيقة ما كان يفعله ثم رأى زميلا له يجر عربة أخرى ،كان قد تعرف عليه أثناء عمله ، فنادى عليه وسأله قائلا : أنظر إلى من فى عربتى . من تكون تلك التى أجرها !! فرد عليه زميله صائحاً : إنها سيدة أجنبية من أمريكا ـ أنها ستدفع لك مالا وفيراً يثريك ..

وأمعن وانج لنج فى الجرى بأقصى ما يستطيع ، خوفاً من المخلوق الغريب الجالس خلفه ؛ فلما وصل إلى شارع الكبارى كان منهوك القوى

وخطت السيدة من العربة وقالت له فى لهجتها الغامضة ، ما كان حريا بك أن تجهد نفسك فى الجرى حتى الموت ، ثم تركته بعد أن نفحته قطعتين فضيتين ، ألقتهما فى راحة يده ؛ وكان فى الواقع أجراً مضاعفاً عن الأجر المألوف وحينئذ أدرك وانج أنها كانت حقاً سيدة أجنبية بل أنها أجنبية أكثر منه فى هذه المدينة ، وفهم أن الناس من ذوى الشعر الأسود والعيون السوداء ينتمون إلى جنس واحد ، وأن أولئك من ذوى الشعر الفاتح والعيون الفاتحة ينتمون إلى نوع آخر . . .

وفى كل صباح بعد أن يبزغ الفجر بقليل كان وانج وأسرته يهرعون

إلى الطريق وفى أيديهم أوعيتهم والعصى التى يأكلون بها ، ثم ينخرطون فى الموكب الطويل من الناس الذين يسيرون ورياح الصباح الباردة تلفحهم ، قاصدين المطاعم الشعبية . . ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يكسبوا نقوداً وفيرة تعينهم على أن يطهوا بأنفسهم أرزهم فى كوخهم .

وفى ذات ليلة رجع وانج لنج إلى كوخه متأخراً ، فوجد فى الحساء السميك للكرنب قطعة طيبة مستديرة من لحم الخنزير ؛ ولقد كانت هى المرة الأولى التى يطعمون فيها لحماً منذ أن ذبحوا ثورهم العزيز ، فاتسعت عينا وانج دهشة وقال مخاطباً زوجته أولان : لا بد وأنكم قد استجديتم من أجنبى هذا اليوم ـ إلا أن زوجته لاذت بالصمت ، ولكن ابنه الأصغر الذى ملأه الكبرياء زهواً قال لأبيه :

ـ إننى قد أخذتها . . فقد أحضرتها . . ولذلك فهذه القطعة لى . . إنها من نصيبى ؛ فعندما التفت الجزار فى الناحية الأخرى ، أخذتها ولم يرنى وجريت حتى اختبأت فى زقاق . .

فصاح وانج لنج غاضباً : تالله لن آكل هذه القطعة ! إننا نرضى أن نكون شحاذين ، ونأبى أن نكون لصوصاً . . ثم انتزع القطعة من القدر ، وألقى بها على الأرض .

ثم تقدمت أولان ، والتقطت القطعة ، وغسلتها ، ووضعتها فى القدر الذى كان يغلى وقالت فى هدوء :

ـ ما اللحم إلا لحم . !!

لم يرد عليها زوجها ، بل خاطب نفسه قائلا :

ـ يجب أن نعود أدراجنا إلى الأرض .

الفصل الثالث عشر

عاش وانج لنج يوما بعد يوم تحت سماء هذه المدينة الغنية ، عاش تحت عبد الفقر الذى شيدت عليه ؛ وكان الطعام يفيض عن سعة فى حوانيت تلك المدينة ، والرجال الأثرياء ينعمون بارتداء ملابس من حرير وقطيفة ، إلا أن الحى الذى يعيش فيه وانج لنج كان لا يوجد به طعام يسد الرمق ، وليس به ملابس تقى الأبدان ، وتستر العظام .. !

وقبل الرجال والنساء الطاعنون فى السن والطاعنات هذه الحياة ، رضوا جميعا بحياتهم التى يحيونها على علاتها . ولكن الشباب كان يسرى بينهم حديث غاضب ... وعندما أرهف وانج لنج أذنيه ذات مساء لهذا الحديث، سمع لأول مرة ما كان يجرى ويحدث فى الجانب الآخر من الحائط الهائل الذى تلتصق به أكواخهم ...

وكان الوقت شتاء، عندما أشرفت أيامه على الانتهاء، وحينما يبدو أنه من الممكن أن تهل أيام الربيع ، وكانت الأرض فيما حول الأكواخ ملوثة بالطين، والثلج الذائب، والماء يجرى منحدرا نحو الأكواخ ، لذلك كانت كل أسرة قد تصيدت بعض الأحجار القليلة من هنا وهنالك لتنام فوقها .. وسرت فى تلك الليلة نسمة ندية رقيقة فى الهواء أقضت مضجع وانج لنج، وأرقت نومه فلم يغمض له جفن مباشرة بعد العشاء كما هى عادته المتبعة ، ولذلك خرج إلى الطريق حيث ظل واقفا فى تكاسل واسترخاء.. وقف حيث كان الشيخ يجلس كالمعتاد ، يراقب حفيدته الصغيرة . وشعر وانج لنج بريح المساء وهى تهب على وجهه فى لطف . فقامت فى نفسه عاطفة قوية من الشوق والحنين إلى حقوله..

فقال بصوت عال مخاطبا أباه : إنه فى يوم كهذا ينبغى علينا أن نقلب الأرض ، ونزرع القمح…

فقال والده : آه ! انى لأعرف مايدور بخلدك،وما يجرى فى خاطرك فيما مر بى من سنين اضطررت مرتين ثم مرتين أن أترك بلدى وأرضى كما تركناهما نحن الآن . . .

ـ ولكنك كنت تعود إليهما يا والدى.. فقال له الشيخ فى بساطة: نعم كانت هنالك الأرض يابنى .. ولذلك رجعت . . فقال وانج مخاطبا نفسه : حسنا .. سوف نعود إلى أرضنا أيضا فان لم يكن فى هذا العام ، فنى العام القادم ..

ثم عاد إلى الكوخ ، وقال لزوجته فى خشونة : إذا كان لدينا شىء يمكن أن أبيعه ، فسأفعل ، وأعود إلى الأرض ..

وكانت أولان منهمكة فى غسل أوانى الأرز ، ثم أخذت تكومها فى ركن من الكوخ ، ثم تطلعت بوجهها نحـــوه وهى جالسة فى مكانها ، وأجابته فى بطء :

ـ ليس لدينا مانبيعه سوى الطفلة ! .. فرد عليها بصوت مرتفع : لا.. لن أبيع طفلا ..

فردت عليه فى بطء شديد : لقد باعونى لبيت عظيم ليستطيع والداى أن يعودا إلى وطنهما ..

ـ ألهذا السبب تودين أن تبيعى الطفلة ؟

لو كان هذا يخصنى وحدى ، لكنت أفضل أن أقتلها على أن أبيعها ولكنى سأبيعها من أجلك أنت لتتحملك بثمنها على العودة إلى أرضك..

فقال لها وانج : لن أفعل هذا مطلقا ولو أمضيت عمرى وحياتى فى هذه الأرض القفر اليباب ..

ولـكنه عندما خرج مرة أخرى ، عاودته الفـكرة رغما عن إرادته ، فنظر إلى الطفلة وهى جالسة مع جدها، وبدت كأنما كبرت، فلما نظر إليها ابتسمت فقال محدثا نفسـه : كان من الممكن أبيعها لولا أنها قد ابتسمت لى هكذا ... !!

ثم عاوده التفـكير فى أرضه ، وقال فى عاطفة مشبوبة : ألن أراها مرة أخرى ؟ على الرغم من كل هذا الـكد والاستجداء ، فلا نملك مطلقا إلا ما يسد رمقنا ..

وسرى صوت من خلال الظلام وأجابه قائلا : انك لست الوحيد الذى تشكو ، يوجد مئات ومئات مثلك فى المدينة .

وسار نحوه الرجل،يدخن غليونا قصيرا من البوص، لقد كان عائل الأسرة التى تقطن فى الـكوخ الثالث من كوخ وانج ، وقلما كان يرى هذا الرجل أثناء النهار ، إذكان ينام نهاره كله ، ويشتغل ليله بطوله . . وكان أحيانا فى المساء ، وقبل أن يبدأ عمله الليلى ، كان هذا الرجل يخرج من كوخه ، ويقف مع الرجال الذين كانوا على وشـــك أن يدخلوا إلى أكواخهم ليناموا . .

وسأله وانج فى مرارة : ولـكن أسيستمر الحال على هذا المنوال إلى الأبد ؟

ونفث الرجل الدخان من غليونه، ثم بصق على الأرض،وبعد لحظة قال:
ــ لا . . لن يستمر إلى الأبد . . عندما يكون الأغنياء أغنيـاء إلى

درجة التخمة فهناك طرق ؛ وحينما يكون الفقراء فقراء مدقعين فهناك طرق أيضاً ؛ فني الشتاء الماضي قد بعنا طفلتين ، ولقد أبقيت جارية واحدة ـ بنتى البكر ، أما الجوارى الأخرى فن الأفضل أن نبيعها على أن نقتلها ، وهذه هي إحدى الطرق التي تتبع إذا كان الفقراء فقراء إلى الحضيض ، ولكن إذا كان الأغنياء أغنياء إلى درجة التخمة ، فهنالك طريقة ، وإذا لم أكن مخطئاً فى زعمي هذا فإن هذه الطريقة سوف تحين عاجلا . . ثم أشار بيده إلى الحائط خلفهما ثم تابع كلامه متسائلا : أرأيت ما وراء هذا الحائط ؟

فهز وانج رأسه نافياً ، وظل محملقا . . ثم استطرد الرجل قائلا : لقد أخذت إحدى بناتى إلى هؤلاء الذين يقيمون وراء هذا الحائط لأبيعها فرأيت حياتهم ، وإنك لن تصدقها إذا ما أخبرتك كم من الأموال تغدو وتروح فى ذلك البيت ، فحتى جواريهم من النساء يعلقن فى آذانهم أقراطاً من حجر اليشم ، الكريم واللؤلؤ ، بل إنهن يخيطن اللؤلؤ فى أحذيتهن ، وإذا وقعت قطعة من الطين فوقها ، فإنهن يرمين أحذيتهن بما فيها من لآلىء . .

وكان وانج ينصت ، وقد فغر فاه ، وقال لنفسه : فيما وراء هذا الحائط ، توجد مثل هذه الأشياء إذن ! !

فقال له الرجل : هناك طريقة عندما يكون الرجال مفرطين فى الغنى . . ثم صمت هنيهة وكأنه لم يقل شيئا وتابع حديثه قائلا : حسناً ! إلى العمل من جديد . ثم ذهب ، وابتلعه الظلام ! !

ولم يذق وانج لنج طعم النوم فقد كان مغرقاً فى التفكير فى الذهب

والفضة واللآلىء التى توجد فى الجانب الآخر من ذلك الحائط ، بينما رقد فى الجانب الآخر يغطيه نفس الثوب الذى يرتديه يوما بعد يوم ، لأنه لا يملك لحافاً يغطيه ويقيه البرد ، ويرقد على حصيرة مفروشة على الأرض . . ثم قال لنفسه :

— إنه لمن الأفضل أن يبيع الطفلة لأهل بيت ثرى حتى تستطيع أن تأكل أكلا شهياً ، وتتزين باللآلىء . . ثم قال لنفسه رغماً عن مشيئته : حسنا . . فإذا بعتها ، وأتت لنا بالمال الوفير الذى يعيننا على العودة إلى الأرض ، فمن أين نحصل على ما نشترى به ثوراً ، ومنضدة ، وسريراً ، ومقاعد من جديد؟ أسنبيع طفلة لكى نموت جوعاً هنالك بدلا من هنا؟ إننا لا نملك حتى الحبة الواحدة لنغرسها فى الأرض . .

ولذلك لم يدرك حلا ما للطريقة التى حدثها عنه الرجل عندما قال له : « هناك طريقة يجب أن تتخذ عندما يكون الرجال أغنياء وأغنى مما يجب » .

الفصل الرابع عشر

أقبل الربيع على قرية الأكواخ ، فأخذت جماعات من النساء في أسمال بالية تخرج مع أطفالها من أكواخها لتبحث عن الطعام في جنبات الريف ، ومنعطفات الطرق . وكانت أولان تخرج كل يوم مع ولديها وسط هذه الجماهير .

لقد كتب على الرجال أن يعملوا ، ولذلك عمل وانج لنج كما كان يفعل من قبل .

لقد كانوا يكدحون في الشتاء وهم صامتون يتحملون في صبر برودة الثلج والجليد تحت صنادلهم المصنوعة من القش ، ويعودون إلى أكواخهم في الظلام ، ويأكلون دون أن يتفوهوا بكلمة ؛ يأكلون الطعام الذي حصلوا عليه من يومهم المليء بالكد والاستجداء ، ثم يغطون في نومهم .

وعندما أشرقت طلعة الربيع عليهم بدأ الحديث يجري على شفاههم وكان هؤلاء الرجال يتحدثون دائماً عن المال ، عن درهم أنفقوه في شراء ما طوله قدم من القماش ، أو فيما يستطيعون أن يكسبوه في نهارهم وأخيراً كانوا يتحدثون دائماً فيما سوف يفعلونه إذا كان لديهم من المال مثلما يمتلكه الرجل الذي يسكن وراء الحائط .

وبينما كان وانج يصغي إلى كل هذه الأشياء كان يسمعهم يقولون فقط كم يتمنون أن يأكلوا وينادموا ، وكم من صنوف من الغذاء يتمنون أن يأكلوها ، صنوف لم يتذوقوا لها طعماً من قبل ، وقبل كل شيء كان يسمعهم يقولون كم يبغون ألا يشتغل الواحد منهم قط مثل هذا الرجل وراء الحائط الذي لم يشتغل إطلاقاً . .

وصرخ وانج لنج فجأة :ـــ

إذا ملكت يمينى الذهب والفضة ، فسأشترى بها أرضاً ، أرضاً طيبة ، أستنبتها فتخرج لى المحاصيل من باطنها . . !

حتى إذا ما سمعوا قوله هذا ، كانوا يقابلونه بالاحتقار ، ولكن هذا الازدراء لم يكن ليحول وانج عن عزمه وتصميمه ، بل كان يزداد قلقاً وشغفاً كل يوم للأرض التى كانت لديه من قبل . .

وهكذا كان دائب التفكير فى الأرض حتى أصبح يرى الأشياء تحدث فيما حوله فى المدينة كأنها تجرى فى إطار حلم جميل . فكان هناك على سبيل المثال الورق الذى يوزعه الرجال هنا وهنالك ، والذى كانوا يعطونه منه أحيانا .

لم يتعلم وانج لنج مطلقاً فى شبابه أو أى فترة من حياته معنى هذه الحروف التى تكتب على الورق ، ولذلك لم يستطع أن يفسر أى شىء لنفسه من هذه الأوراق المغطاة بعلامات سوداء ، وتباع بواسطة حفنة من الناس ، أو تعطى بلا مقابل ولقد أعطى مثل هذا الأوراق مرتين . .

وفى المرة الأولى حمل الورقة إلى بيته ليلا ، وأطلع أباه عليه ولكنه لم يستطع بدوره أن يقرأه ، وبعد مرور عدة أيام وقد نسى كل شىء من أمر هذا الورق وجدته أولان وأخذته ، ثم خاطته فى نعل حذاء مع الأوراق الأخرى التى إلتقطتها من هنا وهنالك لتجعل نعال الأحذية صلبة قوية . .

وفى المرة التالية ، قابل وانج لنج شابا من المدينة ، حسن الملبس ، فناوله ورقة عليها صورة رجل ميت ، رجل يشبه وانج لنج نفسه ، أصفر ضئيل الجثة على جسده أسمال رثة ، زرقاء لونها . . وعلى صورة الرجل

الميت وقف رجل قابضاً على سكين طويلة ، فحملق فيها وانج ، واشتاقت نفسه أن يفهم معنى الحروف التى فى أسفل الصورة . . فالتفت إلى الرجل الذى كان يقف بجواره وقال له :

أتعرف حرفاً أو حرفين فيمكنك أن تحدثنى عن هذا الشىء المخيف ؟

فقال له أجل : كن رابط الجأش وأصغ إلى المدرس الشاب ، أنه سيشرح لنا كل شىء . . .

وهكذا أصغى وانج لنج ، وسمع ما لم يسمع له مثيلا من قبل .

وصاح المدرس الشاب يقول : أن الرجل الميت هو أنتم أنفسكم ، وأن الرجل الذى يقتلكم هو الرجل الغنى . .

وصعدت صيحة مدوية من حناجر المصغين له ، ولكن وانج لنج انصرف غير راض عما سمع . . ومهما يكن من أمر فإنه قد أخذ فى رضى تام الأوراق التى أعطاها له الشاب ، لأنه تذكر أن أولان لم يكن لديها مطلقا ورق كاف لتصنع منه نعل الأحذية ، ولذلك أعطاها لها عندما وصل إلى البيت .

وبالإضافة إلى الكدر الذى نشره الربيع كان هنالك كدر آخر أحدثه و نشره الشاب ومن على شاكلته بين سكان الأكواخ . . ولكن وانج لنج بمفرده ، على الرغم من أنه قد لاحظ هذا القلق ، وشعر بالغضب الذى استبد بالنفوس ، فإنه ما كان ليرغب فى شىء سوى أن يرى أرضه تحت قدميه مرة أخرى .

وفى هذه المدينة رأى وانج لنج شيئاً جديداً آخر لم يفهمه إذ رأى ذات يوم بينما كان يبحث عن زبون يحمله على عربته ، رجلا يقبض عليه

جماعة صغيرة من الجنود المدججين بالسلاح ، وبينما كان وانج لنج يراقبهم في دهشة بالغة ، قبضوا على رجل آخر ، ثم ثالث وبينما هو مغرق في حملقته ، قبضوا على رجل آخر ، وكان هذا الأخير ، هو جاره الذي يسكن في الكوخ المجاور له ، والملاصق للحائط .

ثم أدرك وانج لنج أن هؤلاء الرجال كانوا يجهلون تماماً كما يجهل السبب الذي من أجله قد قبض عليهم ، فدفع وانج نقالته إلى زقاق جانبي ، وهرول إلى باب حانوت للماء الساخن ، واختبأ حتى انصرف الجنود ، ثم سأل بعد ذلك صاحب الحانوت عن معنى ما رآه ، فأجابه الرجل الكبير السن بلا اكتراث :

ـــ إنها ليست إلا ثمة حرب قد اشتعلت في مكان ما ، من يدري سبب كل هذا القتال ؟ ولكن هكذا ظلت الأحوال منذ أن كنت صبياً ، وهكذا ستظل بعد أن أموت ، وإني لأعرف ذلك كل المعرفة . إن هؤلاء الجنود ذاهبون إلى ميدان القتال في مكان ما ، وهم يرغمون العمال أمثالك على أن يحملوا لهم فراشهم وبنادقهم ، ولكن من أي بلدة أنت ؟ فهذا المنظر ليس بالجديد أو الغريب في هذه المدينة .

فسأله وانج لنج وهو يلهث : ثم ما ذا بعد ذلك ؟ أي أجر يعطون ؟ وإلى أين يعودون ؟

ولكن هذا الرجل كان شيخاً طاعناً في السن ولذلك أجابه في إهمال : ليس هناك من أجر وإنما يعطون فقط قطعتان صغيرتان من الخبز الجاف كل يوم ، وكمية من الماء من بركة ، ثم قد تعود إلى بيتك عندما تصل إلى المكان المقصود إذا استطاعت ساقاك أن تحملاك .

فقال له وانج مذعوراً : حسناً . . ولكن أسرهم . . . ـ فقال له



أخي وانج لنج رأسه وأخذ الجنود يذرعون الشارع

الرجل : حسناً وماذا يهمهم لأن يعرفوا أو يهتموا بذلك . . ومهما يكن من أمر فإن هذا الشيخ كان رجلا شفوقاً ورأى ما لم يستطع وانج أن يراه من مخبأه ; رأى الجنود مقبلين مرة أخرى ، يفتشون الشوارع ، التي هرب منها الآن كل رجل قوى البنية . .

فقال لوانج لنج : أحنى رأسك إلى أسفل قليلا . إنهم آتون هنا مرة أخرى... فأحنى وانج رأسه إلى أسفل كثيراً ، ثم ذرع الجنود الطريق وهم يدقونه بأحذيتهم الكبيرة متجهين غرباً ; وعند ما خفتت أصوات وقع أقدامهم ، إندفع كالقذيفة خارجاً من وراء القدور والحانوت ، وقبض على عربتـــه ، وجرى بها وهي خالية من الركاب إلى كوخه . . وكانت هناك أولان بعد عودتها من الطريق لتطهو قليلا من مادة خضراء كانت قد جمعتها ، فقص عليها فى كلمات غير متكاملة ، وهو يلهث أنفاسه كل ما حدث ، وكيف أنه قد نجا بصعوبة كبيرة ثم نظر إلى أولان وقال لها : إننى قد أغريت على بيع طفلى لنعود شمالا إلى أرضنا .

ولكن بعد أن استمعت له ، قالت له بطريقتها الصريحة التى لم تتغير : إنتظر أياما قليلة ، فهناك حديث غريب سمعته .

بيد أن وانج لم يخرج مطلقاً بعد ذلك فى ضوء النهار ، بل إنه كان ينتظر حتى يأتى المساء ، ثم يذهب إلى البيوت التجارية وكان يأخذ نصف ما كان يكتسبه فى مقابل أن يجر ليلا العربات الضخمه المحملة بالصناديق وكان يجرها اثنى عشر رجلا فى عناء ومشقة .

وظل طوال الليل يكد ويكدح فى الطرقات المظلمـة ، ثم كان يعود إلى بيته قبل الفجر لاهث الأنفاس ، محطم الجسد ، لا يكاد يأكل طعامه حتى ينام ليستريح ، ولكن كان فى أثناء النهـــار الساطع ، عند ما كان

الجنود يذرعون الطرقات بحثاً عن العمال ، كان ينام نوما هادئاً آمنا فى أقصى ركن من الكوخ خلف كومة من القش جمعتها له أولان لتكون مأوى له .

ومن كوخه الذى كان يرقد مختبأ فيه كان وانج لنج يسمع ساعة بعد أخرى وقع أقدام الجنود ، سائرين فى خطواتهم النظامية إلى ميدان القتال، ولم يجرؤ شخص على أن يتحدث مع آخر فى تلك الأيام ، وكانت المدينة تهتز رعباً وهلعاً ، وكان كل رجل يفعل ما ينبغى أن يفعله فى الخارج سريعاً ثم يرجع إلى بيته ، ويغلق عليه بابه .

وتهامس الناس فى كل مكان بأن العدو يقترب ، وشعر بالجزع كل من كان يمتلك أو يقتنى شيئاً ، إلا أن وانج لنج لم يكن خائفاً ، ومثله كذلك كان سكان الأكواخ لا يخافون شيئاً ، فإذا ما اقترب العدو ، فرحبا باقترابه لأنه لا يمكن أن يروا أسوأ مما كانوا فيه ، وظل كل رجل يتوفر على أداء عمله ، ولم يتجاسر أى فرد أن يتكلم مع أى شخص آخر جهاراً .

ثم أمر مديرو البيوت التجارية عمالهم أنهم ليسوا فى حاجة اليهم حيث أنه قد كف الناس عن البيع والشراء ، وهكذا قبع وانج لنج فى بيته لا يفارقه ليل نهار وقد خيم عليه الكسل ، وكان مسروراً فى بادىء الأمر لأنه أحس أن جسمه محتاج إلى قسط كبير من الراحة ، وما دام لم يشتغل فإنه لم يكسب قوته ، وبعد مرور عدة أيام قليلة أنفقوا آخر درهم لديهم ، وأخذ يسأل نفسه فى يأس عما ينبغى أن يفعل . وكأنما لم يصاب الناس بشر مستطير ولم تحل بهم المصائب ، إذ أغلقت المطاعم الشعبية

أبوابها ، ولم يعد هناك طعام أو عمـــل ، وكف الناس عن المرور فى الطرقات ، فلم يجدوا أحداً يستجدون منه الإحسان .

ثم أخذ وانج لنج طفلته بين ذراعيه ، وتطلع فى وجهها وقال لها فى حنان : أيتها البلهاء الصغيرة ، أتحبين أن تذهبى إلى بيت عظيم حيث تأكلين وتشربين ، وتلبسين معطفاً يقى جسمك كله ؟

وابتسمت الطفلة ، وهى لا تعى حرفاً واحداً مما قاله ، ورفعت يدها الصغيرة لتلمس وجهه ، فلم تستطع أعصابه أن تتحمل ذلك ، وصاح بزوجته قائلا :

— خبرينى . . هل كنت تضربين فى ذلك البيت الكبير ؟ — فأجابته دون مواربة وفى كآبة :

— كنت أضرب كل يوم بسوط من الجلد كان معلقاً على حائط المطبخ . .

ثم أخذ وانج يضم الطفلة إلى صدره ويكرر قوله فى حنان : آه أيتها البلهاء الصغيرة . . آه أيتها البلها الصغيرة . . ولكنه كان فى قرارة نفسه يبكى : — ليس هناك من سبيل آخر . . ليس هناك من سبيل آخر .

ثم فجأة سمع وهو جالس فى مكانه ضوضاء كأنما انشقت السماء ، وسقط كل واحد منهم على الأرض ، وأخفوا وجوههم ؛ فغطى وانج لنج وجه الطفلة بيده ، صاح الشيخ فى أذن وانج لنج :

— إنى لم أسمع قط مثل هذا فى حياتى كلها ..

وصرخ الولدان من الرعب .

ولكن عند ما ساد السكون فجأة كما قد تحطم من قبل فجأة قالت أولان وقد رفعت رأسها : إن ما سمعت به قد بدأ يحدث ، لقد اقتحم

الأعداء أبواب المدينة — وقبل أن يجيب عليـــه أحد دوت صيحة فى المدينـة ، وكانت فى بادىء الأمر خافتـة ، ثم تجمعت فى صوت عواء عميق ، ثم علت وعلت حتى ملأت الطرقات .

وحينئذ نهض وانج لنج على قدميه ، واجتاحه خوف شديد ، وأخذوا يحملقون فى بعضهم بعضا وكأنهم ينتظرون شيئاً لا يعرفونه .

ثم سمعوا من فوق السور قريبا منهم صوت باب كبير يفتح عنوة ، وفجأة برز الرجل الذى كان يخاطب وانج لنج فى المساء ودفع رأسه فى فتحة الكوخ وصرخ قائلا :

— أما زلتم جالسين هنا ؟ لقد حانت الساعة — إن أبواب الرجل الغنى قد فتحت لنا الساعة .

وكأنما مس أولان سحر فهبت زاحفة تحت ذراع الرجل وهو يتكلم .

ثم نهض وانج لنج فى بطء شديد ، ثم أجلس الطفلة على الأرض ، وخرج ، وهنالك أمام الأبواب الحديدية لبيت الرجل الغنى كانت كتلة هائلة من الناس متصايحة تتدافع بالمناكب إلى الأمام ، ثم عرف أن على أبواب الأثرياء كانت هنالك كتل من الرجال والنساء متصايحة مرمجرة كاد الجوع أن يقضى عليهم ، والسجن يحطمهم ، وكأنما أطلق سراحهم فى هذه اللحظة ، ليفعلوا مايشاءون وفتحت الأبواب العظيمة ، وتتقاطر الناس وهم يضغطون على بعضهم بعضا حتى أصبحت الكتلة كلها تتحرك حركة واحدة وكأنها كتلة واحدة ، وجاءت جموع من الخلف مسرعة ، وامسكت بوانج لنج ، ودفعتـه قسراً وسط الزحام سواء أكان راغبا أو رافضا .

واجتاحت الجماهير غرفة فى إثر غرفة فلم يستطع أى فرد من أولئك

الرجال أو النساء ممن كانوا يسكنون ذلك البيت . . ولكنه رأى الطعام معداً على المائدة فى الغرف ، وأن النار يشتعل أوارها فى المطابخ .. مرحى! إن هذا الجمهور الغفير قد عرف غرف الأغنياء ، لأنهم قد اكتسحوا كل شىء فى الغرف الداخلية ، حيث كانت توجد سرر السادة والسيدات ، تلك السرر الفاخرة والصناديق الملأى بالأقمشة الحريرية والكنوز فانكب عليها الجمهور يخطف كل شىء دون أن يتوقف فرد واحد ليرى ما أخذه وانتزعه . .

وفى وسط هذه الفوضى كان وانج لنج هو الوحيد الذى لم يأخذ شيئا ، فهو لم يأخذ فى حياته كلها شيئا ليس ملكا له ، ولم يستطع مرة واحدة أن يفعل ذلك ، ولذلك وقف وسط الجماهير أولا ، ثم عاد إلى شعوره نوعا ما ، فاندفع إلى طرف الغرفة فوجد نفسه فى نهاية غرفة داخلية حيث تسكن سيدات الأغنياء وكانت البوابة الخلفية مفتوحة على مصراعيها ، ومن خلالها لابد وأن الجميع قد هربوا فى هذا اليوم بلا شك ، وأنهم قد تسللوا يختفون هنا وهناك فى منعطفات الشوارع ولكن رجلا واحداً فشل فى أن يهرب وهذا الرجل وحده هو الذى باغته وانج لنج فى غرفة داخلية خالية .

وكان رجلا بدينا ، ضخم الجثة ، متوسط العمر ، وعند ما لمح وانج لنج اهتز خوفاً من رأسه إلى أخمص قدميه وصرخ ، حتى إن وانج لنج لم يسعه إلا أن يضحك من مرآه ، وجثا الرجل البدين على ركبتيه ، وصرخ قائلا :

— إنقذ حياتى ـ لا تقتلنى ـ فسأعطيك مالا وفيراً . .

إنها كلمة (المال) هى التى طرأت فى عقل وانج واضحة جلية كأنما صوت يحدثه : المال ـ إن ابنتك قد أنقذت وأرضك كذلك !

صرخ فى صوت لم يعرف له مثيلا من قبل فى حياته صـــــر.
وقال للرجل :
ـ إعطنى المال إذن . .
وأخرج الرجل اليدين وهو يبكى وينتحب يديه الصفراوين من جيب رداثه يتقاطر منهما الذهب وبسط وانج لنج طرف معطفه ، وتلقاه منه ومرة أخرى صاح بصوت غريب كأنما هو صادر من رجل آخر غيره :
ـ أعطنى مزيداً من المال . . !
ومرة أخرى أندفعت يدا الرجل من جيب المعطف ، يتقاطر منهما الذهب ، ثم صرخ فى أنات تعسة : لم يعد معى شىء ولا أملك شيئاً سوى حياتى البائسة . . ثم انهمرت دموعه . .
وسدد إليه وانج لنج وهو يرتعش ويبكى ، وفجأة شعر نحوه بحقد شديد لم يحسه نحو انسان من قبل وصاح فى الرجل قائلا : أغرب عن وجهى ، وإلا قتلتك كما لو كنت أقتل دودة سمينة !
وهكذا صاح وانج لنج مع أنه كان رجلا رقيق الفؤاد ، لم يستطع أن يذبح ثوره ، وجرى الرجل وأطلق ساقيـــه للريح ، ثم غاب عن الأنظار .
وهكذا ظل وانج لنج واقفاً فى مكانه والذهب فى حوزته . ولم يتوقف طويلا لكى يعده ، ولكنه دسه فى صدره تحت ملابسه ، وانصرف من الباب عابراً الطرق الخلفيـــة حتى وصل إلى كوخه وأحتضن الذهب ، وضمه إلى صـدره فشعر بأنه ما يزال دافئاً من جسم صاحبه ثم غمغم لنفسه مرات ومرات :
« نعود إلى الأرض . . فى الغد نرجع إلى الأرض . . »

الفصل الخامس عشر

قبل أن تنقضى أيام قليلة ، بدا لوانج لنج أنه قد أصبح قريباً من أرضه ، ولم يشعر فى أطواء قلبه فى الواقع أنه بعيد عنها . . واشترى بثلاثة قطع ذهبية بذوراً طيبة من الجنوب وحبوباً من القمح والأرز ؛ وفى اندفاع ومخاطرة اشترى بذوراً لم يزرع مثيلا لها فى أرضه من قبل ، بذور خضر وزهر اللوتس لبركته ، واشترى أيضاً كمية عظيمة من خضروات السلطة الحمراء ، المسلوقة مع لحم الخنزير كتلك الأصناف التى تقدم فى الولائم ، واشترى أيضاً فولا صغيراً أحمر . .

ودفع خمس قطع ذهبية ثمناً لثور اشتراه من فلاح يحرث أرضه ، اشترى هذا كله قبل أن يعود إلى وطنه وأرضه . . ولقد رأى الفلاح يحرث الأرض ، فوقف بل وقفت أسرته معه يشاهدون الثور ، فجذبت رقبة الثور الطويلة انتباه وانج فنادى قائلا لصاحبه : هذا ثور لا قيمة له ، فماذا تقبل ثمناً له؟ أفضة أم ذهباً ؟ فأنت ترى أنى لا أملك حيواناً ، وبى رغبة ملحة لأن أشترى أى شىء . .

ورد عليه الفلاح قائلا :

ــ « إنى لأفضل أن أبيع حياتى على أن أبيع ثورى ، فعمره ثلاث أعوام ، وفى عنفوان قوته . . وتابع الرجل حرثه ، ورفض أن يتوقف عن العمل أكثر من هذا فى سبيل وانج لنج . .

وحينئذ بدا لعينى وانج لنج أن هذا الثور من دون ثيران الأرض جميعا يجب أن يكون ملكا له ، ثم قال مخاطباً أولان : ما رأيك فى هذا الثور ؟ فقالت له أولان : إن عمره أربعة أعوام وليس ثلاث كما قال

صاحبه . . إلا أن وانج لنج لم يحبها ، فقد استهواه هذا الثور ، وأسر قلبه ، ثم ذهب إلى الفلاح ، وقال له :

ــ سأمنحك مالا وفيراً يعينك على شراء ثور آخر ، وأفضل منه ، ولكن هذا الثور فسأشتريه وسيكون ملكا لى . .

وأخيراً بعد أن طالت بينهما المساومة والمشاجرة ، قبل الرجل أن يتخلى عنه بما يوازى ثمن ثورين فى تلك المناطق ، وقاده وانج لنج من حبل مربوط من خياشيمه .

ولما وصلوا بيتهم وجدوا بابه قد تداعى ، والسقف قد انهار ، ولم يجدوا أثراً لمناجلهم وفؤوسهم التى كانوا قد تركوها . . وما أن تلاشت دهشتهم الأولى ، حتى بدا لوانج لنج أن هذه أمور تافهة وكأنما لم يحدث شيء إطلاقاً . . وذهب إلى المدينة ، واشترى محراثاً جديداً ، وفأسين ومنجلين ، وحصراً ليغطى به سقف بيته حتى يحين الوقت لبناء البيت من جديد . .

ووقف فى المساء على باب البيت ، وسدد نظره إلى أرضه فوجدها مفككة مزدهرة من أثر الشتاء القارص وجدها جاهزة معدة للغرس والإنبات وكان الربيع ينشر بهاءه فرأى فى أضواء الشفق أشباح الأشجار تلوح ممتدة فى أطراف الحقل القريب ، وكانت أشجار خوخ وصفصاف تفتح براعمها عن أوراق خضراء ناضرة رقيقة وانتشرت غلالة من الضباب من الأرض التى طال انتظارها ، وتعلقت بسيقان الشجر فحجبتها .

ولأول مرة ، وبعد وقت طويل ، بدا لوانج لنج أنه لا يود رؤية إنسان ما ، وأن يظل وحيداً فريداً فى أرضه ولم يذهب إلى أى بيت من

بيوت القرية ، وعندما جاء إليه جيرانه ، كان حازماً صارماً معهم ، وصاح فيهم قائلا :

ــ من منكم نزع باب بيتى ؟ ومن منكم سرق فأسى ومنجلى ؟

ثم جاء جاره تشنج يجر نفسه جراً ليرى وانج لنج وقال له : لقد أقامت عصابة من اللصوص فى بيتك طوال الشتاء ، وأن عمك كما يقال يعرف كثيراً عنهم بل وأكثر مما ينبغى أن يعرف رجل شريف ولكن من يقول الصدق فى هذه الأيام .

لقد أصبح تشنج فى الواقع شبحاً من الأشباح ، نحيفاً ضعيفاً ، قد اخترمه المشيب مع أنه لم تبلغ الخامسة والأربعين من العمر بعد . . وحملق فيه وانج لنج فترة قصيرة ثم قال له :

ــ لقــــد قاسيت وعانيت أكثر مما قاسينا وماذا كنت تأكل إبان المجاعة ؟

وصعد الرجل تنهيدة عميقة وهمس قائلا : أى شىء لم تعافه نفوسنا ؟ لقد أكلنا كل شىء : أكلنا كلاباً ميته . . وقبل أن تموت زوجتى ، طهت لنا حساءاً فى لحم لم اتجاسر على أن أسألها عن نوعه ولكن كنت واثقاً أنها ليست لديها الشجاعة على أن تقتل ، وإذا أكلنا كان طعامنا أى شىء نجده . . . ثم توقف ، وصمت قليلا ثم أستأنف حديثه قائلا :

ــ لو كان عندى بذور ، لزرعت الأرض من جديد ، ولكن لا أملك ثمة بذور . . فقال له وانج : تعال هنا . وجذبه إلى داخل البيت من يده ، وأمره أن يرفع طرف معطفه الممزق ، ثم صب فيه وانج لنج كثيراً من البذور التى أحضرها معه من الجنوب ، أعطاه بذور قمح وأرز

وكرنب وقال له فى : صباح الغد سأحضر إلى حقلك ، وأحرث أرضك بثورى الفتى .

وما أن سمع تشنج هذا الكلام حتى انفجر فى البكاء فجأة ، وقد أعياه النطق وأعجزه الجواب ، وانصرف إلى حال سبيله وهو يبكى بكاءاً مراً . . .

ولقد شعر وانج لنج بالفرح عندما وجد أنه قد ترك القرية ، ولم يعد يرى فيها ، ولا يعرف أحد مكانه على وجه الغرفة وصار بيته يندب من بناه وليس فيه إنسان ما . .

وكرس وانج لنج نفسه فى فلاحة الأرض ، وأخذ يشتغل الساعات التى كان يجب عليه أن يمضيها فى بيته ليتناول طعامه وينام ، بل كان يجب أن يأخذ لفة من الخبز ، وقليلا من الثوم ليأكل وهو واقف فى الحقل يفكر فى تخطيط الأرض ومهامها ، وكان إذا ما أحس أنه خائر ، منهك أثناء النهار يعمد إلى إلقاء نفسه فى أخدود ثم ينام ودفء أرضه يسرى فى جسده ، ويحنو على لحمه . . !

ولم تكن أولان فى بيتها متكاسلة ، إذ كانت تنزع الطين من الحقول وتخلطه بالماء ، وترمم حيطان البيت ، وأعادت بناء الفرن ، وسدت ثقوب الأرض التى غمرها المطر . .

وذهبت ذات يوم إلى المدينة مع وانج لنج واشتريا سويا سرراً ومنضدة ، وستة مقاعد ، ثم اشتروا بدافع البهجة والسرور وعاء شاى من الخزف الأحمر وستة أوعية لتماثله ، وأخيراً اشتريا (شمعدانين) من الزنك ، وشمعتين حمراوين . . ثم فكر وانج لنج فى التوجه إلى الصنمين الصغيرين فى معبد الأرض وتمتم فى نفور :

يجب أن أثبت قليلا من البخور أمام هذين الصنمين فى المعبد فمهما يكن من أمر فإن لهما قوة ونفوذاً على الأرض ..

الفصل السادس عشر

وذات مساء ، أحس وانج لنج كتلة صلبة فى صدر زوجته فسألها قائلا :

ما هذا الشىء الذى تخفيه فى صدرك ؟ . . ووضع يده عليها فوجد ربطة صلبة إلا أنها لانت تحت قبضة يده ، وعندما أراد أن ينتزعها منها ، رضخت له وقالت تخاطبه :

حسناً . . سأريها لك إذا شئت . . ثم أخذت الخيط الرفيع الذى تربطها به حول رقبتها وقطعته ، وأعطته ذلك الشىء . وكان ملفوفا فى قصاصة رثة من القماش ، فزقها بيديه ، وفجأة سقطت فى يده كتلة من الجواهر ، فحملق فيها وانج لنج كالمأخوذ ؛ ولم يعرف لها وانج لنج اسما ، ولكنه أدرك من لمعانها وتلألئها فى الغرفة التى لم يكن يغمرها النور ، أنه يقبض بيده على ثروة ، وظل قابضا عليها وقد عقدت لسانه الدهشة وظل كلاهما يحملقان سويا فى ذلك الشىء الذى كان فى يده ، وأخيراً همس لزوجته وهو يلهث ؛ من أين . . أين ؟ فهمست مجيبة برقة وخفوت قائلة : « فى بيت الرجل الثرى ، فلقد رأيت حجراً مقلقلا فى الحائط ، فتسللت إلى هنالك ، ونزعت الحجر ، فرأيتها تلمع ، فأخذتها فى كمى » . .

ثم عادا إلى صمتهما ، يحملقان فى فى جمال وروعة هذه الأحجار . . وبعد وقت طويل قال وانج لنج فى ثبات :

« إن كنزاً ثمينا كهذا لا يستطيع الإنسان أن يحتفظ به ، لا بد أن نبيعه ونضع ثمنه فى مأمن . . فى الأرض فلا شىء مأمون سواها . !

ولف الأحجار فى الخرقة مرة أخرى ، وبينما كان يفتح معطفه ليضعها فى صدره ، وقع بصره مصادفة على وجه زوجته ؛ فوجده قد تغير بنور

خافت من الشوق على شفتيها المنفرجتين ، ووجهها الممتد إلى الأمام ، فسألها متعجبا من أمرها : حسنا . . ماذا دهاك ؟

« وددت لو استطعت أن أستبقى قطعتين منها » قالت ذلك فى شوق ملؤه اليأس حتى تأثر تأثراً كبيراً كما لو أثاره واحد من أطفاله ، اشتاقت نفسه الحصول على لعبة أو قطعة من الحلوى .

فصاح فى دهشة : والآن ؟ . . فاستطرد فى خضوع : لو استطعت أن آخذ قطعتين صغيرتين فقط ـ اللؤلؤتين البيضاوين الصغيرتين ـ لاستطعت أن أمسكهما فى يدى أحيانا . .

وغلبت على مشاعر وانج لنج أشياء لم يستطع أن يفهمها ، ثم جذب الجواهر من صدره ، وناولها لها فى صمت ، فأخذت تفتش فى الأحجار المتلألئة حتى وجدت اللؤلؤتين الناعمتين البيضاوين ، واحتفظت بهما ، وربطت الجواهر الأخرى ، وردتها لزوجها . أما اللؤلؤتان فقد مزقت لها قطعة من معطفها ، ولفتهما سويا وأخفتهما فى صدرها ، وقد شعرت بالراحة تمازج قلبها .

وكان وانج لنج يراقبها وقد ملكته الدهشة ، ولا يكاد يفهم من أمرها شيئا ، وأما الجواهر الأخرى فقد عقد العزم أخيراً على أن يذهب إلى البيت الكبير ليسأل عن أرض أخرى يشتريها .

وذهب إلى البيت الكبير ، فلم يجد فى تلك الأيام حارسا يقف بالباب بل إنه وجد الأبواب الضخمة مغلقة ، وأخذ وانج لنج يطرقهـا بشدة بكلتا قبضتيه ، وأخيراً سمع وقع خطوات بطيئة متجهة نحو الباب وصوتا مرتعشا يهمس قائلا : من هناك ؟

وأدرك وانج لنج أنه السيد العجوز بنفسه فأجابه : سيدى . .

لقد جئت فى لأمر صغير مع الوكيل الذى فى خدمة سيادتكم . .

ثم أجاب السيد العجوز من خلال فتحه الباب : أن ذلك الكلب قد تركنى منذ شهور مضت وهو ليس هنا الآن . .

ولم يستطع وانج لنج ماذا يفعل بعد أن سمع تلك الإجابة ، فكان ضرباً من المحال أن يتحدث بنفسه مباشرة مع السيد العجوز فقال له فى تردد : لقد جئت بشأن قليل من المال . .

وفى الحال فتح السيد الأبواب على مصراعيها وقال بصوت أكثر ارتفاعا : لا يوجد مال فى هذا البيت ، ولا يمكن تسديد الديون فصاح وانج لنج سريعاً : لا . . لا لقد جئت لأدفع لا لأسترد ديناً . .

ثم رنت صيحة أخرى لم يسمعها وانج من قبل ، وأخرجت امرأة رأسها من الباب وقالت فى خشونة إن هذا شىء لم أسمعه منذ وقت طويل ثم فتحت الأبواب وأدخلت وانج لنج ، ثم أغلقت ثانية .

ووقف السيد الشيخ أمام وانج لنج وهو يسعل ويحملق ، وقد التف برداء قذر من الحرير الرمادى ، وأخذ وانج لنج يحملق فيه ، وبدا له أنه من المحال أن السيد الشيخ ، الذى سمع عنه الكثير هو هذا الشيخ الفانى المحطم ، لا يزيد عن أبيه الشيخ شيئا فى شكله الباعث على الهلع ، بل أنه اقل من أبيه الشيخ الذى كان يبدو رجلا نظيفاً ، مبتسم الثغر أما ذلك السيد الشيخ فكان قذراً كما كان شعر لحيته نامياً كثيفاً . .

أما المرأة فكانت تبدو عليها النظافة ، وكان لها وجه جامد ، قوى الملامح وكان خداها وشفتاها ينطقان بالحمرة والصلابة ، وكانت تبدو من كلامها أنها ليست من أسرة السيد ، وإنما جارية ذات صوت حاد ، ولسان

لاذع . . وفيما عدا هذين الشخصين السيد والجارية لم يكن هناك شخص آخر فى الغرفة . . . .

وقالت المرأة بخشونة : والآن ماذا تريد أن تقول عن النقود ؟ ـ ولكن وانج لنج لم يستطع أن يتكلم ملياً أمام السيد وهذا ما أدركته المرأة فى الحال فقالت للسيد : فلتغرب عنا الآن !

وانصرف السيد فى الحال دون أن ينطق بكلمة ما ، لا يسمع منه سوى سعاله وهو يسير . . .

وقالت المرأة مخاطبة وانج لنج فى خشونة كبيرة وبعد أيها الغبى ، ما شأنك ؟ إذا كان معك مال فدعنى أراه . . .

فقال لها وانج فى حذر : لا . . لم أقل لك إنى معى نقود . . لدى عمل . .

فردت المرأة : إن العمل معناه نقود ! فقال وانج لنج : حسنا ولكنى لا أستطيع التفاهم مع امرأة . .

فأجابت المرأة : حسنا . . . ولم لا ؟ ثم صاحت فى وجهه فجأة قائلة : ألم تسمع أيها الغبى أنه لا يوجد غيرى فى هذا البيت . . سوى أنا والسيد الشيخ . .

فقال لها وانج لنج فى دهشة بالغة جعلته لايحسن أداء مايقول: وأين هم إذن ؟

فأجابته المرأة : حسنا .. إن السيدة الكبيرة ماتت .. ألم تسمع كيف أن اللصوص قد انقضوا على البيت ، وكيف أنهم حملوا كل ما شاءوا من جوارى ومتاع ؟ وأنهم قد علقوا السيد الكبير من إبهاميه ثم ضربوه ، ثم قيدوا السيدة الكبيرة فى كرسى ، وهرب كل فرد ، ولكنى مكثت

واختفيت ، وعندما خرجت وجدتهم قد تركوا البيت ، ووجدت السيدة الكبيرة ميتة من الخوف وهى جالسة على كرسيها ..

ولهث وانج لنج قائلا : وماذا حدث للخدم والجوارى؟

فأجابت المرأة فى إهمال : آه .. أولئك .. قد غادروا البيت منذ وقت طويل .. كل من حملته ساقاه ترك البيت حيث نضب معين الطعام والمال فى منتصف الشتاء .

وسكتت المرأة لحظة، ثم استأنفت حديثها قائلة : ولكن كل ما حدث لم يكن شيئا مفاجئا ، لقد حدث فى الجيل الماضى أن السادة كفوا عن رؤية أرضهم ، وأخذوا المال الذى كان يحضره لهم عملائهم ، وصرفوه فيما لا طائل تحته . .

فسأل وانج لنج : وأين السادة الشبان ؟

فقالت له المرأة بلا اكتراث : تشتتوا هنا وهنالك .

وعندما علم السيد الأكبر بما حدث لأبيه وأمه بعث رسولا ليأخذ والده ولكنى أقنعته أن يظل هنا ، ولا يغادر البيت ..

ونظر إليها وانج فى إمعان ، فبدأ يدرك حقيقة هذه المرأة ، امرأة قد تعلقت برجل عجوز يحتضر لكى تنال كل شىء تستطيع الحصول عليه منه .. فقال لها فى احتقار : وما دمت لا أرى هنا سوى جارية ، فكيف أستطيع أن أتم صفقتى معك ..

وعند سماعها هذا الكلام صرخت فيه قائلة : إنه لينفذ أى شىء أقوله له . .

وأمعن وانج لنج فكره فى كلامها ، وقال مخاطبا نفسه : حسنا .. فهنالك

الأرض .. بل هنالك آخرون سوف يشترونها عن طريق هذه المرأة إذا لم أفعل أنا . .

وقالت له على التو : إذا كنت قد حضرت لشراء الأرض ، فان الأرض معدة للبيع ، وهى ليست كلها قطعة واحدة ، ولكن مساحتها كبيرة متناثرة ويمكن بيعها كلها إلى آخر فدان ..

وأدرك وانج لنج أنها تعرف كل شيء يمتلكه سيدها الشيخ ، ولكنه لم يرغب فى أن يعقد الصفقة معها ..

فقال لها : ليس من المحتمل أن السيد الشيخ يستطيع أن يبيع أرض الأسرة كلها دون موافقة أبنائه ..

ولكن المرأة أجابت على كلماته بشغف : أما بخصوص هذه النقطة فان الأبناء قد أخبروا والدهم الشيخ أن يبيع إذا شاء ..

وسألها وانج : ولمن سأدفع ثمن الأرض ..

فأجابت المرأة : ليد السيد الشيخ ، فليد من سواه؟ - ولكن وانج لنج عرف أن يد الشيخ مبسوطة لهذه الجارية فأدار لها ظهره وقال : ستتم الصفقة فى يوم آخر .. يوم آخر . .

ثم نزل إلى الشارع ، وهو فى حاجة ملحة لأن يفكر فى إمعان وتدبر فى كل ما سمعه ، ثم عرج على حانوت صغير لشرب الشاى ، وطلب شايا ، وعندما وضعه الصبي أمامه ، أغرق فى التفكير فى الأسرة العظيمة الثرية التى هوت من عليائها ، وتشتت أفرادها .

ثم قال مخاطبا نفسه : إن سبب هذا الإنهيار هو الأرض !

وفكر فى ولديه ، واستقر رأيه فى نفس ذلك اليوم على أن يجعلهما

يشتغلان فى الحقل معه، حتى يسرى مبكراً فى عظامهم ودمائهم الاحساس بالتربة تحت أقدامهم.

حسنا .. إنه مايزال يمتلك المجوهرات ولن يستقر له جنب حتى يشترى بها أرضا، وانتظر لذلك حتى أتاح لصاحب الحانوت أن يأخذ فترة استرخاء ثم نادى على الرجل وقال له:

تعال اجلس معى، لتشرب قدحاً وسأدفع ثمنه، وحدثنى عن أخبار المدينة منذ أن رحلت عنها شتاء ..

وكان صاحب الحانوت مستعداً دائما لأن يخوض فى هذا الحديث، وخاصة إذا ما جرع شايه على نفقة الغير، فجلس وأخذ فى الحديث دون إبطاء قائلا:

حسنا .. فيما عدا هؤلاء الذين ماتوا جوعا ـ وهذا خبر مشاع ومعاد ـ فإن أهم الأخبار هو سرقة بيت هوانج.

وكانت هذه الأخبار هى ما كان يتمنى أن يسمعه وانج لنج، واستطرد الرجل يحدثه فى تلذذ كيف أن البعض قد طرد أو اختطف حتى لم يعد أحد يهتم بأن يعيش فى ذلك البيت على الإطلاق . وأنهى الرجل حديثه قائلا: لا أحد سوى السيد المسن، الذى تسيطر عليه سيطرة تامة جارية تدعى «كوكو»

فسأله وانج لنج: ألهذه المرأة السيطرة إذن؟

فأجاب الرجل: هى فى الوقت الحـــاضر تستطيع أن تصرف كل الأمور ..

وسأله وانج لنج أخيراً: والأرض، أهى للبيع؟

فأجابه الرجل بلا اكتراث : أواه . . ياللأرض ! لقد سمعت أنها للبيع ماعدا المساحه التى تدفن فيها الأسرة .

ثم نهض وانج لنج ، وانصرف ، حتى اقترب مرة أخرى من الأبواب الشاهقة . . وعادت المرأة مرة أخرى لمقابلته ، وقال لها : خبرينى أولا ، هل سيوقع سيدك الكبير بخاتمه على عقود البيع ؟

فأجابته المرأة فى لهفة : أجل . أجل بحياتى . .

ثم سألها وانج فى بساطة : هل سأدفع ثمن الأرض ذهبا أم فضة ، أم جواهر ؟

ولمعت عيناها وهى تتكلم ثم قالت :

سأقبض ثمنها جواهر . .

الفصل السابع عشر

أصبح وانج لنج فى حالته الراهنة يملك أرضاً أكثر مما يستطيع أن يحرثه ثور واحد ، وأكثر مما يستطيع أن يحصده رجل واحد ، ولذلك بنى غرفة صغيرة فى بيته ، واشترى حماراً ، وقال لجاره تشنج : بعنى قطعة أرضك الصغيرة ، واهجر بيتك الموحش ، وأقم فى بيتى ، وساعدنى فى العمل بأرضى .. وفعل تشنج ما أمره به ، بل كان مغتبطا لأن يقوم بذلك..

وعندما حان وقت الحصاد لم يستطع وانج لنج وتشنج أن يجمعا المحصول بمفرديهما ، إذ كان محصولا وفيرا فاستأجر وانج لنج عاملين آخرين ليعاوناهما فحصدوه جميعا ..

ورجعت به الذاكرة إلى السادة الشبان الكسالى - آل هوانج - وهو يكدح فى الأرض ولذلك أخذ ولديه معه إلى الحقول وجعلهما يشتغلان فى أى عمل تستطيع أيديهما الرقيقة أن تقوما به..

ولكنه لم يسمح لزوجته أولان أن تشتغل فى الحقول ، فهو لم يعد وانج لنج الفلاح الفقير ، ولم يحدث مطلقا أن أنتجت غلة كما فعلت فى ذلك العام فاضطر أن يبنى غرفة أخرى ملحقة بالبيت ليخزن فيها محاصيله ، واشترى ثلاث خنازير ، ومجموعة كبيرة من الطيور والدواجن لتلتقط الحبوب المتناثرة من المحاصيل .. ثم انهمكت أولان فى تدبير المنزل ، وحياكة الملابس لأفراد أسرتها ، وصنع الأحذية الجديدة ، والفراش من قماش مطرز بالزهور ، محشو بالقطن الذى يجلب الدفء لكل سرير وبعد حين أرقدت نفسها على الفراش ، ووضعت مرة أخرى على الرغم من كونها وحيدة ولا أحد معها يعينها ..

وعندما رجع وانج لنج إلى البيت وجد أباه واقفا بالباب يضحك .. فدلف إلى الغرف الداخليـــة حيث وجد أولان راقدة وبجوارها وليداها التوءمان : ذكر وأنثى . . متشابهان كحبتين من الأرز وقهقه عاليا على ما قد فعلته زوجته ، وابتسمت أولان ابتسامتها البطيئة ، التى تنم على الألم . .

ولم يعكر صفو حياة وانج لنج حزن ما ، فيما عدا ابنته الكبرى التى لم تنطق بعد أو تعمل مايعمـــله الأطفال فى مثل سنها ، ولم تفارقها ابتسامتها البريئة ، ومرت الشهور تلو الشهور ، وانتظر وانج لنج أن يسمع منها كلماتها الأولى ، ولـكنها لم تنطق بحرف ؛ وعندما نظر إليها صعد زفرة حارة وقال : أيتها البلهاء الصغيرة ، ابنتى العزيزة . .

وكأنما أراد أن يعوضها عما حرمت منه ، فأخذ يدللها ويسبغ عليها عطفه وكانت تتبعه فى صمت ، أينما ذهب ، تبتسم له كلما تـكلم معها ، أو نظر إليها .

فى تلك المناطق التى أمضى وانج لنج وأمه وأبوه حياتهم بين ربوعها وعاشوا على أرضها ، كانت تحدث مجاعات كل خمسة أعوام ، فإذا كانت الآلهة رحيمة بالناس ، حدثت هذه المجاعات مرة كل سبع ، أو ثمان ، أو عشر سنوات ، وكان يحدث هذا بسبب المطر الذى ينعدم تماما أو يتدفق كثيراً أو بسبب النهر الواقع فى الشمال ، كلما امتلأ بأمطار وثلوج الشتاء من الجبال البعيدة ، فانه كان يفيض متدفقا ماؤه فى الحقول مخترقا الجسور التى بناها الرجال منذ قرون لتقف حائلا ضد المياه .

وكان الرجال يهربون مرة بعد أخرى من الأرض ، ويهاجرون منها

ثم يعودون إليها ، ولكن وانج لنج أخذ يكرس حياته فى بناء دعائم ثروته حتى إذا ما مرت به سنين عجاف ، فلا حاجة به لأن يترك أرضه مرة أخرى ، وظلت المحاصيل تأتى بوفرة سبعة أعوام متتالية ، وفى كل عام منها كان وانج لنج يجنى منها ما يزيد على طعامه . . وكان فى كل عام يستأجر عمالا كثيرين حتى أصبح لديه ست رجال فبنى بيتا جديداً وراء بيتـــه القديم مكونا من غرفة فسيحة أمامها فناء ، وغرفتين صغيرتين على جانبى الفناء ، وسقف البيت بالقرميد ولكن حيطانه كانت مبنية من الطوب اللبن المجفف من تربة الحقول ، ثم أمر بطلائها بالجير فبدت بيضاء نظيفة .

وانتقل هو وأسرته إلى هذا البيت ، بينما سكن عماله وعلى رأسهم تشنج فى البيت القديم أمامه .

وفى نهاية العام الخامس كان وانج لنج قليلا مايشتغل بنفسه فى حقوله بل كان يمضى وقته كله فى تصريف الشئون المالية والتجارية فى السوق ، وعرض محصوله فيه ، وفى إرشاد رجاله العمال فى الحقل .

ولقد ضايقه أشد الضـــيق عجزه عن الإلمام بالقراءة والكتابة ، وسخطه الشديد على نفسه لاحتقار الكتبة له فى سوق الحبوب ، ثم كان يقول فى نفسه :

إنه لمن المخجل لى ألا أستطيع القراءة أو الكتابة ، ولذلك سوف أمنع إبنى من الذهاب إلى الحقل ، وأرسله إلى المدرسة بالمدينة ، وعندما أذهب إلى أسواق الحبوب ، سيقرأ لى ويكتب ، وبذلك أضع حداً لهذه السخرية بى ، أنا الذى أصبحت مالكا .

وفى نفس ذلك اليوم نادى على ابنه الأكبر وكان فتى طويلا ، فارع القامة ، فى الثانية عشرة من عمره ، يشبه أمه شكلا ، ويشبه أباه فى توقد

عينيه ، وعندما وقف أمام أبيه قال له : ارجع عن الذهاب إلى الحقول منذ اليوم ، لأنى أريد فرداً متعلماً فى الأسرة ليقرأ العقود ، ويوقع عليها باسمى ، ولن أشعر بالخجل مرة أخرى فى المدينة .

ولمعت عينا الفتى وقال لأبيه : هـذا يا والدى ما كنت أتمناه خلال هذين العامين الأخيرين ، ولـكن لم أجرؤ على طلب ذلك منك . .

وعندما سمع ابنه الأصغر بهذا ، جاء إلى أبيه باكياً شاكيا وقال له : حسنا . . وأنا كذلك لن أشتغل فى الحقول . . ولم يستطع وانج أن يتحمل هذه الضوضاء فقال له على الفور : حسنا . . حسنا فليذهب كل منكما إلى المدرسة . .

ثم أرسل زوجته إلى المدينة لتشترى قماشا تصنع منه ثوباً طويلا لكل من ولديها ، وأخيراً كان كل شىء معداً لإرسال الأولاد إلى مدرسة صغيرة قريبة من باب المدينة يديرها شيخ طاعن فى السن .

وفى اليوم الذى اصطحبهما فيه ، سار أمام ولديه ، إذ أنه ليس من اللائق أن يسير الأب والإبن بجوار بعضهما بعضا ، وحمل قماشا أزرقا مملوءاً بالبيض الطازج ليعطيه إلى المدرس العجوز عندما يصل إلى المدرسة ، وانحنى وانج لنبج فى أدب شديد أمام المدرس وقال له :

ـــ سيدى . . أقدم لك ولدى التافهين وإذا أمكنك أن تدخل شيئا فى رأسيهما السميكين كالنحاس ، فهذا ممكن بضربهما فقط ولذلك إذا شئت أن ترضينى ، اضربهما ليتعلما . .

وعند عودته إلى بيته وحيداً ، كان قلب وانج يموج بالزهو والخيلاء ، وبدا له أنه لا يدانى ولديه أحد من الفتيان فى حجرة الدرس طولا وقوة ، ونضارة وجه ولذلك أخذ يخاطب نفسه : لن أدهش إطلاقاً إذا أصبح ابنى الأكبر حاكما بكل ما يناله من تعليم . .

ومن الآن فصاعدا أصبح لا يخاطب الأستاذ الغلامين بالأخ الأكبر أو الأخ الأصغر ، وإنما أطلق عليهما أسماء مدرسية فسمى الأكبر (ننج إن) والأصغر (ننج ون) ومعنى الكلمة الأولى من كل اسم كان علماً على فرد واتته ثروته من الأرض . .

الفصل الثامن عشر

وهكذا شيد وانج لنج دعائم الثروة فى بيته ، وعند أهلت السنة السابعة ، كان النهر الواقع فى الشمال مثقلا بالوفير من المياه بسبب غزارة الأمطار والثلج فى الشمال الغربى ، ففاض على شاطئيه ، وجرفهما وأخذ ماؤه يجتاح ويغرق جميع الأراضى فى تلك النقطة . . ولكن وانج لنج لم يزعج ؛ نعم لم يزعج مع أن ثلثى أرضه قد صارتا بحيرة يستطيع أن يقف الإنسان فى مائها إلى كتفيه أو أعلا . . وكانت أسواق الحبوب مدينة له بالمال ، وكانت مخازنه مع ذلك مملوءة بالمحاصيل التى جناها خلال العامين الأخيرين وكان بيتاه عاليين لا يصل إليهما الماء

ولكن منذ أن أصبح كثير من الأرض لا يزرع ، سيطر على وانج لنج كسل شديد لم يسبق له مثيل فى حياته من قبل . . وطبعى أن الإنسان لا يستطيع أن يجلس طوال يومه محملقاً فى بحيرة من الماء قد غمرت حقوله ، ولا يستطيع أن يأكل أكثر مما يكفيه فى المرة الواحدة ، وعندما نام وانج لنج طويلا أراد أن يضع حداً لنومه . . وكان بيته ساكناً صامتاً ، ساكناً سكوناً لا يتفق مع دم وانج لنج الحار ، وأصبح والده الشيخ هزيلا ضعيفا ، ولا يتحدث معه أحد إلا ليسأله عما إذا كان يحتاج إلى الدفء أو الطعام أو الشاى ، وأصبح وانج لنج قلقا لأن أباه لم يستطع أن يدرك الثروة التى وصل إليها ولم تكن هناك فائدة ترجى من أن يقال له شىء ، لأنه كان ينسى كل ما يقال فى الحال .

وكان الشيخ وحفيدته البكماء يجلسان بجوار بعضهما الساعة تلو الساعة

وتفتل الطفلة قطعة من القماش ، ولم يكن لديهما شيء يقولانه لرجل قوى ثرى ، مثل وانج لنج ، ولقـــد اعتاد وانج أن يدير وجهه سريعا كلما نظر إلى ابنته ثم يستغرق مفكراً لحظة من السكون ثم يتطلع إلى طفليه ، الولد والبنت ، اللذين ولدتهما أولان سويا ، واللذين أصبحا يجريان ويمرحان . .

إن الإنسان لا يشعر بالرضا والسكوت على غباوة الأطفـال ، ولقد حانت منه نظرة إلى زوجتـه أولان ، فبدا له أنه قد رآها لأول مرة فى حياته ، ورأى لأول مرة أنها امرأة لا يسميها أى رجل آخر سواه إلا بما فيها من صفات كئيبة ، ومخلوقة عادية تكدح فى صمت ، دون أن تفكر فى العناية بمظهرها أمام الناس ، وبينما كان ينظر إليها هكذا ، صاح بها قائلا: إن أى فرد ينظر إليك ليحسبك زوجة رجل فقير ، لا زوجة لرجل يملك أرضا . .

لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يعبر فيها عن رأيه فى مظهرها ، فعلت وجهها حمرة الخجل فكست عظام خديها البارزين فغمغمت قائلة : منذ أن ولدت هذين الطفلين الأخيرين ، وأنا لست فى صحة طيبة ، إنى أحس بالنار تسرى فى أعضائى وكيانى كله . .

فأجاب بخشونة أشد مما قصد :

أعنى ألا يمكنك أن تشترى قليلا من الزيت لشعرك كما تفعل النساء ؟ ألا تصنعين لنفسك ثوبا جديداً من القماش الأسود ؟

ولاذت أولان بالصمت ، ونظرت إليه فى ذلة وانكسار . . ومع أنه كان من أطواء قلبـــه شاعراً بالخجل لتوبيخه هذه المخلوقة التى

تبعته خلال هذه السنوات الثلاث كالكلب الأمين ، فإنه أستطرد قائلا :
إن قدميك هذه . .

ثم توقف عن الكلام ، وبدا له حينذاك أنها قبيحة الشكل تماما ، وأقبح ما فيها هما قدماها الكبيران فى حذائهما القطنى الواسع ، ونظر إليهما فى غضب ، فأدركت ما كان يفعل ، فأخفتها تحت المقعد وأخيراً قالت له فى همس : أن أمي لم تربط قدمى لأنهم باعونى وأنا طفلة ؛ ولكنى سأربط قدمى طفلتنا الصغيرة .

وشعر بالخزى مرة أخرى ، لأنه أظهر غضبه عليها ، ثم جذب ثوبه الأسود الجديد حول جسمه ، وقال محنقا : حسنا . . سأذهب إلى حانوت الشاى الجديد لعلى أسمع خبرا جديدا فبيتى لا يضم سوى حمق ، وشيخ وطفلين .

وكان يوجد آنذاك فى المدينة حانوت لشرب الشاى قد افتتحه حديثا رجل من الجنوب ، وكأنما أراد وانج لنج أن ينسى أنه كان قاسيا مع زوجته ، لذلك سار صوب هذا الحانوت .

ولم يتحدث فى بادىء الأمر فى هذا الحانوت العظيم، ولكنه اشترى شايه فى هدوء ، وشربه . ونظر حوله فى دهشة بالغة، فوجد أن الحانوت يتكون من صالة كبيرة والجدران مزدانة بصور من الحرير الأبيض عليها مناظر لسيدات ، بدت فى عين وانج كأنها نساء حالمات، وفى يومه الأول اكتفى بالنظر إليها وشرب الشاى سريعا ، وانصرف .

وبينما كانت المياه تغمر أرضه ، ظل يذهب إلى مشرب الشاى يوما بعد يوم ، يطلب الشاى ويجلس وحيدا يشربه ، ويحملق فى صور النساء

الجميلة ، وهكذا كاد يسير على هذا المنوال لعدة أيام وينتهى من ذلك ، ولكنه بينما كان جالسا ذات مساء يرشف الشاى محملقا هبط شخص من درج ضيق فى أقصى طرف من الغرفة ، ولمسه من كتفه فأجفل فى عنف ، وعندما تطلع إلى أعلى وقعت عيناه على الوجه الدقيق الفاتن للمرأة (كوكو) التى صب فى يدها الجواهر يوم أن اشترى الأرض . .

فقالت له : حسنا .. وانج لنج المزارع من كان يظن أنه يراك هنا؟

وأدرك أنه يجب عليه أن يثبت لهذه المرأة أنه أكثر من رجل ريفى ساذج فضحك بدوره وقال بصوت مرتفع:

أليست نقودى تستحق الصرف كنقود أى رجل؟ وإنى لأملك المال فى هذه الأيام ...

وتوقفت (كوكو) عند سماعها هـذا ، وقالت بصوت ناعم كأنه زيت ينهمر: ومن الذى لم يسمع بذلك؟ وكيف يستطيع الانسان أن يصرف ماله إلا فى مكان كهذا . . إنه لا يوجد أفضل من خمرنا .. أتذوقتها ياوانج؟

فقال لها وقد اعتراه الخجل : أنا لم أشرب إلا الشاى هنا حتى الآن..

فقالت متعجبة وهى تضحك عاليا: شاى! وأظن أنك لم تر شيئا آخر؟ أليس كذلك ؟

فأجاب : لا..لا.. لم أر ..

وضحكت المرأة مرة أخرى ، وأشارت إلى صور النساء وقالت : اختر اياهن تشاء ، وضع الفضة فى يدى ، وسأجلسها بجوارك . .

فقال لها وانج متعجبا : كنت أحسبها صور نساء فى الأحلام كتلك التى يحكى عنها كاتبو القصص . .

فأجابت (كوكو) : إنهن نســـاء أحلام ولكنهن بقليل من الفضـــة سيتحولن إلى دم ولحم . . ثم انصرفت فى طريقها . . ولـكن وانج لنج جلس يتفرس بإمعان فى الصور باهتمام متجدد، فوجد بعضاً آخر يفوق تلك التى رآها من قبل جمالا ، وان من بينها صورة لغادة آية فى الفتنة، هيفاء القد ، ممشوقة القوام، ذات وجه دقيق التقاطيع كوجه قطيطة لطيفة تمسك بيدها برعوم زهرة من اللوتس ذات ساق طويل لم تفتح بعد .. فأنعم فيها النظر، وخاطب نفسه بصوت مرتفع قائلا: إنها كالوردة جمالا ! وشعر بالخجل عندما سمع صوته فنهض مسرعا ، ودفع نقوده ، وانصرف إلى بيتــه وقد لفه الظلام الذى نشر فى ذلك الحين غلالته الفاحمة . .

الفصل التاسع عشر

لو أن الماء قد انحسر عن حقوله ، فإن وانج لنج قد لايعود إلى مشرب الشاى العظيم وهكذا يستطيع أن ينسى ذلك الوجه الدقيق المرسوم على الصورة الحريرية ، ولكن الماء ظل آسنا لا يتحرك . وأصبح وانج لنج قلقا يبذل جهده فى أن يتجنب نظرات أولان التى كانت تتطلع إلى وجهه بتماسة كلما ذهب هنا أو هنالك أو كلما ألقى بنفسه على كرسيه ، أو انصرف دون أن يشرب الشـــاى الذى صبته له ، وفى نهاية يوم عمل طويل ، فى الشهر السابع ، دخل غرفته دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم ارتدى ثوبه الجديد الأسود اللامع ، ثم ذهب إلى مشرب الشاى .

ووقف وانج لنج أمام الباب فى نور المشرب الساطع ، وكاد ينصرف راجعا ، لولا أن انبعثت من بين الظلال امرأة كانت منحنية فى المشرب فى تخاذل واسترخاء ؛ وكانت « كوكو » وعندما عرفته قالت له : أواه . . ما أنتَ إلا المزارع !

فاستحال غضبه إلى شجاعة لم يعهدها فى نفسه من قبل ، وقال لها : حسنا . . ألا يمكن لى أن أحضر إلى هذا البيت كما يأتى غيرى من الرجال؟

فضحكت وقالت له : إذا كان معك من الفضة مثل الآخرين ؟

ورغب فى أن يبين لها أنه ثرى ، وأن ثراءه يسمح له ان يمتع نفسه فأخرج حفنة من الفضة ،وقال لها : أتكفى هذه أم لا؟

فحملقت فى الفضة قليلا ثم قالت : هيا ادخل ، وقل ماتشاء .

غمغم وانج لنج دون ان يعرف ماذا يقول :

حسنا ، لست ادرى ماذا اريد . . ثم همس قائلا : « هذه الغادة ذات

الوجه النضر كالورد التى تمسك بيدها زهرة اللوتس . . اود لقياها . .

وازداد وانج لنج لهفة على لهفة وقلقا على قلق ، اشد وأكثر مما يحس بهما إنسان آخر سواه ؛ وظل يذهب كل يوم إلى المشرب حيث يلتقى كل يوم بالغادة التي تدعى (لوتس) .

ولم يكف عن لقاء الفتاة طوال اشهر الصيف القائظة ، ولم يعرف شيئاً عن شخصيتها ، وكان قلما يصغى إلى حديثها الطويل المنساب ، وإنما كان يدمن على التطلع فى وجهها ، ويديها ، وفى إدراك نظرات عينيهـــا الواسعتين الجميلتين . . وعندما سخرت الفتاة من ضفيرته المدلاة من شعره انصرف فى سكون ، وامر بقصها . . اما جسده القوى الأسمر الذى قلما كان يغسله ، فقد أخذ يغسله كل يوم حتى أن زوجته وقد أزعجها ذلك ، قالت له يوما : إنك ستموت من فرط هذا الإستحمام .

واشترى صابونا زكى الرائحة ، ليستحم به ، ولم يعد يأكل الثوم إطلاقا ، مع انه كان طعاما مفضلا لديه ، حتى لا تخرج من فمه رائحـــة كريهة ، وهو جالس إلى فتاته .

وعجز كل فرد فى الأسرة عن تفسير هذه الأشياء الغريبة ـ ولـكن ذات يوم خاطبته زوجته اولان فى تثاقل : تبدو فيك اشياء تجعلنى اظن فيك سيداً من سادة بيت هوانج العظيم .

وقهقه وانج لنج عاليا ، ولـكنه كان مسروراً فى قرارة نفسه ، وظل طوال ذلك اليوم رقيقا رفيقا فى معاملتها عن كل يوم مضى .

وانسابت النقود الفضية ، الثمينة من بين يديه كما ينساب ماء الغدير ،

ليشترى بها دبابيس ذهبيـــة وجواهر لفتاته .. اما أولان فقد لاذت بالصمت، لا تبدى نحوه شيئا سوى النظر إليه فى ابتئاس شديد لأنها كانت تخشـــاه منذ ذلك اليوم الذى أوضح لهارايه فى مظهرها العاطل من الجمال وقدميها الكبيرتين ، وكانت تخشى ان توجه اليه سؤالا حتى لا ينفجر فيها غاضبا كما هى عادته معها فى هذه الأيام .

وحان يوم كان فيه وانج لنج عائداً إلى بيته ماراً بالحقول ، فاقترب من زوجته بينما كانت تغسل له ملابسه عند بركة صغيرة ووقف بجوارها صامتا فترة من الوقت ، ثم خاطبها بخشونة لشعوره من نفسه بالخجل قائلا :

« أين تلك اللآلىء التى تحتفظين بها ؟ »

واجابته فى ذلة وخنوع ، وهى ترفع رأسها من الملابس التى كانت تضرب بها على حجر مسطح أملس .

« اللآلىء . . إنها معى ! »

وبعد أن صمت برهة صرخ فيها قائلا :

أعطهم لى . . فأنا فى حاجة إليهم . . .

ووضعت يدها المجعدة المبتلة فى صدرها ، وأعطته اللفة الصغيرة ، وأخذت تراقبه وهو يفكها ، وسطعت اللآلىء ولمعت فى نور الشمس فى صفاء وسناء ، فضحك مسروراً ولكن أولان عادت تضرب الملابس كما كانت تفعل . وعندما تساقطت دموعها من عينيها فى بطء شديد لم ترفع يدها لتمسحها ، بل ظلت تضرب بعصاها الخشبية على الملابس المنبسطة على الحجر أمامها .

الفصل العشرون

سار وانج لنج على هذا المنوال من حياته الجديدة حتى كادت فضته تنفذ ، ما لم يعد عم وانج لنج فجأة إلى بيت ابن أخيه دون أن يوضح أى شيء عن المكان الذى كان فيه ، أو عما كان يفعل أثناء غيابه ، ووقف أمام الباب وملابسه الرثة مفككة الأزرار ، وكشر لهم عن أنيابه وهم جلوس إلى المائدة لتناول طعام الإفطار ، وحينئذ وقف وانج لنج وقال له : مرحبا بك يا عمى ، هل تناولت طعام الإفطار ؟ فأجاب عمه : لا ولكن سآكل معكم . . وجلس على كرسى إلى المائدة وسحب آنيــة وعودين وأكل كما لو كان به نهم شـديد ، وبعد أن انتهى من طعامـه ، قال ببساطة كما لو كان من حقه أن يقول هذا : الآن سأنام هنا ، فأنا لم أنم منذ ثلاث ليال . .

ولم يدر حينئذ وانج لنج ماذا يفعل ، إلا أنه قاده إلى فراش أبيه ، فألقى بنفسه عليه ، وراح فى سبات عميق دون أن ينطق بكلمة ما . .

وعلم وانج لنج أن عمه لن يفارق البيت بعد أن عرف أنه قد أصبح غنيا ، وأدرك أن زوجة عمه قد تحضر الى البيت أيضا وأن لا أحد يستطيع أن يمنعها .

ووقع ما كان يخشاه إذا خرج عمه من غرفة النوم بعد الظهر ، وقال لوانج لنج : والآن سأحضر زوجتى ، وابنى ، فنى هذا البيت العظيم لن نفتقد طعاما نأكله أو ملابس بسيطه نرتديها . .

ولم يستطع وانج أن يقول شيئا سوى أن يرد عليه بنظرات عابسة ؛

ذلك أنه شعر أنه من المخجل له وهو الرجل الذى يملك الكثير ، ويقتصد الوفير أن يطرد عمه وابن عمه من بيته ، إلا أنه كان فى الواقع حانقاً أشد الحنق لأنه كان من الواجب عليه أن يخفى غضبه وغيظه ، وأن يرحب بأقاربه بالابتسامات ، وظل ثلاثة أيام لا يذهب إلى المدينة . .

وعندما رأى أن عمه وأسرته سيسلكون طريق الأدب فى سبيل الحصول على طعامهم وإقامتهم فى بيته ، عادت أفكاره تتركز حول فتاته لوتس : وأدركت زوجة عمه فى الحال ما كان من أمر وانج لنج فصرخت ضاحكة : إن وانج لنج يبحث عن زهرة يقتطفها فى مكان ما . . وعندما نظرت إليها أولان فى انكسار وهى لا تفهم مرماها ، ضحكت المرأة مرة أخرى وقالت : حسنا فسأقول بوضوح إذن أن زوجك قد جن بامرأة أخرى . .

وهذا ما سمعه وانج لنج من زوجة عمه تقوله ذات صباح وهو راقد فى فراشه وطرأت له فكرة فى أن يعهد إليها فى ترتيب زواجه ، فنهض فى الحال من فراشه ونادى خلسة على زوجة عمه ، وعندما تبعته إلى خارج الباب حيث لا يمكن لأحد أن يسمع حديثهما قال لها : لقد أصغيت إلى ما قلته فى الفناء وأنت على صواب ، لماذا لا ينبغى أن أتزوج ما دمت أملك أرضا تكفى لإطعامنا جميعا؟ ولكن من سيكون الوسيط لى فى هذا الزواج ؟

وأجابته على هذا السؤال فى الحال : فلتتركن هذا الأمر لى ، وأخبرنى فقط من تكون هذه المرأة . . .

فأجاب وانج لنج فى خجل : إنها المرأة التى تدعى لوتس ، وهى تعيش فى مشرب الشاى فى الطريق الرئيسى للمدينة . .

ففكرت هنيهة ثم قالت أخيراً :

إنى لا أعرف أحداً هناك . .

وحينئذ قص ما يعرفه عن كوكو التى كانت جارية فى بيت هوانج العظيم ، فضحكت وقالت له : تلك الجارية ! إن هذا فى الواقع أمر بسيط . . فإن تلك الجارية ستفعل أى شىء إذا أحست أن الفضة تملأ يدها . .

وعندما سمع وانج لنج هذا الكلام قال لها : الفضة إذن! الفضة والذهب! إنى لأضحى بكل شىء حتى بثمن أرضى . .

وبعد ذلك لم يذهب وانج لنج إلى المشرب العظيم حتى انتهى من تدبير هذا الأمر ، وكان على الدوام يهرع إلى زوجة عمه ليقدم لها المزيد من المال والأثواب الحريرية ، والطعـــام الشهى لتحمله إلى لوتس ، حتى صرخت فى وجهه تلك المرأة البدينة آخر الأمر وقالت له : هل أنا غبية ، أم هذه هى المرة الأولى التى أتمكن فيها من تدبير زواج بين رجل وخليلته ؟ دعنى وشأنى وسأقوم بالمهمة بمفردى . .

وأخيراً حدّث وانج لنج نفسه بأنه يلزمه قاعه أخرى لزوجتين فى بيته . . ولذلك بينما كان ينتظر زوجة عمه كى تنجز مهمته ، نادى على عماله ، وأمرهم أن يبنوا غرفة أخرى ملحقة بالبيت خلف الغرفة الوسطى . وأن يبنوا أيضاً ثلاث غرف حول الفناء ، إحداهما كبيرة وعلى جانبيها غرفتـان صغيرتان ، وانتزع العمال الطين من الحقول ،

وأعدوا الطوب وشيدوا الحيطان ، وبعث تابعيه إلى المدينة لشراء القرميد للسقف .

وعندما تم بناء الحيطان ، صنع الرجال أرضية من الحجر لغرف لوتس الثلاث . وأحضر وانج لنج قماشاً أحمر للستائر ، ومنضدة جديدة ، وكرسيين عليهما نقوش وصندوقاً أحمر مطلياً لامعا بغطاء ملىء بكعك بالسمسم والحلوى ووضعه على المائدة ، واشترى أيضاً سريراً منقوشاً وستائره المحلاة بالورد ؛ وكان خجلا لأن يخبر زوجته أولان شيئا عما اشتراه ، ولذلك جاءت زوجة عمه وأخذت تؤدى الأعمال النسائية التى يرتبك الرجل أشد الارتباك فى أدائها . . .

وتم إعداد كل شىء ، إلا أن مهمة الزواج لم تتم بعد ؛ ولذا استدعى وانج عاملا وحفر بركة صغيرة عمقها ثلاثة أقدام مربعة ، وأحاطها بالقرميد ، ثم ذهب إلى المدينة واشترى خمسة سمكات ذهبية ، واطلقها تسبح فى مائها . .

وفى أثناء هذا الوقت لم يخبر إنسانا بشىء عن نيته سوى أنه لم يكف عن توبيخ أطفاله على قذارتهم ، أو يعنف أولان لأنها لم تسوى شعرها منذ ثلاثة أيام ، وفى ذات صباح انفجرت أولان باكية ، وارتفع صوتها فى البكاء بشكل ملحوظ لم يعهده فيها من قبل . فقال لها بخشونة : ما ذا حدث أيتها المرأة ؟ ألا أستطيع أن أقول لك مشطى شعرك الطويل كذيل الحصان دون أن تحدثى كل هذه الضجة ؟

ولم ترد عليه إلا أنها قالت مرة بعد أخرى : متأوهة :

« لقد حملت لك أولاداً ـ لقد حملت لك أولاداً . . »

ولكنه لاذ بالصمت ، وعقد لسانه الخجل أمامها ولذا تركها وشأنها وحيدة . .

ومرت الأيام على هذا الحال حتى حان يوم قالت له زوجة عمه : لقد تم الأمر ؛ ولكن يجب أن تدفع مائة قطعة فضية ، كما وأن الفتاة تريد أقراطاً من الحجر الكريم الأخضر ، وخاتما من الذهب ، وفساتين من الحرير ، واثنى عشر حذاء ، ولحافين من الحرير لسريرها . .

وما أن سمع وانج جزءاً من كلامهما حتى هرع إلى الغرفة الداخلية ، وأحضر الفضة وقال مخاطبا زوجة عمه : خذى لنفسك عشر قطع من الفضة . .

فهمست فى أذنه همسة عالية قائلة : « لا . لن آخذ شيئا ؛ فنحن أسرة واحدة ، وإن ما أقوم به لهو من أجلك أنت » . وليس فى سبيل نيل الفضة . . ولكن وانج لنج رآها وهى تمد يدها ، فصب فيها فضة وفيرة ، وقد حسب أنه قد أنفقها فى وجهها الصحيح . . وهكذا اشترى كل ما هو رقيق عرفه أو سمع به ، ثم أخذ ينتظر . .

فى يوم مشرق من الشهر الثامن الذى هو نهاية الصيف ، جاءت إليه فتاته ـ لوتس ؛ ورآها وانج لنج من بعيد آتية ، ولم يدر ما ذا ينبغى أن يفعل ، بل إنه دلف سريعا إلى الغرفة التى كان ينام فيها كل هذه الأعوام وأغلق الباب ، وانتظر فى الظلام حتى سمع زوجة عمه تناديه لكى يخرج إليها . . ورأى كوكو وسمعها تقول : هيا يا زهرة اللوتس ، فهاك بيتك ، وهذا سيدك . !

وتهادت لوتس فى رشاقة من محفة جاءت عليها ، وأمسكت بيد كوكو ، وعندما مرت به أحنت رأسها وأسبلت جفنيها وهمست فى رقة وخفوت قائلة : أين غرفتى ؟ ثم تقدمت زوجة عمه ، وسارت الفتاة بينهما إلى الفناء

ثم إلى الغرف الجديدة التى بناها وانج لنج من أجلها ، وعندما دخلت أسدلت كوكو الستائر عليها . . .

وبعد قليل جاءت زوجة عمه تضحك ضحكا خفيفاً ، وقالت له : إنها ليست صغيرة السن كما يبدو عليها ، يابن أخى ؛ وإنى لأجرؤ على القول بأنها لولا أنها قد شارفت السن التى يكف فيها الرجال عن التطلع إلى امرأة لكان من المستحيل أن الأحجار الكريمة ، أو الذهب ، أو الحرير تغريها على الزواج من فلاح .

ولما رأت الغضب بادياً فى وجه وانج لنج . أضافت مسرعة ، ولكنها آية فى الجمال ، ولم أر امرأة أخرى تضارعها جمالا .

ولم تحضر أولان طوال هذا الوقت إلى البيت لأنها فى فجر ذلك اليوم كانت قد أخذت فأسها ، ونادت طفليها ، وأخذت معها طعاما بارداً ، وانصرفت إلى الحقل ولم تعد إلا ليلا ، ودخلت المطبخ ، وجهزت الطعام وأعدته على المائدة ، كما كانت تفعل دائما ، ثم نادت على الجد الشيخ ، وأطعمت الطفلة البلهاء المسكينة وأكلت قليلا مع الأطفال وبعد أن اطمأنت على نومهم جميعا ، اغتسلت ، وأخيراً دخلت غرفتها ونامت.

وظل وانج لنج يذهب يوما بعد يوم إلى غرفة لوتس حيث كانت تجلس متخاذلة متكاسلة ، ولم تخرج من غرفتها فى أيام الخريف الحارة وإنما كانت تظل راقدة حتى تأتى كوكو وتغسل لها بدنها ، لأن لوتس قد أصرت على أن كوكو يجب أن تبقى فى البيت كخادمة لها . .

وكانت ترقد الفتاة طوال النهار فى غرفتها المعتمة الرطبة تقضم الحلوى والفاكهة ، وتلبس الأثواب الحريرية الصيفية الخضراء ؛ وعند الغروب كانت تسير فى الفناء ، وتذهب إلى البركة وتطالع إلى السمكات الخمسة الحمراء ؛ وكان وانج لنج يقف محملقا فى لوتس ، تلك الأعجوبة التى اقتنصها ..

الفصل الحادى والعشرون

كان وانج لنج يتنبأ أن مجىء هذه الغادة - لوتس - وخادمتها كوكو سوف يحدث خلافا من أى لون ، ذلك أن وجود أكثر من أمرأة تحت سقف واحد يعكر الصفو والطمأنينة ، وعلى الرغم من أنه رأى من نظرات أولان العابسة ، وخشونة كوكو أن الأمر بينهما ليس على مايرام ، لم يعبأ لذلك مطلقاً أو يكترث به ، وأخيراً وجد شقاقاً بين أولان وكوكو فأدهشه هذا ، لانه كان يتوقع أن تكره أولان زوجته الجديدة لوتس ، ولكن حيث أنها كانت صامتة حيال لوتس ، فكان غضبها شديدا ، وحقدها دفيناً على كوكو .. وكان يبدو أن أولان كلما رأت كوكو كلما اشتد غضبها وكان غضباً عميقاً كئيبا لم ير وانج لنج له مثيلا فى حياة زوجته ، ولم يعرف أن مثل هذا النفور قد اضطرمت نيرانه فى نفسها وقالت له : ماذا تفعل هذه الجارية فى بيتى ؟

ولما رأى وانج لنج أنها تتوقع منه إجابة على سؤالها ، قال لها فى ضعف : وما يضيرك فى هذا ؟

وأغرورقت عينا أولان بدموع حارة ثم تناولت طرف (مريلتها) ومسحت دموعها وقالت : إنه لشىء مؤلم أن يحدث هذا فى بيتى ، وليس لأمى بيت أذهب اليه ..

ونظرت اليه فى رثاء وحزن بعينيها الصامتتين ، ثم انصرفت متسللة تحسس الباب لأن عينيها كانتا تفيضان بالدموع . وأخذ وانج لنج يراقبها وهى تنصرف ، وكان مسروراً بأن يبقى بمفرده ، لشعوره بخجله ، وقال لنفسه أن على أولان أن تتحمل وتصبر .. ولكن الأمر لم يقف بأولان عند هذا الحد ، فى الصباح كانت أولان قد سخنت ماء ، ولكن عندما

دخلت كوكو المطبخ لتأخذ ماء ساخناً لسيدتها ، وجدت القدر فارغا ؛ ولما حان الوقت لأن تغير أولان الماء فى القدر لاعداد عصيدة الصباح ولم يبق فى القدر ماء كاف للوتس ، ظلت أولان مستمرة فى طهيها ، وهى لاتنصت مطلقاً لشكوى كوكو .. وحينئذ ذهبت كوكو إلى وانج لنج وصرخت شاكية له من أولان، ولـكنها ردت ووجهها ينطق بنفور عميق ومقت شديد قائلة : « لست جارية للجوارى فى هذا البيت » . ولم يستطع وانج أن يكظم غيظه ، وهز أولان من كتفيها هزاً شـديداً وقال لها : « لاتـكونى كهذا حمقاء أشد الحمق .. إنه ليس للجارية ، ولـكن لسيدتها.

واحتملت أولان غلظته ونظرت اليه وقالت له فى بساطة : ألتلك التى أعطيتها اللؤلئتين اللتين كانتا ملـكا لى !

وتراخت يده ، وتبدد غضبه ، وأنصرف وشعور الخزى والخجل يملأه ، وقال مخاطباً كوكو : سنبنى فرناً آخر ، ومطبخاً آخر ، إن زوجتى الأولى لاتعرف شيئا من لذائذ الطعام التى يحتاج إليها الآخرون والتى تمتعين بها أنت ، وفى المطبخ الجديد سوف تطهين ماتشائين .

وهكذا أمر العمال أن يبنوا غرفة صغيرة وفرنا من الطين ، ثم اشترى قدراً آخر ممتازاً ؛ وهكذا ظن أن الأمور قد استقرت له فى البيت وأن نساءه قد هدأت وأستكانت .. ولـكن على الرغم من ذلك فأن هذا المطبخ الجديد ، أصبح مصدراً للقلق له ، ذلك أن كوكو كانت تذهب كل يوم إلى المدينة وتشترى كل أنواع الأطعمة الغالية التى لم يسمع عنها قبل ذلك إطـلاقا ، وكانت هذه الأطعمـة وتـكلفه نفقات لايود أن يدفعها ولـكن مع ذلك كان واثقاً كما حدثته كوكو أن ذلك الطعام لايكلف كثيراً ؛ وكان كـذلك يخشى أن يعترض فتغضب لوتس ؛

وهذا بالطبع أضعف قليلا من حبه لها .

ولم يكن هذا كل ما فى الأمر إذ نشأت من إعداد الطعام الفاخر مشكلة أخرى ! ذلك أن زوجة عمه التى كانت تحب الطعام الشهى الغالى ، كانت تنفرد بنفسها لتناول طعامها فى الغرفة الداخلية حيث تأكل على هواها وتلتهم كل مايحلو لها ، ولا شك أن هذا التصرف قد أغضب وانج لنج من لوتس التى اتخذت من هذه المرأة صديقة لها دون أهل البيت جميعا .

وعندما اشتكى لها فى رفق ، صارت محنقة متكدرة وقالت له : إنك تعلم الآن أنه ليس لى فى هذه الدنيا سواك ، وزوجتك الأولى تكرهنى وأطفالك يزعجوننى . أنت إذن لاتحبنى .. فلو كنت تحبنى لأردت لى الراحة والسعادة.

وخجل وانج لنج من حديثها وقال لها : « ليكن لك ماتشائين ، ولتسعدى إلى الأبد »

ومرت الأيام وكلما ذهب وانج لنج إلى غرفة لوتس كانت تجعله ينتظر طويلا حتى تنتهى من حديثها أو أكلها مع خادمتها ، وصارت تهمله ، ولاتهتم بأمره ، وأنطفأت حرارة حبه لها رويدا رويدا دون أن يتنبه لذلك .. بل إن حبه لها أصابته ثغرات أخذت تتسع ، وتزداد غوراً كلما نشبت بينهما لحظات من الغضب وازدادت حدة وجفاء ! لأنه لم يستطع حتى أن يبث شكواه لزوجته أولان . .

وزادت متاعب وانج لنج ، وصادفه كدر آخر مخيف إذا استيقظ والده يوما فجأة من نومه تحت أشعة الشمس ، وترنح فى مشيته حتى وصل إلى باب علقت عليه ستائر من الغرفة الكبرى والفناء الذى تتريض فيه

لوتس ، ولم يكن قد لحظ الجد ذلك الباب من قبل ، واقترب منه ، وأزاح الستار ، وتصادف فى ذلك الوقت من المســـاء أن وانج لنج كان يتنزه مع لوتس فى الفناء ، وقد وقفا بجوار البركة يشاهدان السمك ، فعندما رأى الشيخ إبنه واقفاً بجوار فتاة هيفاء ، صاح بصوته المرتعش قائلا : من هذه المخلوقة التى فى البيت ؟

نخشى وانج لنج أن تغضب لوتس فقاد الشيخ إلى الفناء الخارجى وهو يهدأه قائلا : ليهدأ بالك ياوالدى إنها زوجة ثانية لى تقيم فى البيت ..

ولـكن الشيخ أبى أن يسكت ، وصاح فى وجه وانج لنج قائلا : لقدكان لى زوجة واحدة ، وكان لأبى زوجة واحدة ، وكنا نفلح الأرض .

وسيطر على الشيخ من ذلك الوقت حقد مرير على لوتس ، وكان يقترب من ستائر غرفتها ويبصق على البلاط ، أو يقذف حجارة صغيرة فى البركة ليفزع السمك ، وكان وانج لنج يخجل أن يلوم أباه ، ومع ذلك كان يخشى غضب لوتس عليه .. وذات يوم سمع وانج لنج صرخات من الغرف الداخلية . فدلف إليها مسرعا حيث وجد طفليه التوأمين قد اقتادا أختهما الكبرى البلهاء ، وكان الأطفال الأربعة دائما مدفوعين بالفضول نحو السيدة التى تعيش فى الغرفة الداخلية بمفردها ، غير أن الولدين الكبيرين كانا يخجلان من الذهاب إليها ، أما الصغيران فكانا لا يكتفيان إلا بحملقتهما إلى السيدة ، ودس أصابعهما فى أوعية الطعام التى كانت تحملها كوكو بعد تناولها الطعام . وشكت لوتس عدة مرات لزوجها من أطفاله الذين أصبحوا مصدراً لمضايقتها وإزعاجها فكان يجيبها قائلا : حسناً .. إنهم يحبون أن ينظروا إلى وجه فاتن كما يفعل أبوهم تماما .

ولم يستطع أن يفعل شيئا سوى أن يمنعهم من الدخول إلى غرفتها

ولكن عندما لا يكون فى البيت كانوا يدخلون ويخرجون خلسة . .

وفى نفس ذلك اليوم كان الشقيقان الكبيران فى المدرسة ، فوجد الصغيران أن أختهم البلهاء لا بد وأن ترى السيدة فى جناحها الخاص ، وعندما جذبت الفتاة بالأثواب الزاهية التى كانت لوتس ترتديها ، مدت يدها لتحسسها وهى تقهقه عاليا من فرط السرور ، فأرتاعت لوتس ، وتملكها الخوف لأنها لم تكن قد رأت الطفلة وهى تدخل الغرفة ، وصرخت بأعلى صوتها ، فهرع إليها زوجها وانج ، وقابلته بالعويل قائلة : لو أخبرنى أحد قبل الزواج منك بأنه سيكون من الضرورى أن أتحمل حمتى ملاعين ، لو كنت أعلم ذلك ، ماجئت إلى بيتك ، فما أقذر أطفالك !

فرد عليها وانج بخشونة : إنى لا أقبل أن يسب أطفالى . ولا حتى طفلتى البلهاء . . . ثم خاطب أطفاله قائلا :

هيا أخرجا من هنا يابنى ويابنيتى ، ولا تعودا مرة أخرى إلى غرفة هذه السيدة ، فهى لا تحبكما ، ولا تحب أباكم أيضاً . .

ولقد غضب وانج أشد الغضب على زوجته التى جرؤت على أن تسب طفلته المسكينة وعلى أن تسميها بالبلهاء ، وظل يومان لا يقترب من غرفتها أو يحدثها ، ولكنه بانقضاء هذين اليومين تخاطبا ثانياً ، ولم يتعاتبا على أنهما لم يلتقيا خلال هذه المدة ، وأخذت يده وقربتها من وجهه ، بيد أنه قد عاد إلى حبها مرة أخرى وإن لم يكن بنفس الدرجة التى أحبها بها من قبل . .

وحان يوم بعد انتهاء الصيف ، وهبت رياح الخريف الصافية بقوة على الأرض ونهض وانج لنج كن صحا من نوم فذهب إلى

باب بيته ورأى أن الماء قد انحسر عن الأرض ، وبدت لامعة والرياح الباردة الجافة تهب فوقها ، وأشعة الشمس القوية تسطع عليها . . وسرى فى كيانه حب لأرضه أعمق من أى حب آخر ؛ ومزق الثوب الحريرى الجميل الذى كان يرتديه ، وشمر سراويله إلى ركبتيه وصاح قائلا : أين الفأس ؟ أين المحراث ؟ وأين البذور لزراعة القمح ؟ تعال يا تشنج ياصديقى . . . ناد الرجال ، . . سأخرج معكم إلى الأرض ! . .

الفصل الثانى والعشرون

التأمت جراح قلب وانج لنج عند عودته من المدينة الجنوبية إلى بيته كذلك شفى من مرض الحب بأرض حقوله الطيبة السمراء، وصار يأمر عماله بأن يعملوا هنا وهناك، حتى أنجزوا يوما حافلا بالعمل الجبار، وهو واقف أولا وراء الثيران، ثم نادى على تشنج وأعطاه المقود، وتناول بنفسه فأسا، وأخذ يقلب به التربة. وكان يفعل ذلك لمجرد شعوره بالسرور وهو يشتغل، وليس بدافع الضرورة أو الحاجة إلى العمل. ولما شعر أنه منهك القوى، رقد ممدداً على أرضه ونام . .

وحينما حل المساء عاد متمهلا إلى بيته منهك القوى، يشعر بالظفر فى نفسه، وجذب الستار الذى بباب الغرفة الداخلية فوجد لوتس تسير فى ثيابها الحريرية، ولما رأته صاحت جزعا من الطين العالق بملابسه وارتاعت واجفلت عندما أقترب منها، ولكنه ضحك وقال لها: ها أنت ترين أن زوجك ليس إلا مزارعا، وأنك لست إلا زوجة فلاح . . !

ولكنها صاحت محتدة محتجة: أنا لست زوجة مزارع، فكن كما شئت!

ثم ضحك ثانية، وخرج من لدنها فى خفة؛ ثم خيل إليه أنه غاب عن أرضه طويلا، وأنه وجد أشياء عديدة فجأة ينبغى أن يؤديها . . . وصار إذا عاد إلى بيته ظهراً أو مساء يأكل بشهية من الطعام الذى أعدته له أولان من الأرز والفول، وعيدان الثوم محشوة فى الخبز، وإذا صاحت لوتس محتجة على رائحة الثوم التى تفوح منه، كان يضحك ولا يبالى، بعد أن شفى من مرض الحب.

وهكذا أحتلت كل من المرأتين مكانها فى بيته : لوتس دميته ، وأولان ساعده الأيمن فى العمل تلك الأم التى انجبت له البنين ، وأطعمته وأطعمت أباه ، وأطفاله .

وشعر لنج لنج بالزهو والخيلاء فى القرية عندما أخذ الرجال يتحدثون عن زوجته لوتس ، ويحسدونه عليها ، ويعاملونه باحترام من أجلها ، كفرد يعيش فى بيت عظيم . .

وانهمك وانج لنج فى أعمال عديدة ، خاصة وأن الأمطار قد هطلت فى موسمها ، ونبتت محاصيل القمح ، وأقبل الشتاء . فحمل وانج لنج محصوله إلى الأسواق لأنه كان قد أختزن الحبوب حتى أرتفعت أسعارها وفى هذه المرة أصطحب ابنه الأكبر معه إلى السوق . .

إن الإنسان ليحس بالكبرياء والفخر عندما يرى أبنه الأكبر يقرأ بصوت مرتفع الحروف على الورق ، ويضع الفرجون والحبر عليه يكتب ما يمكن أن يقرأه الآخرون ، وهذا الشعور بالفخر قد ملك على وانج لنج زمام نفسه ؛ ولم يتظاهر مطلقا بأنه أمر عادى مألوف فى أن يكون له يه ولد يقرأ ويكتب مثل ولده ، فوقف والفخر يزدهيه يتطلع إلى نجله ممسكا بيده الفرجون ليسطر ما يكتب . .

وبعد أن انتهى ولده من كتابة الحساب ، ووقع والده باسمه على عقد بيع الحبوب ، وإيصال الدفع ، سارا سويا راجعين إلى البيت . . الأب وإبنه ، وشعر الأب أن عليه واجباً نحو إبنه يؤديه ، ألا وهو أن يختار له زوجة ، وأن يخطبها له .

ولذلك كرس وانج لنج جهوده فى البحث عن فتاة لتكون زوجه لابنه ؛ ولم يكن هذا بالعمل السهل التافه ، فهو عازم على ألا يختار له أنثى عادية من طبقة العامة ، ولذلك أرهف أذنيه هنا وهنالك فى مشرب الشاى لكل ما يقال عن الفتيات أو الرجال الأثرياء ، الذين لديهم بنات على أهبة الزواج .

أهلت بواكير الربيع ، وبدأت الخضرة تسرى فى أشجار الصفصاف واكتست براعم أشجار التفاح بلون قرمزى أحمر، وطال الوقت ولم يجد وانج لنج الفتاة التى سَعى فى البحث عنها لولده .

أتى الربيع بأيامه الدافئة معطرة بأزهار الخوخ والكرز ، وقد تحول فجأة الابن الأكبر لوانج لنج من طور الطفولة إلى عهد الشباب ، فصار متقلب المزاج ، حاد الطبع لا يعجبه من الاطعمة هذا أو ذاك وأصبح برما بكتبه ، ينفجر باكيا إذا غضب والده ويخرج مسرعا من غرفته . وعلاوة على ذلك كان يضيق بأستاذه ولا يذهب لمدرسته إلا إذا صاح فى وجهه وانج لنج أو ضربه وكان أحيانا يقضى أياما بأكملها متسكعا فى شوارع المدينة .

وفى النهاية عند ما كان يغضب وانج لنج يضرب ابنه حتى تسمع أولان الضرب فتندفع مسرعة من المطبخ وتقف بين الوالد وابنه . وعندما ضربه ذات مرة وانصرف الصبي وقفت أولان أمام زوجها فأدرك ما تود قوله — لهذا قال :

تكلمى — ماذا تريدين يا أم أبنائى ؟ .

فقالت: إنه من العبث أن تضرب الصبى كما تفعل فقد رأيت هذا الشيء يصيب أبناء السادة فى قصورهم فكان سيد الأسرة يعالج الموقف بأن يزوج أبناءه...

فأجابها وانج لنج قائلا: الامر لا يحتاج الآن لذلك فعندما كنت صبيا لم أكن معتاداً هذا البكاء ، وهذا المزاج المتقلب ..

فأجابته أولان ببطء :

لم أر ذلك يحدث إلا بين السادة الشبان . فإنك تعمل فى الحقول ، ولكن ابنك شبيه بأبناء السادة الشباب ، وهو لذلك عاطل بالمنزل .

دهش وانج لنج . وعندما فكر قليلا رأى الحقيقة فى قولها . وفى قرارة نفسه شعر بالفخر بأن له إبنا من هذا الطراز وقال لزوجته :

حسنا ـ وإذا كان ابنى شبيها بسيد شاب ، فهذا موضوع آخر ، فإننى سأزوجه وسنبكر بزواجه ، وهذا مايجب عمله .

ونهض بعد ذلك ، ودخل الفناء الداخلى .

الفصل الثالث والعشرون

أدركت لوتس أن أشياء قد صرفت وانج لنج عن التفكير في جمالها وفتنتها ؛ فقالت له يوما وقد تجهم وجهها :

لوكنت أعلم أنك بعد عام قصير سوف تلقي على نظرة سريعة ولا تراني دواماً ما كنت تزوجتك - وأشاحت برأسها بعيداً وأخذت تنظر إليه من زاوية عينيها ، فأثار ذلك ضحكة ، وأجابها قائلا : حسنا إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر دائما في الجوهرة التي ثبتها في معطفه ، ولكنها ، لو فقدت منه فانه لا يطيق الصبر على فقدانها ، وإني لأفكر في هذه الأيام في ولدي ، الذي يجب على أن أزوجه ، ولست أدري كيف أجد الفتاة الجديرة به . .

منذ أن أصبح الابن البكر لوانج لنج فارع الطويل ، ممشوق القوام ، مكتمل الرجولة المبكرة ، أخذت لوتس تخصه بالحظوة والإيثار ، وأجابت زوجها قائلة :-

أعرف رجلا ، كان يتحدث كثيراً عن ابنته ، وقال عنها أنها صغيرة فاتنة مثلي ، ولكنها مازلت طفلة . .

فسألها وانج لنج : من يكون هذا الرجل ؟ وما هو عمله ؟

فأجابته قائلة : لقد كان رجلا طيباً ، ولا أعرف ماذا يكون عمله على وجه الدقة ، ولكني سوف أسأل كوكو التي تعرف كل شيء عن الرجال وأموالهم . .

ثم أخذت تصفق بيديها فجرت إليها كوكو من المطبخ ، وسألتها

لوتس عن اسم ذلك الرجل ، وأجابتها على الفور : آه . . إن إسمه ليو ، تاجر الحبوب ، وسوقه كائن بشارع القنطرة الحجرية .

وقبل أن تنهى كلماتها ضرب وانج لنج كفيه بعضهما فى بعض فى سرور وقال :

إنه فى المكان الذى أبيع فيه حبوبى ، وإنه لأمر رائع ، ويمكن حقا إنجازه ... ولقد بدا لوانج لنج أنه من حسن الحظ أن يتزوج ولده من ابنة التاجر الذى اشترى منه الحبوب . .

وكان من عادة كوكو إذا ما كلفت بعمل تؤديه ، أن تشمم رائحة المال فيه كما يتشمم الفأر رائحة الدهن ولذلك قالت على الفور : - إنى على استعداد لأن أؤدى خدمة لسيدى . .

وكان وانج لنج متشككاً ، ولكن لوتس قالت فى إنشراح : كوكو سوف تذهب إلى ليو ؛ حتى إذا ما أدت مهمتها على مايرام ، فستأخذ أتعابها كوسيطة للزواج - ولكن وانج لانج قاطعها قائلا :

كلا .. فأنا لم أقرر شيئا بعد ، وينبغى أن أفكر فى الأمر ، وأتدبر الموضوع لعدة أيام ، وسأخبرك بما أستقر عليه رأى . .

وكاد وانج لنج ينتظر عدة أيام ليفكر فى الأمر على شتى وجوهه ما لم يأت أبنه الأكبر ذات يوم ساعة الفجر ووجهه ملتهب ، أحمر قان من إفراطه فى شرب الخمر فتعثر فى مشيته وسقط بلا وعى على الأرض . فارتاع لذلك وانج لنج ، ونادى على زوجته أولان ، وتعاونا سويا على رفع الصبى ، ثم أرقدته أولان على فراشه ، وهو يغط فى نوم عميق لايبدى حراكاً كجسد ميت . .

وذهب بعد ذلك وانج لنج إلى غرفة طفليه التوأمين، ونادى على ولده الأصغر قائلا : أين كان أخوك الأكبر ليلة أمس ؟ فسيطر الرعب على الصبي وانفجر يبكي ويتأوه، ثم قال لأبيه : لا أعرف أين كان، فيما عدا أنه قد خرج مع ابن عمك أو ابن عمنا . .

فتوجه وانج لنج إلى غرفة عمه يستشيط غضباً، ونسى أنه سوف يتحدث مع عمه وشقيق والده، وتذكر فقط أن هذا الرجل ليس إلا والد الفتى عاطل، نزق طائش قد أفسد ابنه الجميل الخلق، وصاح بأعلى صوته قائلا : لقد أويت فى بيتى وكراً من الأفاعى المتمردة، الناكرة للجميل؛ ولقد كافأتنى هذه الأفاعى بأن عضتنى . .

وكان عمه فى ذلك الوقت يتناول طعام الأفطار حيث لم يكن ليستيقظ قبل منتصف الظهر وخاطب وانج فى تكاسل : كيف حدث هذا الآن ؟

وحينئذ قص عليه وانج لنج ما كان قد حدث، ولما لم يجبه عمه على ذلك إلا بالضحك والسخرية ، قال له وانج لنج : هيا أخرج الآن من بيتى، أنت وأولادك فإنى لأفضل أن أقوض أركان البيت بالحريق على أن أدعك تقيم فيه !.

ورأى وانج لنج أن عمه لايعبأ به، ولا يكترث لما قاله، فتقدم إلى الامام، وخطا نحوه، ويده مرفوعة إلى أعلا ؛ وحينذاك التفت نحوه عمه وقال له :

اطردنى من بيتك إذا جرؤت على ذلك .. ثم فتح ردائه، وأظهر لوانج ما كان يخفيه بين طياته، وتحت بطانته .

فوقف وانج لنج مبهوتا، ساكناً لايريم، إذ أدرك فى الحال أنه قد رأى لحية مزيفة حمراء، وقطعـــة من القماش الأحمر .. وكانت هذه



اطردني من بيتك إذا جرؤت على ذلك . . !

الاشياء هى الشارات التى كانت تتخذها عصابة من اللصوص كانت تعيش فى المنطقة الشمالية الغربية ، وكم أحرقت هذه العصابة من بيوت ، وكم من فلاحين قيدتهم بالحبال على أبواب بيوتهم حيث كان يجدهم الناس على هذا الحال فى الصباح إما قد فقدوا عقولهم من الخوف والرعب ، وإما موتى لاحراك بهم فأخذ وانج لنج يحملق فيما قد رأى ، ثم استدار على عقبيه ، وأنصرف دون أن ينبس ببنت شفة ؛ وفى انصرافه سمع ضحكة عمه المكتومة وهو ينحنى ليتناول طعامه من وعاء الأرز .

وظل عمه يغدو ويروح كما كان يفعل من قبل ، ولم يجرؤ وانج لنج على أن يقول له شيئا سوى أن يبادله بعض الكلمات المؤدبة خشية أن يفعل به عمه مكروه ، وأدرك فجأة السبب الذى من أجـــله قد سرق رجال كثيرون . والسبب الذى من أجله لم يسرق مثلهم ، وأنه ظل طيلة هذا الوقت فى أمان واطمئنان ، وأنه سيظل هكذا مادام يطعم عمه وزوجه وابنته .. ولم يفاتح عمه مطلقا بعد ذلك فى أن يغادر البيت ، بل إنه أعطى فضة لزوجة عمه وأبنها .. وظل يراقب إبنه ، وفلذة كبده ، ولم يأذن له بمغادرة البيت بعد غروب الشمس ، على الرغم من أن إبنه كان يغضب لذلك ، ويقذف بنفسه هنا وهناك ، ويضرب إخوته الصغار بغير سبب ؛ وإنما كان مدفوعا إلى ذلك باستيائه ، ومزاجه المنحرف .

ومازاد الطين بلة ، كأن متاعبه السابقة لم تكفه هو أن كوكو جاءت من لدن تاجر الحبوب لتخبره أن الفتاة صغيرة وليست أهلا للزواج بعد ، ويجب أن تنتظر ثلاثة أعوام أخرى .

وسيطر على وانج لنج الرعب من ثلاثة أعوام أخرى عليه ان يتحمل

خلالها غضب ابنه وتكاسله وتعطله ، ولذلك صاح فى أولان تلك الليلة وهو يتناول طعامه قائلا : حسنا .. دعينا نخطب لأطفالنا الآخرين طالما نجد فى أنفسنا القدرة على ذلك ، فكلما تعجلنا كلما كان ذلك أفضل .. فإنى لا أطيق أن يحدث مثل هذا العذاب من جديد ثلاث مرات أخرى .

وفى صباح اليوم التالى ، مزق أثوابه الطويلة ، وخلع حذاءه وقذف بها بعيداً وعاد إلى سابق عهده وعاداته عند ما كان كان يجد شئونه المنزلية قد ثقلت عليه وتكاثرت ، فتناول فأسا ، وانصرف موليا وجهه شطر حقوله .

وظل يذهب إلى أرضه يوما بعد يوم ، وظل على هذا الحال أياما عديدة ، وكأنما شاء القدر أن يشفيه من همومه ، فبعث من الجنوب ذات يوم سحابة خفيفة صغيرة ، وراقبها رجال القرية مثله ، فسيطر الخوف على مشاعرهم ؛ لأن ما كان يخشونه هو الجراد الذى انطلق من الجنوب ليبتلع مازرعوه فى حقولهم ، وظلت أبصارهم معلقة بالسماء والهواء ، حتى هبت ريح فطوحت بشىء تحت أقدامهم ، ولما تبينوه وجدوه جرادة ميتة .

وعلى ذلك نسى وانج لنج كل ما كان يشغل باله ، واندفع وسط الفلاحين الذين سيطر عليهم الرعب ، وصاح فيهم قائلا :

إنه لفى سبيل أرضنا الطيبة سنكافح قلبا وقالباً هذه الأعداء التى أتت إلينا من السماء . !

ولكن الجراد ظل ينتشر فى الهواء ، ويتكاثف فوق الأرض .

ونادى وانج لنج على عماله ، ووقف تشنج صامتا مستعداً لتلبية أى أمر يجوار وانج ، وكان يحيط به فلاحون شبان آخرون ، أخذوا يشعلون النار ويضرمونها فى الحقول ، فأحرقوا عيدان القمح

التي كانت تقف شامخة ناضجة ، في انتظار من يحصـــدها ، ثم أخذوا يحفرون الخنادق المتسعة ، ويجرون فيها الماء المنساب من الآبار ، وظلوا يكافحون دون أن يذوقوا للنوم طعما .

وأحضرت لهم أولان طعاما ، كما أحضرت النسوة الطعام لأزواجهن وكان الرجال يأكلون وهم وقوف في الحقل آناء الليل وأطراف النهار .!

ثم ادلهمت صفحة السماء ، وانتشر في الجو دوى عميق ، أحدثتـــه أجنحة الجراد التي لا حصر لها ، وهي تتلاطم كالعباب بعضها في بعض .

وكان الجراد يسقط على الأرض ، ثم يطير على ذلك الحقل ثم يتركه بأكمله ، ثم يحط على حقل آخر ، ثم يتركه عاريا بلا زرع كما لو كان الوقت شتاء . . وخرج وانج لنج عن جادة الصواب ، وتملكه غضب شديد ، فأخذ يضرب الأرض بلا هوادة ، ويطأه بحذائه ، وكان رجاله يحذون حذوه ، وأخذ الجراد يتساقط في ألسنة النيران المشتعلة ، ثم يطفو ميتا على صفحة المياه الجارية في الخنادق التي حفروها لهذا الغرض وهلكت ملايين من الجراد .

ولكنه لم يكن شيئا يذكر بجانب الجراد الذي لم يقض عليه بعد .!

وكان جزاء وانج لنج على كفاحه هو أن أفضل حقوله قد أنقذت ، كما تبقى له من القمح ما يمكن أن يجنيه ، وأنقذت كذلك أحواض أرزه الصغير ، ولذلك كله كان وانج راضيا قانعا . . ثم أكل بعد ذلك كثير من الناس الجراد بعد أن شووه . ولكن وانج لنج رفض أن يأكل مثلهم إذ كان يعتبره قذرا ملوثا لما أنزله من خسارة فادحة بأرضه .

ومهما يكن من أمر فإن حملة الجـــراد قد عادت على وانج لنج بهذه

بفائدة جمة إذ مكث سبعة أيام وهو لا يفكر فى شيء سوى أرضه . ولذلك أخذ يخاطب نفسه فى هدوء : حسنا . . إن لكل إنسان متاعبه !

ويجب أن أعيش صابراً على ما ألم بى من متاعب ، وإن عمى ليكبرنى فى السن ، وهو لا شك سيموت ؛ وستمر أعوام ثلاث بخيرها وشرها على ولدى . ولن أقتل نفسى من الهم .

وجنى قمحه وهطلت الأمطار ، وغمرت عيدان الأرز فى الحقول الفياضة بالماء ، ثم أقبل بعد ذلك الصيف .

الفصل الرابع والعشرون

فى ذات يوم على أثر عودة وانج لنج من الحقول ظهراً ، جاءه ولده الأكبر ، وقال له : أبتاه ، إذا أردت منى أن أصير عالما فإنه لم يبق لدى المعلم الشيخ فى المدينة مايمكنه أن يعلمه لى .

وكان وانج لنج فى تلك اللحظة قد غمس فوطة فى ماء ساخن فى آنية وأمسك بها وهى تبعث بخاراً أمام وجهه فقال له : حسنا .. وماذا تريد الآن ؟

وتردد الصبى لحظة ، ثم قال : حسنا .. إذا شئت أن أكون عالما ، فإنى أفضل أن أذهب إلى الجنوب فى المدينة ، والتحق بمدرسة كبيرة لأتعلم فيها مايجب أن يعلم .. فمسح وانج لنج وجهه بالفوطة الساخنة ، وأجاب بحدة: حسنا ، وما هذا الهراء الذى تقوله ؟ إنى أقول لك ،أنك لن تذهب ، فالعلم متوافر فى هذه الجهات .

ولكن الشاب ظل واقفاً فى مكانه ، وأخذ يحملق فى والده بكراهية ثم قال له : لن أمكث فى هذا البيت الأحمق ، الذى أراقب فيه كأنى طفل ، سأسافر وأتعلم شيئا ، وأرى جهات أخرى .

ونسى وانج لنج أنه كان فخوراً بأن إبنه كان متعلما يعرف الكتابة وأنه كان ماهراً فى قراءة الكتب وصاح فيه قائلا : اذهب الآن إلى الحقول ، وضع قليلا من الطين على جسمك ، حتى لايحسبك الناس إمرأة واشتغل قليلا فى مقابل الأرز الذى تأكله ..!

وظل الفتى واقفاً ينظر إلى أبيه فى كراهية ، ولكن وانج لنج لم يلتفت حتى يرى ماذا كان يفعله الصبى .

ومهما يكن من أمر فإن وانج لنج عندما دخل في تلك الليلة إلى الغرف الداخلية ، وجلس إلى جانب لوتس ، وهى راقدة على السرير وكوكو تروح عنها بمروحة قالت له لوتس فى تخاذل : إن إبنك الأكبر يريد الذهاب إلى الجنوب .

وحينئذ تذكر وانج لنج ما كان من حنقه على ولده، فأجابها في خشونة: وما شأنك بذلك ؟ إنى لا أرغب أن يأتى إلى هذه الغرف بعد أن وصل سن الشباب . .

فأسرعت لوتس تقول: كلا . . كلا . إن كوكو هى التى تقول ذلك . .

ففكر وانج لنج فى غضبه فقط على ابنه ، وقال :

كلا . . إنه لن يذهب . . لن أضيع مالى هباء . .

ولم يرغب فى أن يتحدث بعد ذلك فى هذا الموضوع .

وبعد ذلك مرت الأيام ولم يتحدث أحد خلالها فى هذا الأمر، وبدا على الشاب أنه قد أصبح فجأة راضياً ، ولكنه لم يشأ أن يذهب إلى المدرسة إطلاقا ، وسمح له بذلك وانج لنج .

وبعد أن عادت حياته إلى الهدوء ، وعاد إبنه إلى الرضا ، كان من الممكن أن يكون وانج لنج قرير العين ، لولا أنه ذات ليلة كان جالسا بمفرده ، وهو يحسب على أصابعه ما يمكنه أن يبيعه من حنطته وأرزه فاذا بأولان تأتى إلى غرفته فى هدوء . . وكانت أولان بمضى السنين قد نحف جسدها ، وأصبحت هزيلة ، وغارت عيناها ، حتى إذا ما سألها أحد عن صحتها فإنها لا تزيد عن قولها : أحس ألما كالنار فى أحشائى . . !

وكانت تنهض من نومها عند الفجر ، وتؤدى عملها ، وكان وانج لنج لا ينظر إليها إلا كما ينظر إلى مائدة أو كرسى فى البيت ، إلا أنها لم تقل

شيئا ، بل ظلت تؤدى عملها من طهى ، أو غسيل للملابس فى البرده حتى فى أيام الشتاء القارس ، عندما تكون المياه متجمدة كالثلج فى حاجة إلى التفتيت . .

ولم يخطر ببال وانج لنج أن يقول لها : لماذا لا تستأجرين بالفضة الفائضه عن الحاجة خادمة ، أو جارية .

نعم لم يخطر بباله أن الحاجة تدعو إلى ذلك ، مع أنه كان يستأجر عمالا لحقوله .

وفى ذلك المساء ، عندما كان جالسا بمفرده وقفت أمامه : وقالت له أخيراً :

أريد أن أقول لك شيئا . .

فحملق فيها بدهشة ، ثم أجابها قائلا :

حسنا . . قولى ما تشائين . .

وحينئذ قالت له فى همسة خشنة :

إن ابننا الأكبر يدخل كثيراً جداً إلى الغرف الداخلية يثرثر مع من فيها . . نعم إنه يذهب اليها عندما لا تكون أنت فى المنزل .

فحملق وانج لنج فى أولان .

ثم استطردت تقول : حسنا . . فتعال ياسيدى إلى البيت فى أوقات غير متوقعة .

ثم أردفت بعد صمت : إنه لمن الأفضل أن ترسله بعيـــداً . . إلى الجنوب ...

ثم انصرفت صامتة ، وتركته جالسا فى مكانه . وقال مخاطبا نفسه :

لا مراء فى أن هذه المرأة غيورة !

ثم تذكر كيف أن لوتس كانت تعلم برغبة ابنه فى أن يســافر الى الجنوب . .

فقال مخاطبا نفسه مرة أخرى : سأتبين هذا الأمر بنفسى !

ثم انصرف ليراقب رجاله كما كانت عادته فى أوقات الحصاد والزرع وأخيراً صاح بأعلى صوته عسى أن يسمعه أى فرد فى المنزل فيرد عليه :

إنى ذاهب الآن إلى قطعة الأرض بجوار الخندق ، ولن أعود إلا متأخراً .

وعندما سار إلى منتصف الطريق ، جلس وأخذ يفكر فى نفسه مرة بعد أخرى قائلا : هل أعود ؟

ثم راوده غضبه ، وعاد إلى بيته عن طريق آخر، ودلف إلى الداخل. ووقف يصغى بجوار الستارة التى كانت معلقة بالباب المؤدى إلى الغرفة الداخلية، وسمع صوت رجل يهمس ، فتبين له أنه صوت أبنه .

وامتلأ قلب وانج لنج بغضب شديد لم يعرف له مثيلا فى حياته قط فأطبق أسنانه ، وخرج ، وانتقى عوداً رفيعاً لينا من الخيزران ، وانتزعه من بين الأغصان ، ثم عاد أدراجه إلى داخل الغرفة حيث وجد ابنه واقفا فى الفناء يثرثر مع لوتس التى كانت جالسة على كرسى صغير بلا مسند على حافة البركة .

ولم يسمع كلاهما دخول وانج لنج أو اقترابه ، ولكن كوكو هرعت إلى الخارج فرأته واقفا ، فصرخت فنظروا نحوها فرأوه .

وتهاوى وانج لنج على ولده ، وظل يضربه حتى انهمر منه الدم . . وعندما صرخت لوتس . وأخذت تجذبه من يده ، ضربها كذلك . . ثم ألقى بعد ذلك بالعصا ، وهمس مخاطبا ولده وهو يلهث : هيا اذهب الى

غرفتك ، ولا تتهور فى الخروج منها حتى أتخلص منك ، وإلا قتلتك . .

ونهض الصبي دون أن ينطق بكلمة واحدة ، وانصرف .

وجلس وانج لنج على الكرسى الذى كانت جالسة عليـــــه لوتس ، وعاد إليه تنفسه فى لحظات طويلة ، ولم يقترب منه أحد وظل جالسا هكذا حتى هدأ وتلاشى غضبه .

ثم نهض فى مشقة ، وانصرف ، وعندما مر بغرفة إبنه نادى عليه دون أن يدخل إليه وقال: هيا ضع لوازمك فى صندوق واذهب من الغد إلى الجنوب إلى حيث تشاء ولا تعد إلى البيت حتى أبعث فى طلبك !

ثم سار فى طريقه حتى وصل إلى غرفة أولان ، فوجدها تحيك له بعض الأثواب .

فتبين له أنها إذا ماسمعت ضربا وعويلا ، فلا تبدى حراكا ، وظل يغدو ويروح فى حقوله تحت أشعة الظهيرة المحرقة شاعراً بتعب يوم كامل من العمل .

الفصل الخامس والعشرون

كان لوانج لنج يختلف تمام الإختلاف عن إبنه الأكبر كما يحدث عادة بين أخين يعيشان تحت سقف واحد ، وكان به من الصفات ماذكر وانج لنج بأبيه ، وقال وانج لنج عنه :

« إن هذا الصبي سيكون تاجراً ناجحاً ، ولن أبعث به بعد اليوم إلى المدرسة ، وسأحاول أن أجعله صبياً لأحد التجار فى سوق الحبوب .

ولذلك نادى على كوكو ذات يوم وقال لها : اذهبي إلى والد خطيبة إبنى الأكبر ، واخبريه أن عندى ما أقوله له .

فذهبت كوكو إلى التاجر ، وجاءت تقول :

إنه سيراك عند ماتشاء ، إذا تكرمت بالذهاب إليه لتشرب كأساً من النبيذ ظهر هذا اليوم ، أو إذا شئت فإنه على استعداد لأن يحضر إلى بيتك بنفسه .

ولذا اغتسل وانج لنج ، وارتدى ردائه الحريرى ، وخرج مخترقاً حقوله ، وذهب إلى شارع الكبارى ، كما أخبرته كوكو ، ووقف أمام بوابة حيث رأى بابين على يمين القنطرة ، حيث بيت التاجر ثم دق الباب بيده .

وفتحت له الباب خادمة ، وسألته عن شخصيته ، ولما أعطاها اسمه ، ظلت تحملق فيه ، ثم قادته إلى الجناح الذى يقيم فيه الرجال ، ثم ظلت تحملق فيه مرة أخرى ، لأنها كانت تعلم أنه والد خطيب السيدة الصغيرة ثم انصرفت لتنادى على سيدها ، ولما صار وحده فى الغرفة أخذ ينظر حوله ، ويتفحص بعينيه مايرى ، وسره أن كل مافى الغرفة كان يدل على

رخاء وإن لم ينبىء عن ثراء عظيم . . فهو لم يكن يريد لابنه الأكبر زوجة من أسرة غنية حتى لا تتكبر عليه ، وتتمرد ، وتلح فى طلب مالذ وطاب من الطعام ، وغالى الثياب فتصرف بذلك إبنه عن حب والديه .

وفجأة سمع صوت أقدام ثقيلة ، ودخل الغرفة رجل بدين طاعن فى السن ، ونهض وانج لنج ثم انحنى إحتراما ، ثم تبادلا الانحناء ، وأخذا ينظران بعضهما إلى بعض خلسة ، ويوقران بعضهما البعض ، لما يتحلى به كلاهما من وقار ورخاء ، ثم أخذا مجلسيهما ، يجرعان من الخمر المعتقة التى صبتها لهما الخادمة ، وجرى بينهما حديث ذو شجون ، وأخيراً قال وانج لنج :

لقد جئت بخصوص أمر ، وإذا لم يكن لديك رغبة فى أن نتحدث فيه ، فدعنا نخوض فى موضوعات أخرى : إذا كنت تحتاج إلى خادم لك فى سوق الحبوب ، فليكن ابنى الثانى خادماً ، وأنه لولد ذكى ، أما اذا لم تكن فى حاجة اليه ، فدعنا نتكلم فى أشياء أخرى .

فأجابه التاجر فى بشاشة ومرح كبيرين :

وهكذا تجدنى فى حاجة قصوى الى مثل هذا الشاب الذكى ، وياحبذا لو كان يقرأ ويكتب .

فأجابه وانج لنج فى ازدهاء : ان كلا الولدين متعلمان تعلما لا بأس به .

فقال له ليو : ان هـــذا ليدعو الى الاغتباط . . فدعه يأتى الى حينما يشاء .

ونهض بعد ذلك وانج لنج ، وقد انفرجت أساريره بشراً وحبوراً وقال مخاطبا صديقه : اننا الآن صديقان أفليس لديك ولد لأزوجه ابنتى ؟

وضحك التاجر ملء أعطافه ، إذ كان رجلا بدينا ، تبدو عليه آثار النعمة ، وقال له : عندى إبن ثان ، يبلغ من العمر عشرة أعوام ، ولم أخطب له بعد ، فكم عمر إبنتك ؟

وضحك وانج لنج مرة أخرى ، وقال له : ستبلـغ العاشرة فى عيد ميلادها القادم ، وإنها كالزهرة اليانعة نضارة وجمالا .

وضحك الرجلان سويا ، ولم يزد وانج لنج على ذلك شيئا ، إذ كان هذا الموضوع مما لايصح مناقشته سويا وجها لوجه بعد مادار بينهما من حديث . وانصرف من بيت التاجر مغتبطاً أشد اغتباط ، وعندما وصل بيته أخذ يتطلع إلى ابنته ، فألفاها طفلة فاتنة المحيا ، وقد ربطت أمها قدميها ربطاً محكماً حتى تبدو رشيقة فى خطوها .

ولـكن عند ما أمعن وانج لنج نظره فيها عن كثب ، رأى آثار الدموع فى خديها ، وكان وجهها يبدو شاحباً شحوباً ملحوظا ، تبتسم برزانة لاتتناسب مع سنها الصغير فجذبها اليه من يدها الصغيرة ، وقال لها . خبرينى لماذا كنت تبكين ؟

وتدلى رأسها إلى الأرض خجلا وقالت بما يشبه الهمس : أبـكى لأن أمى تربط قماشاً حول قدمى ربطاً شديداً كل يوم ولذلك لاأستطيع أن أنام ليلا .

فقال لها متعجباً : ، سمعتك تبكين .. فأجابته فى بساطه : كلا .. فإن أمى أمرتنى ألا أبـكى بصوت عال لأنك شفوق ، رقيق الفؤاد ، تتألم لألمى ، وقد تأمرها أن تتركنى وشأنى ، وحينئذ لن يحبنى زوجى ، مثلما تفعل معها ، أى لاتحبها .

وعندما سمع وانج لنج هذا الكلام ، أحس كأن خنجراً قد طعنه لان أولان قد أخبرت طفلتها أنه لايحبها ، وهى أمها . فقال لها على الفور: حسنا لقد سمعت اليوم عن زوج جميل لك وسنرى إذا كانت كوكو تستطيع أن تدبر هذا الموضوع .

فابتسمت الطفلة ، وأسقطت رأسها إلى الأرض ، وقال وانج لنج لكوكو فى تلك الأمسية : إذهبي ، وحاولى أن تتمى هذا الأمر .

ولكنه استيقظ فى تلك الليلة ، وبدأ يفكر فى أولان ، وكيف أنها كانت خادمة مخلصة له ، وقلب فكره فيما قالته له الطفلة ، وملأه الحزن ، لأنه على الرغم من غموضها فإن أولان أستطاعت أن تتغلغل فى أغوار نفسه ، فرأتها على حقيقتها .

ولأول مرة بعد عيشته الطويلة كل هذه الأعوام بدأ وانج لنج يفكر فى أولان ، وبدأ ينظر اليها فى حزن دفين ، ورأى أن جسمها قد بدأ هزيلا ، وأن جلدها قد أصبح متصلباً أصفر ولم يكن يفكر من قبل فى سبب رغبتها الشديدة فى الاستقرار دائما فى البيت لا تبارحه وسبب تجوالها فى البيت فى بطء شديد ولكنه بدأ يتذكر الآن - بعد أن ركز تفكيره فى زوجته أولان - أنها كانت فى بعض الأحيان تئن وتتوجع فى الصباح كلما استيقظت من نومها ، وكلما انحنت على الفرن تضع فيه الوقود ، وكلما نظر اليها ، وإلى الإنتفاخ الشديد فى جسمها كلما امتلأ قلبه بالحزن ، وأخذ يجادل نفسه ، قائلا : إنها ليست غلطتى إذا كنت لم أحبها

ثم يعود ليطمئن نفسه قائلا : إننى لم أضربها ، ولقد أعطيتها فضة كلما طلبتها منى .

بيد أن وانج لنج لم يستطع أن ينسى ما قالته له الطفلة ، وظل يطيل النظر إليها كلما أحضرت له الطعام وكلما جالت فى البيت ، وفى ذات مرة عندما انحنت لتكنس أرضية الغرفة المصنوعة من الطوب بعدأن تناولوا طعامهم ، لمح وجهها وقد استحال إلى لون رمادى أغبر ؛ وقد وخطه ألم ألم دفين ، ثم أخذت تلهث لهثات متتابعة بطيئة خافتة فسألها فى خشونة قائلا : ماذا بك ؟

ولكنها أشاحت بوجهها ، وأجابته بوداعة : إنه المرض القديم الذى أصابنى فى أحشائى !.

ثم ظل يحملق فيها ، ثم قال لفتاته الصغرى : خذى المكنسة من أمك واكنسى بدلا منها فهى مريضة .

ثم قال لأولان بعطف لم تعهده فيه منذ سنين : ارقدى فى سريرك ، وسآمر البنت أن تأتيك بماء ساخن .

فأطاعت وذهبت إلى سريرها صامتة ، وأخذت تئن أنات خافتة ؛ ثم جلس يستمع إلى أنينها حتى لم يعد يحتمل سماعه فقام وقصد إلى المدينة ليسأل عن طبيب . .

وكان الطبيب جالسا بلا عمل يحتسى كوب شاى ، ولما ذكر له وانج لنج أعراض المرض الذى تقاسى منه زوجته ، فتح درجا وأخرج لفافة من القماش الأسود وقال له : الآن أذهب معك .

ولما وصلا إلى البيت ، وجدا أولان قد غلبها النعاس ، وكانت حبات العرق كقطرات الندى تلمع فوق شفتها العليا وجبهتها ، وهز الطبيب رأسه عندما رآها ثم قال : إنها لحالة عصيبة ، فإذا أردت منى أن أعالجها

من غير أن أضمن الشفاء ، فسأعطيك وصفة من اعشاب ثم تغليها جميعا ثم تشرب منقوعها، ولكن إذا أردت لها شفاء تاما مضمونا ، فإنى أطالبك بخمسمائة قطعة فضية !.

وعندما سمعت أولان هذه الكلمات « خمسمائة قطعة فضية » استيقظت فجأة من نعاسها ، وقالت فى ضعف :

كلا إن حياتى لاتساوى كثيراً هكذا . . إن قطعة أرض كبيرة يمكن شراؤها بهذا المبلغ الكبير .

ولما سمعها وانج لنج تقول هذا ، عاوده حزنه القديم ، وأجابها فى وحشية : لا أريد موتا فى بيتى ، بل يمكننى دفع هذه الفضة .

وعندما سمعه الطبيب ، لمعت عيناه ، ولاحت فيها علامات الطمع الشديد ولكنه خاف عقوبة القـــانون إذا لم يف بوعده . وماتت المرأة ولذلك قال :

كلا . . إنى إذا نظرت إلى بياض عينها أرانى قد أخطأت ـ لابد لى من خمسة آلاف قطعة فضيه لأضمن لك شفاءها التام .

فنظر وانج لنج الى الطبيب فى صمت وحزن وأدرك ما يقصده ؛ انه لا يملك مثل هذا القدر من الفضة وكان يعلم انه حتى لو باع ارضه ، فلا فائدة ترجى من ذلك حيث ان الطبيب قد قال فى بساطة : (ان المراة ستموت)

وخرج مع الطبيب ، ودفع له عشر قطع فضية ، ولما ذهب دخل وانج لنج المطبخ المظلم الذى قضت اولان معظم وقتها فيه ، ثم ادار وجهه نحو الحائط الأسود واخذ يبكى . .

الفصل السادس والعشرون

بيد أنه لم يكن هناك موت مفاجىء لحياة أولان ؛ ففى كل أشهر الشتاء الطويلة كانت ترقد فوق فراشها ، تجود بروحها ، ولأول مرة ، أدرك وانج لنج وأبناؤه أنها كانت عماد حياتهم فى البيت ، وأنها كانت مصدر راحتهم جميعاً ولم يكونوا مقدرين لهذا . .

وبدا كأن أحداً لا يعرف الآن كيف يشعل الحطب ، ويبقى عليه مشتعلا داخل الفرن ، ولا أحد يعرف عما إذا كان زيت السمسم أو زيت القرطم يصلح لطهى هذا الخضار أو ذاك ، وكان الفتات ، وبقايا الطعام ، يتساقط ويظل أسفل المائدة من غير أن يكنسه أحد ، حتى يصيح وانج لنج ضجراً من رائحته ، فينادى كلباً من الفناء ليلعق هذا الطعام ويلتهمه ، أو يصيح على صغرى بناته لتقذف به إلى الخارج ..

وكان الصبى الأصغر يعمل هذا أو ذاك ليملأ فراغ أمه فى خدمة جده الذى أصبح عاجزاً عن أداء أى عمل بنفسه كالطفل الصغير ، ولم يستطع وانج لنج أن يجعل الشيخ يدرك ماحدث لزوجته أولان ، أو يفسر له لماذا لم تعد تحضر له الشاى ، والماء الساخن ، ولكن وانج لنج اقتاد والده إلى غرفة أولان وأراه إياها وهى راقدة على فراشها ، فبكى الشيخ لأنه أدرك إدراكاً طفيفاً أنها ليست على ما يرام ...

أما البنت البلهاء المسكينة فلم تكن لتدرك شيئاً إذ كانت تبتسم وتلوى قطعة من القماش فى نفس الوقت ، وكان لا بد لشخص ما أن يفكر

فى إحضارها إلى فراشها بالليل ، وليقوم بإطعامها وإجلاسها فى الشمس ، أو يقودها داخل المنزل إذا أمطرت السماء .

إن تذكر كل هذا كان أمراً مفروضاً على واحد من أفراد العائلة،ولكن وانج لنج نفسه كان ينسى واجبه نحو الفتاة ، ولقد حدث ذات مرة أن تركها الجميع بالخارج ليلة كاملة مما جعل وانج لنج يغضب على ولده وابنته لأنهما نسيا أختهما المسكينة البلهاء ، ولكنه أدرك أنهما لا زالا طفلين يحاولان أن يأخذا مكان أمهما ، وأنه ليس فى مقدورهما القيام بعملها .. وبعد هذا الحادث رأى وانج لنج أن يرعى ابنته المسكينة بنفسه ليلا ونهاراً ...

لم يلتفت مطلقا وانج لنج إلى العناية بأرضه فى خلال أشهر الشتاء الحالكة عندما كانت زوجته راقدة تعانى الموت فأحال جميع أعمال فصل الشتاء ، ومراقبة العمال إلى تشنج الذى كان يؤدى واجبه بأمانة ، وكان يحضر مساء وصباحاً إلى باب الغرفة التى ترقد بداخلها أولان مستفسراً عن صحتها ، وفى النهاية لم يستطع وانج لنج أن يتحمل مرض زوجته لأنها لم تتماثل للشفاء ، ولهذا طلب من تشنج . ألا يسأل عن صحتها أكثر من ذلك ، وأمره أن يقوم بعمله على الوجه الأكمل ، وهذا ما فيه الكفاية ..

وكان وانج لنج فى خلال فترة الشتاء المظلمة القارسة يجلس غالباً بجوار فراش زوجته فإذا وجد الجو بارداً أشعل الفحم فى مدفأة من الخزف لتدفأ ، وكانت فى كل مرة تتمتم بضعف قائلة :

حسنا . ولكن هذا يكلفك أكثر من اللازم . . وأخيرا عندما قالت ذلك يوما لم يبق فى قوس صبره منزع ، فانفجر قائلا :

هذا كلام لا يمكنني احتماله ! إنى لأرغب فى أن أبيع كل أرضى لو أمكنني شفائك بها ..

فابتسمت له وقالت هامسة : كلا .. لن أدعك تفعل ذلك لأنى حتما سأموت على أية حال .. ولكن الأرض تبق من بعدى ..

ولكنه لن يدعها تتكلم عن موتها ولذلك نهض وانصرف عندما بدأت تذكر الموت ، ومع هذا كان موقناً أنها ستموت ، ولذلك كان عليه ألا يغفل عن واجبه ، فتوجه يوماً إلى المدينة ، وذهب إلى صانع توابيت ، وأخذ يتفرس فى كل تابوت معد للشراء ، واختار تابوتا جيدا أسود من الخشب الثقيل الجامد .. ثم قال له النجار الذى كان بجواره ينتظره حتى يختار التابوت: إذا اشتريت اثنين معاً فان ذلك يكون أرخص بنسبة الثلث مما لو اشتريت إثنين مفردين.. ولماذا لاتشترى تابوتاً لنفسك أيضا فتطمئن على أنك قد أعددت لنفسك عدتها ؟

فأجابه وانج لنج : كلا ! سيقوم أولادى بهذه المهمة لى حين أموت!

ثم فكر فى والده العجوز فقال ثانية : ولكن هناك والدى العجوز وسيموت يوماً ما فى القريب ، ولهذا فسأشترى التابوتين..

ثم وعده الرجل أن يطلى التابوتين بدهان أسود جيد ، ويرسلهما إلى منزله وعند عودته أخبر أولان بما فعله فسرت لأنه قد أعد ما يلزم لموتها.. وكان غالبا مايجلس وانج لنج ساعات عديدة كل يوم ولا يبادلها سوى كلمات قصار نظرا لضعفها ، وبذلك لم يكن هناك بينهما ثمة حديث .. وغالبا ما كانت تفقد وعيها ، ولا تعرف أين تكون، وأحيانا أخرى كانت

تتمتم عن أيام طفولتها ، وبذلك عرف وانج لنج لأول مرة ما بقلبها من ثنايا الكلمات القصار هذه :

« سأحضر الأطعمة إلى الباب فقط وإنه لمن الخير أن أعرف أنني قبيحة المنظر ولا يمكنني الظهور أمام السيد العظيم . . . » ومرة ثانية قالت لاهثة : « لا تضربيني . لن آكل من الطبق مرة ثانية » وسمعها مرات تقول : حسنا أعرف إنني قبيحة المنظر ولا أحد يمكنه أن يحبني »

عندما قالت ذلك لم يستطع وانج لنج أن يتحمل هذا الكلام فأمسك بيدها .. ولكنه عندما أمسك بتلك اليد المتصلبة الميتة لم يكن يحبها من قلبه . ولهذا السبب كان أكثر عطفا وشفقة على زوجته وجلب لها طعاما خاصا ومهما كان من عمل يشغله فانه لم يستطع نسيان أولان ، وأحيانا كانت أولان تفيق من غيبوبتها وتتنبه لما حولها ، وقد طلبت كوكو ذات مرة وناداها وانج لنج ، ولما حضرت استندت أولان على ذراعها وهي ترتعش ، ثم قالت في وضوح تام : لقد عشت أنت في جناح السيد الكبير وكانوا يعدونك حسناء ولكن أنا كنت زوجة لرجل ، وقد ولدت له أولاداً ، وأنت لا تزالين جارية . . . وعندما أرادت كوكو أن ترد عليها بغضب قادها وانج لنج إلى الخارج قائلا لها :

إن هذه المريضة لا تعرف ما تقصد بكلامها الآن . .

وعندما رجع إلى الغرفة قالت له أولان :

بعد موتي لا تأتي هذه الجارية ولا سيدتها إلى غرفتي ولا يمسا شيئاً من حاجياتي . وإن فعلا ذلك فانني أعيد روحي ثانية حاملة معها اللعنة

ثم غرقت فى نومتها المتقطعة وقد سقطت رأسها على الوسادة .

ولكن بيوم واحد قبل انبثاق العام الجديد . تحسنت فجأة أولان وجلست على السرير وطلبت شايا تشربه . وعندما حضر وانج لنج قالت له :

الآن يقترب العام الجديد ولا يوجد كعك بالمنزل ولا أطعمة جاهزة ولقد فكرت فى شىء ما . فانى لا أريد أن تكون هذه الجارية بمطبخى ولكنني أرغب أن ترسل فى طلب عروس ابنى ، خطيبة الابن الأكبر فإننى لم أرها حتى الآن ، وعندما تحضر ، فأنا سأخبرها بما ينبغى أن تعمله ...

سر وانج لنج لأن زوجته استعادت قوتها على الرغم من أنه لم يحفل بأعياد هذا العام .

وأرسل كوكو إلى تاجر الحبوب ..ليو وبعد برهة من الوقت وافق ليو على هذا الطلب عندما علم أن أولان ربما لا تعيش طول فترة الشتاء وعلى كل حال فابنته لها من العمر ستة عشر ربيعا وهى أكبر من بعض زميلاتها اللائى يذهبن إلى بيوت أزواجهن .

ولكن بسبب حالة أولان لم تكن هناك مآدب وولائم ؛ فالصبية العذراء أتت بدون جلبة على محفة ، غير أن أمها وخادم عجوز حضرا معها ، وعادت أمها بعد أن تركت ابنتها مع أولان ولكن الخادمة مكثت لخدمة سيدتها الصبية .

لم يتكلم وانج لنج مع الفتاة العذراء لأن ذلك لم يكن من اللائق ولكنه كان مسروراً منها لأنها كانت تعرف واجبها ، وكانت تتحرك بهدوء داخل المنزل وعيناها مسبلتان ، وكانت على قدر من الجمال ولكنها

لم تكن جميلة جمالا فائقا يجلب لها الغرور ، وكانت سليمة فى كل سلوكها فكانت تذهب إلى حجرة أولان وترعاها ، وهذا ما أراح وانج لنج من آلامه نحو زوجته لأنه أصبح هناك سيدة بجوار فراشها ، كما أن أولان كانت راضية .

رضيت أولان لثلاثة أيام أو أكثر ، ثم فكرت فى شيء آخر وقالت لزوجها :

هناك شيء آخر قبل أن أموت . .

فأجابها وانج لنج غاضبا لهذا القول :

لا يمكن أن تكلمنى عن الموت وتجلبي لى السرور . . .

فابتسمت عندئذ برقةوأجابته :

لا بد من موتى لأنى أشعر بالموت فى أعضاء جسمى الداخليـــــة ، ولكننى لن أموت قبل أن يعود إبنى الأكبر إلى المنزل وقبل أن يتزوج هذه الصبية العذراء الفاتنة عروسه ، إنى أحب له أن يتزوج هذه الفتاة كى أموت راضية مرضية !

ولم يشأ وانج لنج معارضة زوجته ولو أنه رغب وقتا أطول استعداداً لزواج عظيم لابنه الأكبر .

ولكنه قال لها :

حسنا . لنلبي لك هـذا الطلب وسأرسل اليوم رجلا إلى الجنوب ليبحث عن نجـــلى ويأتى به إلى المنزل لنزوجه وأن عليك وعداً هو ألا تذكرى الموت وأن تجددى صحتك لأن المنزل بدونك صار كوكر للحيوانات . !

قال ذلك ليرفه عنها وقد سرها ذلك القول على الرغم من أنها لم تتكلم

مرة أخرى بل رقدت ثانية ،وأغمضت عينيها مبتسمة قليلا .

وأرسل وانج لنج رسولا ليحضر له ابنه وأمر كوكو أن تجهز مأدبة على أحسن طريقة يمكنها القيام بها مما دفعها أن تستدعى طباخين من حانوت الشاى بالمدينة لمساعدتها وقال لها :

جهزى المأدبة كما كانت تجهز بالمنزل الكبير فى مثل هذه المناسبات ولك فضة وفيرة

ثم ذهب إلى الغرفة ودعا كل من يعرف ثم توجه إلى المدينة وقام بدعوة جميع معارفه . وقال لعمه :

أدع من شئت بمناسبة زواج ابنى . .

كان وانج لنج ودوداً لعمه ويعامله كضيف عظيم وقد فعل ذلك منذ اللحظة التى عرف فيها عمه على حقيقته ،وفى الليلة السابقة لهذا الزواج جاء الإبن الأكبر لوانج لنج فنسى والده كل المشاكل التى سببها له ابنه الشاب عندما حضر إلى المنزل لأنه غاب عنه أكثر من عامين ولم يعد ابنه صبياً ولكنه أصبح رجلا فارع القوام وسيم المحيا ، وإقتاد إبنه إلى أمه .

جلس الشاب بجانب فراش أمه وقد تحجرت الدموع فى مقلتيه عندما رأى ما آلت إليه صحة أمه ، وقالت أولان فى بساطة :

يجب أن أراك تزف ثم أموت

كان على الصبية العذراء التى ستزف ألا يراها خطيبها الآن.فأخذتها لوتس إلى الفناء الداخلى استعداداً للزواج ولا أحد يمكنه أن يفعل أفضل مما تفعله. لوتس وكوكو وزوجة عم وانج لنج اللائى أخذن الصبية فى صباح يوم زفافها أشرفن على أستحمامها وتنظيف جسمها من أخمص قدميها إلى قمة رأسها وربطن قدميها من جديد بأقمشة جديدة بيضاء أسفل جواربها الجديدة .

ثم ألبسوها ملابسها الجديدة التى جلبتْها معها من منزلها ثم بعد ذلك لبست الملابس الحمراء المعدة للزواج والمصنوعة من الحرير (والساتان) الأحمر، ثم سوين جبينها ليكون لامعا مربعاً، ثم وضعن مسحوقاً أبيض وطلاء أحمر على وجهها، ثم وضعن على رأسها تاج العروس، وعلى وجهها قناعا ذا خرز، وألبسنها حذاء مزركشاً وصبغن أطراف أصابعها وعطرن كفيها، وكانت الفتاة مستسلمة لهن فى خفر مناسب لها ولسنها.

وحينذاك كان وانج لنج، وعمه، وأبوه والمدعون ينتظرون فى الغرفة الوسطى وحلت الفتاة بينهم تعتمد فى سيرها على جاريتها الخاصة وزوجة عم وانج لنج، منكسة رأسها إلى أسفل حياء كأنها لا تريد أن تتزوج؛ وسر لذلك وانج لنج، وأطمأنت نفسه على أنها عذراء توائم روح ابنه...

وجاء بعد ذلك الإبن الأكبر لوانج لنج مرتدياً ثوبه الأحمر، وحلته السوداء؛ وكان شعره لامعا. وذقنه محلوقا، وسار خلفه شقيقاه، وقال وانج لنج لنفسه لو أن زوجته قد صحت من نومها، وغادرت فراشها، وشاهدت أبنائها، لكان يوما مرحا سعيداً.

ورأى وانج أن ابنه الشاب يسترق النظرات إلى العذراء، فازداد مرحه وقال يخاطب نفسه فى ازدهاء. حسنا. لقد اخترت له واحدة يحبها لنفسه.

ثم انحنى الشاب والفتاة سويا للجد ثم لوانج لنج، ثم ذهبا إلى غرفة أولان حيث كانت راقدة فى سريرها، وكانت قد طلبت منهم أن يلبسوها ثوبها الأسود حين جاءا اليها، وذهبا تواً لديها، ثم انحنيا أمامها ثم ربتت بيدها على فراشها وقالت لهما:



. . . ثم وضعن على رأسها تاج العروس . . ٥

أجلسا هنا واشربا النبيـــذ ، وكلا من أرز الزفاف ، فإنى سأتمتع بمشاهدة زواجكما مادمت سأنتهى بعده وأحمل إلى مثواى .

ولم يجبها أحـد على قولها ، ولـكن جلس الإثنان بجوار بعضهما البعض ، وكلاهما فى خجل من صاحبه ، ولاذا بالصمت ، وجاءت زوجة عم وانج لنج بجسمها البدين ، وشخصيتها القوية ، تحمل وعائين من النبيذ الساخن ، فشرب كل منهما من كأسه ثم مزجا نبيذالوعائين ، ثم شرباه وأكل كلاهما من الأرز ، ثم خلطاه سويا. وهكذا تم زواجهما ، ثم انحنيا مرة أخرى لأولان ، ثم لوانج لنج ، وبعد ذلك انصرفا سويا وانحنيا لجميع الضيوف .

واكتظت الغرف بالموائد وفاحت فيها رائحـة الطعام ، ورنت فى جنباتها الضحكات ، لأن المدعوين كانوا لاحصر لهم ، جاءوا من كل فج عميق .

وكانت كوكو قد أحضرت الطهاة من المدينة ليعدوا الطعام للوليمة ، فأكل الجميـــع هنيئا ، وشربوا مريئا ، وقد سرى فى نفوسهم المرح والسرور .

وشاءت أولان أن تترك الأبواب مفتوحة ، والستائر مرفوعة ، حتى يمكنها أن تسمع الضجة والضحك ، وتشم رائحة الطعام ، وكلما جاءها وانج لنج يسألها عن صحتها ، قالت له أن كل شىء يسير على هواها ، وأنها قريرة النفس ، وهى راقدة تصغى إليهم .

ثم انتهت المأدبة ، وانصرف المدعوون ، وأرخى الليل سدوله ، وشمل أولان الضعف والإعياء ، ونادت على ولدها وعروسه اللذين تزوجا فى تلك الليـلة ، وخاطبتهما قائلة : إننى الآن راضية مسرورة ، وليفعل بى

مرضى مايفعل، فيابنى إعتن بوالدك وجدك ، وأنت يابنيتي إعتنى بزوجك ووالده وأبيه الشيخ ، وبابنتى البلهاء الجالسة فى الفناء ؛ فهذا هو واجبكما نحو هؤلاء ولا أحد سواهم .

وكانت تعنى بهذه الجملة الأخيرة لوتس ، التى لم تحادثها مطلقا ، ثم كأنما نسيتهم جميعا ، ورقدت تتمتم .

ثم صرفهم وانج لنج جميعا من غرفتها ، وجلس بجوارها ، وهى تنام حينا وتستيقظ حينا آخر . . وظل ينظر اليها وفتحت عينها وهى تنظر إليه ، واتسعت حدقتاها ، وأخذت تحملق فيه ، ولا ترفع عينها منه وكأنما تسأل نفسها فى دهشة من يكون ، وفجأة سقط رأسها على الوسادة المستديرة ، وفاضت روحها إلى بارئها !

وما أن رقدت ميتة ، حتى بدا على وانج لنج أنه لايستطيع أن يتحمل البقاء بجوارها ، ولكى يواسى نفسه ، انشغل بالذهاب إلى المدينة لينادى على رجال ليختموا التابوت ، ووجد أن اليوم الملائم لدفنها هو اليوم الأول بعد ثلاثة أشهر من موتها، ولذلك ذهب الى المعبد فى المدينة، وساوم رئيس الكهنة هنالك، واستأجر مكانا ليضع فيه التابوت حتى تمر الأشهر الثلاث لدفنها بعد ذلك . . ثم فرض وانج لنج مراسم الحداد على نفسه ، وأطفاله ، فجعلهم يرتدون أحذية من قماش أبيض خشن ، وهو اللون المناسب للحداد ، كما جعلهم يربطون حول رسغهم قطعا من القماش الأبيض ، وجعل النساء فى البيت يعقدن شعرهن بشريط أبيض !

وكأن شبح الموت قد خيم على البيت لايريد أن يفارقه ، فحدث ذات ليلة أن كان والد وانج لنج كان ممدداً فى فراشه أثناء نومه وعندما دخلت الابنة الثانية فى الصباح لتحمل له الشاى، وجدته ممدداً بلاحراك، ورأسه

ملقاة على الوسادة ، ولا حياة فيه .. فصرخت من هول مارأت،وجرت وهى تبكى وتولول إلى أبيها ، وهرع إليه ابنه وانج لنج،فوجد أباه ميتا ، وبعد ذلك غسل جسد أبيـه بنفسه ، وأرقده فى حنو وحنان فى تابوته الذى كان قد اشتراه له من قبل ، ثم ختمه وقال لنفسه :

سندفن الجثتين فى يوم واحد،وسنشيعهما إلىمرقدهما الأخيرسويا ، وسأختار قطعة أرض فوق التل حيثأواريهما التراب ، وعندما أموت سأدفن معهما كذلك ..

وهكذا أخذ ينفذ ،ما وعد به ، فبعـد أن ختم تابوت والده ، وضعه فوق دكتين بالغرفة الوسطى ، حيث ظل فى مكانه هذا إلى أن حان يوم الدفن .. وكان يوماً من أيام الربيـع ، واستدعى وانج لنج القساوسة من المعبد ، وظلوا يدقون الطبول ، ويرتلون الليل بأكمله رحمة بهذين اللذين ودعا الحياة .

وبعد أن انتهى رجال الدين من ترتيلهم ليلا . ارتدى وانجلنج رداء أبيض خشن ، وأعطى واحداً مثله لكل من عمه ، وابن عمه ، وولديه وزوجة ولده ، وابنتيه ،وطلب كراسى من المدينة لحلهم فوقها ، وهكذا ركبلأول مرة فى حياته على أكتاف الرجال وسار خلفه تابوت زوجته أولان ، وسار عمه أمام تابوت والده ، وحتى لوتس التى لم تكن لتظهر أمام أولان أثناء حياتها سارت الآن أمام تابوتها محمولة على كرسى حتى تبدو أمام الآخرين أنها قد أدت واجبها للزوجة الأولى لرجلها .

وشقوا طريقهم إلى المقابر وهم يبكون وينتحبون ، وكان العمال وتشنج قد سبقوهم وهم يرتدون أحذيتهم البيضاء ، ولم يستطع تشنج

أن يصرخ كما يفعل الآخرون ، ولم تتساقط الدموع من عينيه ، بل كان حزنه صامتا، ولما أهيل التراب فوق التابوتين ، وسوى سطح الرمسين ، انصرف فى صمت ، وأرسل الكرسى الذى وصل به إلى المقبرة ، وعاد أدراجه إلى بيته وحيداً كثيبا ، ومن خلال السكون والثبات المسيطرين عليه برزت له فكرة جلية : أنه كان يتمنى ألا يأخذ اللؤلؤتين من أولان بينما كانت جالسة تغسل ملابسه عند حافة البركة ، وألا يرى بعد ذلك لوتس وهى تحلى أذنيها بهما ..

وهكذا أخذ طريقه إلى البيت والهموم تثقل قلبه ، واستمر فى سيره وحيداً ، مخاطبا نفسه : هنالك يرقد نصف حياتى العزيزة ، بل النصف الأفضل والأنبل . .

ثم فجأة انهمرت دموعه فترة قصيرة ، ثم جفف عينيه بظهر يده ، كما يفعل طفل ...

الفصل السابع والعشرون

فى خلال تلك الفترة كلها كان وانج لنج لا يكاد يفكر فيما ستنتجه أرضه من غلة فقد كان منهمكا أشد انهماك فى ولائم الزفاف، ثم فى مراسيم دفن زوجته ووالده، إلا أن تشنج جاءه يوما وقال له: الآن وقد انقضت الأفراح والأتراح، عندى ما أقوله لك بخصوص الأرض . .

فأجابه وانج لنج : قل ما تريد . . فأنا لم أفكر فيما إذا كنت أمتلك أرضا أم لا فى تلك الأيام السالفة ، لم أفكر فى شىء سوى دفن موتاى ..

وصمت تشنج برهة احتراما لوانج لنج وهو يتحدث حديثه الحزين . ثم قال له فى رقة : نسأل الله أن يجنبنا المكروه ، فإن هذا العام يبدو فيه الفيضان مختلفا تمام الاختلاف عن كل عام مضى . فالماء يطغى على الأرض مع أن الصيف لم يحن بعد ، وما زال الوقت مبكراً جدا للفيضان .

وذهب وانج لنج إلى أرضه ، ورأى صدق ما قاله تشنج ، وكانت مساحات الأرض المجاورة للخندق مبللة كما لو كان الماء ينبثق من باطنها حتى استحال القمح الذى على سطح الأرض ذاويا أصفر .

كان الخندق يبدو كالبحيرة ، والقنوات كأنها أنهـــار ، حتى أن الإنسان الساذج ليستطيع أن يتنبأ على الرغم من عدم هطول الأمطار ، أن الفيضان سيكون عاتيا عاليا ، وأخذ وانج لنج يجرى سريعا فى أنحاء أرضه ، وسار خلفه تشنج وهو ينظر إلى القنوات المترعة بالماء ، حتى حافة جسورها .

وحدث أن اجتاحت مياه النهر سداً إثر سد ، حتى لم يستطع أحد أن يحدد فى أى مكان كانت السدود قائمة فى ذلك الريف بأكمله وامتلأ النهر

بالماء وفاض ، ثم أخذ عبابه كالبحر يجتاح كل الأرض الزراعية الطينية ، وطفت المياه على سطح نبت القمح والأرز الصغير فبدا كأنهما غارقان فى قاع البحر .

وأخذت القرى الواحدة تلو الأخرى تتحول إلى جزر ، وأخذ الرجال يراقبون المياه وهى تعلو وترتفع ، وعندما أوشكت على أن تصل إلى أبواب بيوتهم بمقدار قدمين ، ربطوا مناضدهم وأسرتهم سويا ووضعوا أبواب بيوتهم فوقها لتكون كعوامات ، وكدسوا ما استطاعوا من فراشهم وملابسهم ونسائهم وأطفالهم فوق هذه العوامات ، وطفت المياه عل البيوت المبنية من الطين فيبست حيطانها . وتشققت وانفرجت وذابت فى الماء، وهكذا أصبحت هذه البيوت أثراً بعد عين .

وجلس وانج لنج أمام باب بيته ، وأخذ يتطلع إلى المياه التى مازالت بعيدة عن بيته الذى كان مشيداً على ربوة عالية متسعة ، بيد أنه رأى هذه المياه وقد غطت أرضه ، وأخذ قلبه يرتجف وهو يراقبها خشية أن تغرق القبور الحديثة الصنع ، إلا أنها لم تصبها بسوء بعد ، على الرغم من أن الأمواج الصفراء كانت تمتد حول الموتى فى نهم .

وكان ذلك العام خاليا من المحاصيل من أى نوع . وكان النـــاس يتضورون جوعا فى كل مكان وقد استبد بهم الغضب لما لحقهم من جديد فذهب بعضهم جنوبا ، أما هؤلاء الشجعان الذين ملأهم الغضب ، والذين لايعبأون بشىء لما يفعلون ، انضموا إلى عصابات من اللصوص المنتشرة فى كل مكان فى أرجاء الريف .

وأدرك وانج لنج أن مجاعة لم ير لها مثيلا سوف تجتاح الأرض حيث أن المطر لم يسقط فى ميعاده لزرع القمح لفصل الشتاء ولذلك لن تجود الأرض بالمحصول للعام القادم .

ولم يرض وانج لنج أن يبيع أو يشترى شيئا بعد حلول الشتاء إلا أمر به واحتفظ بكل شيء فى حوزته فى رعاية وعناية . . وكان كل يوم يعطى زوجة ابنه مايلزم من طعام لبيته ولتشنج ما ينبغى أن يحصل عليه عماله ، على الرغم من أنه كان يتألم لأن يعطى رجالا عاطلين ، وحينما حل فصل الشتاء القارس وتجمدت المياه . أمر رجاله أن يذهبوا إلى الجنوب ليستجدوا ما يسد رمقهم ، أو يعملون حتى يمكنهم العودة اليه فى الربيع . وكان يعطى لوتس فقط السكر والزيت سراً لأنها لم تتعود على حيــــاة الشظف والخشونه .

ولم يكن وانج فقيراً ؛ وإن تظاهر بالفقر ، فإنه كان يكتنز فضـــــة مخبوءة لديه ، وبعض الذهب قد أخبأه فى قدر دفنها تحت أرض أقرب حقوله بجوار سفح البركة ، وكان قد اختزن حبوبا من العام الماضى لم يبعها فى السوق ، وعلى ذلك لم يهدده شبح الموت جوعا فى بيته.

وكان الناس حولهم يموتون جوعا ، وتذكر صرخات الجائعين أمام بوابة البيت العظيم حينما مر بها يوما ، وكان يعلم أن هناك كثير من الناس يـكرهونه أشد الـكراهية ، لأنه كان لايزال يجد له طعاما له ولأولاده. ولذلك ظلت أبواب بيته مغلقة .

ومع ذلك كان يدرك تمام الإدراك أنه لن يكون فى مأمن فى أوقات قد انتشرت فيها اللصوص ما لم يعتمد على عمه الذى أنقذه من شرهم . ولذلك كان مهذبا فى معاملة عمه وزوجته وابنه ، وبقى الثلاثة فى بيته يكرم وفادتهم كأنهم ضيوف .

ومع أن وانج لنج قد أدرك أن عمه قد كبر وأصبح كسولا مهملا يضـــيره أن يشكو إذا ما ترك وحيداً فإن ابن عمه الشاب وأمه

كانا يزعجانه إذ سمعهما يوما وهو واقف عند الباب يقولان لعمه العجوز: حسناً . . إنه يمتلك المال والطعام ، فدعنا نسأله أن يأتينا فضـــة . . ثم استطردت المرأة تقول : إننا لن نحصل على منال عزيز كهذا لأنه يعرف لولاك وأنت عمه ، لسرق ولترك بيته خاوى الوفاض حيث أنك تأتى فى المركز التالى بعد رئيس عصابة اللحى الحمراء .

وكان وانج لنج واقفا يسترق السمع خلسة، فعندما سمع كلامها تملكه الغضب حتى كاد ينفجر غيظا ، إلا أنه لاذ بالصمت حتى يدبر ما يستطيع أن يفعله حيال هؤلاء الأفراد الثلاث ، إلا أن تفكيره لم يهده إلى شيء وفى اليوم التالى جاءه عمه من أجل الفضة ، وقبل أن ينقضى يومان ، جاءه مرة ثانية ، وثالثة ، يطلب فضة ، وصرخ فيه وانج لنج أخيراً قائلا : حسنا أترانا سنعانى مرارة الجوع مرة أخرى ؟..

فضحك عمه ، وقال له فى اهمال : إنك لسعيد الطالع ، فهنالك رجال أقل منك ثراء قد علقوا بعروق سقوفهم المحترقة .

ولما سمع وانج لنج ذلك ، تصبب العرق البارد من جبينه ، وأعطى عمه الفضة دون أن ينبث ببنت شفة، وهكذا على الرغم من أن أياما كانت تمر عليهم دون أن يأكلوا لحما فإن هؤلاء الثلاثة كان يجب أن يقدم لهم اللحم ومع أن وانج لنج كان قلما يدخن التبغ ، فإن عمه كان ينفث دخان غليونه بلا انقطاع..!!

ومنذ أن تزوج ابن وانج لنج الأكبر ، كان قلما يرى ما يحدث حوله ، وكان يجعل زوجته تختفى عن الأنظار غيرة من نظرات ابن عمه وهكذا أصبحا عدوين بدلا من صديقين وكان وانج لنج نادراً ما يسمح لزوجته أن تتحرك من غرفتها إلا فى المساء ، عندما يخرج ابن عمه

مع أبيه وكان كلما رأى ثلاثتهم يفعلون ما يشاءون بأبيه . كان يغضب لذلك ، ويقول لأبيه : حسنا .. إذا عطفت على هؤلاء الثلاثة أكثر من عطفك على ابنك وزوجته ، أم أحفادك فإن هذا ليبدو غريبا، ومن الخير لنا أن نؤسس لنا بيتا فى مكان آخر ..

وكان وانج لنج يخبره فى بساطة مالم يخبر به أحدا سواه : إنى لأبغض ثلاثتهم أشد مما أبغض حياتى ، وإذا ماهدانى تفكيرى إلى حل ما ، فانى لاأتوانى عن أتخاذه،ولكن عمك رئيس عصابة من اللصوص المتوحشين، فاذا ما أطعمته ولاطفته ، شعرنا بالأمن.

وبعد أن سمع الإبن الأكبر كلام أبيه ظل يحملق فيه . ولكنه عندما فكر فى كلمات والده ، استبد به الغضب ، وانفجر قائلا : كيف تكون طريقتك هذه وسيلة للخلاص منهم ؟ دعنا نقذف بهم جميعا فى الماء ليلة . .

ولكن وانج لنج لا يرضى بالقتل سبيلا ولا يستطيعه ، على الرغم من أنه ليفضل قتل عمه على ذبح ثوره ، وهو مع ذلك لا يستطيع أن يقتل أحداً يكرهه وقال لابنه : كلا . حتى ولو كان فى استطاعتى أن أفعل ذلك، فلن أفعله لأنه لو علم اللصوص الآخرون بقتله ، فماذا ينبغى أن نفعل ؟ فما دام هذا الرجل حيا فنحن فى أمان .

وعندئذ سكت الإثنـــان ، وكلاهما مغرق فى تفكيره فيما ينبغى أن يفعله ؛ غير أن وانج لنج مالبث قليلا حتى صاح قائلا وهو لا يزال يسرح بفكره : لو وجدنا طريقة نستطيع بها أن نبقيهم فى بيتنا ، ونجعلهم لا يأذوننـــا ، فيالها من فكرة لو صحت ! ولكن لا يوجد سحر كهذا . !

وصاح الشاب قائلا : لقد هديتنى إلى ما ينبغى عمله ! دعنا نشترى لهم أفيونا وندعهم يستمتعون به ، أفيونا كثيراً حتى ندعهم يأخذون منه مايشاءون كما يفعل الأغنياء ..

ولكن وانج لنج الذى لم تصدر منه هذه الفكرة أولا ، ظل متشككا حيناً ..

فقال له فى بطء : إن هذا ليتكلف كثيراً ، فان الأفيون غال كالحجر الكريم ..

فجادله ابنه قائلا : حسنا ، إنه لأغلى لدينا وأعز من الحجر الكريم أن نتركهم ضدنا هكذا .. وأن نترك علاوة على ذلك ، ذلك الشاب يختلس النظر إلى زوجتى .

ولكن وانج لم يرض أن يبدى موافقته فى بادىء الأمر، لأنه لم يكن بالأمر السهل الذى يصح اتخاذه ، إذ يكلفه حقيبة مليئة بالفضة لينفذه ..

وكان من المشكوك فيه أن ثمة أمر قد يتخذ ، مالم يقع له حادث ، وهو أن ابن عم وانج لنج كان يغازل ابنة وانج لنج الثانية ، والتى كانت ابنة عمه ، وكشقيقته بصلة الدم

وكانت هذه الابنة رائعة الجمال ، فاتنة المحيا، وكانت بشرتها ناعمة . شاحبة كأزهار اللوز ، وكان أنفها دقيقا ، وشفتاها حمراوين دقيقتين ، وكانت قدماها صغيرتين .

وأمسك بها ابن عمها ذات ليلة وهى بمفردها فى الفناء آتية من المطبخ، فصرخت مستغيثة ، فجرى إليها وانج لنج وضرب الرجل على رأسه ؛ فضحك ضحكة غليظة ، ثم قال له : إن ما حدث ليس إلا لعب .. أليست أختا لى ؟ .

ولكن وانج لنج جذب الفتاة بعيداً ، وأرسلها إلى غرفتها . وأخبر وانج لنج ابنه تلك الليلة ما حدث ، وأجابه الشاب قائلا : يجب أن نرسل الفتاة إلى المدينة فى بيت خطيبها .

ولذلك ذهب وانج لنج فى اليوم التالى إلى المدينة ، إلى بيت التاجر ، حيث قال له :

إن ابنتى قد بلغت الثالثة عشر من عمرها ولم تعد طفلة ، وهى صالحة الآن للزواج . ولقد ماتت أمها ، وهى بنت رائعة الجمال ، وبيتى ملىء بهذا وذاك ، ولا أستطيع مراقبتها طول الوقت ، وحيث أنها ستكون فرداً فى أسرتك ، فدعها تمكث لديك .

وأجاب التاجر الشفوق قائلا :

حسنا . . دع الفتاة تأتى وسأتحدث مع زوجتى ، ويمكنها أن تحضر وتبقى فى أمان مع حماتها ، وبعد الحصاد التالى ، أو حوالى ذلك الوقت يمكنها أن تتزوج .

وعلى هذا استقر الأمر ، وسر خاطر وانج لنج ، وانصرف .

وفى طريقه إلى البوابة الكائنة فى السور حيث كان تشنج ينتظره فى قارب ، مر وانج لنج بحانوت لبيع الطباق والأفيون فدلف اليه ليبتاع لنفسه قطعا من التبغ ليضعها فى نرجيلته فى المساء ، وعندما أحضرها البائع على الميزان . قال وانج لنج له فى تردد : وما ثمن الأفيون ، إذا كان لديك منه ؟ فأجابه البائع : إن بيع الأفيون جهارا محرم قانونا ، ونحن نبيعه بهذه الطريقة ، فإذا شئت شراءه ، وكانت الفضة معك فإنه يوزن فى الغرفة خلفنا ، وثمن الأوقية منه قطعة واحدة من الفضة .

ولكن وانج لنج لم يتح لنفسه أن يفكر طويلا فيما يفعله ، بل إنه أجاب على الفور : سآخذ ستة أوقيات منه .

الفصل الثامن والعشرون

فى ذات يوم قال وانج لنج لعمه :

بما أنك شقيق والدى ، فهاك بعض الطباق الجيد .

فتناوله عمه منه فى نهم ، لأن رائحته كانت زكية ، واشترى غليونا وبدأ يدخن الأفيون ، وهو راقد طيلة النهار، وأخذ وانج لنج يحث عمه على تدخينه ، وكذلك زوجة عمه وابنها ، ولم يعبأ وانج لنج بالفضة التى دفعها ثمنا للافيون لأنها كانت تجلب له راحة البال . .

ولما انتهى الشتاء ، وبدأت المياه تنحسر عن الحقول ، استطاع وانج لنج أن يجوس خلال حقوله ، حدث ذات يوم أن ابنه الأكبر تبعه إلى هناك وقال له فى ازدهاء : سيكون لدينا قريبا فم جديد ، يحتاج إلى الطعام ، ألا وهو فم حفيدك !

وحينئذ مسح لنج يديه أحدهما بالأخرى منشرحا وقال : ما أطيبه من يوم !

وظل وانج لنج طيلة الربيع لا تفارقه فكرة الولادة المقبلة ، ولذا كانت الراحة تمازج قلبه .

ولما انتهى فصل الشتاء وأعقبه الصيف ، بدأ الناس الذين قد هاجروا ديارهم يعودون وقد خارت قواهم ، واستبد بهم القلق بعد الشتاء ، فكانوا فرحين لعودتهم على الرغم من أن بيوتهم التى تركوها قد استحالت الآن إلى طين أصفر ، ولكن يمكنهم أن يبنوا من هذا الطين بيوتا أخرى ، وهرع الكثيرون إلى وانج لنج ليقترضوا منه مالا ، وكان

الضمان الذى يطلبه منهم دائما هو الأرض وإذا لم يستطع بعضهم ان يقترض مالا ، كانوا يبيعون الأرض .

وكان هنالك بعض الناس الذين لم يرضوا أن يبعوا أرضهم فكانوا يبيعون بناتهم، وكان بعضهم يأتى إلى وانج لنج لهذا الغرض ، لأن الجميع كانوا يعرفون أنه ثرى وقوى قلبه يفيض بالرحمة والخير . .

واشترى وانج لنج خمساً من الجوارى ، اشتراهم جميعا فى يوم واحد لأنه كان رجلا ثريا ، يسمح له ثراؤه أن ينفذ كل مايستقر عليه رأيه . .

وبعد مرور عدة أيام ، جاءه يوما رجل يحمل فتاة صغيرة رقيقة تبلغ من العمر سبعة أعوام أو نحوها . يرغب فى بيعها، ولكن وانج لنج أجاب أولا أنه لن يشتريها لأنها صغيرة جداً وضعيفة جداً ، إلا أن لوتس رأتها فانعطف قلبها نحوها ، وقالت له : إننى أريد هذه الفتاة لنفسى لأنها جميلة . . .

فنظر وانج لنج إلى الطفلة ، فراعه منها عيناها الجميلتان الوجلتان ، ونحافتها فقال تارة ليدخل السرور على نفس لوتس وتارة أخرى ليرى الطفلة بعد ذلك وقد أطعمت وسمنت : حسنا . . . لنشتريها ، ما دامت هذه مشيئتك . وعلى ذلك : اشترى الطفلة بعشرين قطعة فضية ، وعاشت الطفلة عنده فى الغرف الداخليه ، وكانت تنام اسفل فراش لوتس . . .

لقد ظن وانج لنج أنه يستطيع أن يخلد إلى السلام فى بيته ، فلما أقبل الربيع ، وحان معه الوقت المناسب لزراعة الأرض ، كان وانج لنج يسير هنا وهنا لك ، ينظر إلى كل قطعة وحينما ذهب كان يأخذ معه أبنه الأصغر ، الذى سيتولى مهام الأرض بعده ولذلك كان يعده ويعلمه ،

وكان الصبي يسير منكس الرأس ، وكانت تبدو من عينيه نظرة عابسة ولم يكن أحد يعرف فيما كان يفكر . .

بيد أن السلام لم ينشر ربوعه على بيت وانج لنج ، وكان يعزى ذلك إلى إبن عمه ، وأبنه الأكبر .

فعندما عاد وانج لنج إلى بيته مع ابنه الأصغر ، ودخلا البيت سويا انتحى الابن الأكبر بأبيه جانباً ، وقال له : لن أقبل أن يظل ابن عمي مقيما في بيتنا بعد ذلك ، وهو لا يكف عن اختلاس النظر إلى زوجتي والتسكع في البيت ، ولا يرفع عينيه عن الجوارى . . إلا أن وانج لنج قال له : ألا أنتهى من كل هذه المتاعب في بيتي بين الذكور والاناث ؟ وبعدأن صمت برهة صاح قائلا . حسنا وماذا تريدنى أن أفعل؟ . .

فأجاب الشاب في ثبات:أتمنى لو أسطعنا إن نترك هذا البيت،ونذهب إلى المدينة ونعيش فيها ، ونترك عمي وزوجته ، وابنه هنا وبذلك يمكننا أن نعيش في أمان بالمدينة خلف البوابات .

فضحك وانج لنج بمرارة عندما قال له ابنه تلك الكلمات،وأجابه قائلا: هذا بيتي ويمكنك أن تعيش فيه ، أو تتركه . . .

ثم نهض ، وبصق على الأرض وسلك أمامه كما يسلك فلاح على الرغم من أنه كان يشعر بالفخر بابنه في قرارة نفسه . . إلا أن ابنه الأكبر لم يسلم بسهولة فتبع أباه وهو يقول حسنا . . فهنا لك بيت هوانج القديم الكبير ، والجناح الأمامي منه مكتظ بعامة الشعب ، ولكن الغرف الداخلية مغلقة وساكنة ، وتستطيع أن تستأجرها، ونعيش فيها في أمان.

ثم ترك لدموعه العنان فاغرورقت عيناه ، فتركها ولم يجففها ...

ولم يعرف إن كانت الدموع وحدها قد أثرت في وانج لنج ، ولكنه

تأثر فى الواقع من كلمات ابنه عند ما قال له : بيت هوانج العظيم .
لم ينس وانج لنج مطلقا أنه قد ذهب ذات مرة يتسلل إلى ذلك البيت الكبير ، وأنه قد وقف هنا لك شاعراً بالخجل من نفسه أمام هؤلاء الذين كانوا يسكنون فيه ؛ وقفزت فى رأسه فكرة يحملها هو « أستطيع أن أجلس على المقعد الذى كانت السيدة الكبيرة تجلس عليه . .

ولم يرد على ابنه ، ولكنه سبح فى أحلامه وفيما يستطيع أن يفعله إذا شاء الذهاب ؛ ولكنه بعد ذلك كان أشد استياءاً من تبطـــل ابن عمه ورأى حقيقة أنه كان ينظر نظرات مريبة ، وغمغم وانج لنج قائلا : الآن لاأستطيع أن أعيش مع هذا الكلب فى بيتى .

وأخذ ينظر إلى عمه ، وزوجته فأدرك أنهما قد رضيا كل الرضا بالأفيون، واستسلما للنعاس يداعب أجفانهما ؛ وأدرك كذلك أنهما أصبحا لايزعجانه كثيراً ، ذلك أن الأفيون قد أسدى لوانج لنج ما كان يتمناه من تأثير عليهما وعندما ذهب وانج لنج ذات يوم إلى المدينة ليرى ابنه الثانى فى سوق الحبوب ، سأله قائلا : حسنا يابنى ، مارأيك فيما يريده أخوك الاكبر ، أن تنتقل إلى المدينة فى البيت الكبير ، إذا أستطعنا أن نستأجر جزءاً منه ؟

ونما ابنه الثانى ، وأصبح شابا فتياً على الرغم من أنه كان ضئيل الجسم أصفر الجلد، ذاعينين ماكرتين ، فأجابه قائلا: إنها لفكرة ممتازة، وتناسبنى تماما ، وبذلك أستطيع أن أتزوج ، وأسكن مع زوجتى فى ذلك البيت ونعيش تحت سقف واحد كما تفعل الأسرة الكبيرة .

لم يكن وانج لنج قد فعل شيئا حيال زواج هذا الابن ، لأنه كان

لديه الكثير مما يشغله ويزعجه .. ومهما يكن من أمره الآن فإنه قال له : لقد حدثت نفسي طويلا أنه ينبغي أن أزوجك ، ولكنى شغلت عنك بهذا الأمر أو ذاك ، فلم يعد لدى وقت كاف للتفكير . ولكن سأعمل بلا شك على زواجك من الآن .

وعلى ذلك رد عليه ابنه : حسنا . سأتزوج إذاً ، وإن الزواج شيء جميل ، الرجل له الحق فى أن ينجب أولاداً . ولكنى لا أود أن تخطب لى فتاة من المدينة كما فعل أخى . انها ستتحدث على الدوام عما يوجد فى بيت أبيها ، وتضطرنى إلى إنفاق مالى ، وهذا سيكون داعيا لغضبي. وأستمع وانج لنج إلى ابنه فى دهشة ، لأنه لم يكن يعرف أن زوجة ابنه على هذا الحال ، فهو لم ير فيها سوى أنها كانت أمرأة سليمة فى سلوكها ولا غبار على مظهرها الذى كان يبدو آية فى الجمال . ولكن حديث ابنه بدا له صحيحاً ورأيه سديداً ، فنظر إلى الشاب ، فراعه منه حركاته المتددة الرزينة ، ونظرات عينيه المشوبة بالغموض،فقال له : أية فتاة تريدإذاً ؟

فأجابه الشاب على الفور كما لوكان قد دبر أموره من قبل : أرغب فى الزواج من فتاة تقيم فى القرية ، من أسرة تمتلك أرضا ، وليس لها أقارب فقراء .. فتاة تقدم صداقاً محترماً ، ليست بالقبيحة أو المليحة،أن تكون طاهية ماهرة أريد . . . أن اتزوج فتاة مثل هذه .

ودهش وانج لنج عندما سمع هذا الكلام ، وأعجب فى الوقت نفسه برجاحة عقل ابنه ، وقال له ضاحكا : حسنا .. سأبحث لك عن مثل هذه الفتاة ، بل ان تشنج سيبحث لك عنها فى القرى . . وانصرف وهو يضحك، واتخــــذ طريقه صوب البيت الكبير ، وحيث أنه لم

يجد أحداً يعترض سبيله ،دلف إلى البيت ، فوجد الغرف الأمامية ملآى بالعامة ، التي تكدست في غرف العظماء ، حينما رحل عنها عظماؤها.

ولو كان وانج لنج لايزال في أيامه السالفة ، لتخيل نفسه واحداً من هؤلاء الناس ، ولكنه الآن في خاصره يمتلك فضة وذهباً قد وضعهما في مخبأ أمين، لذا احتقر هؤلاء الدهماء ،بل كان شعوره ضدهم كالو كان ينتمى إلى أهل هذا البيت العظيم .

وعندمادخل الغرفة الداخلية،وجد إمرأة عجوز نائمة، وبينما كان يتطلع الهاسيح بفكره في السنوات الطويلة التي مرت منذ أن جاء إلى هذا البيت شاباً يحمل على ذراعه طفله الحديث الولادة .. ولأول مرة في حياته شعر وانج لنج ان العمر قد تقدم به .

فقال للمرأة العجوز ، وقد ران على وجهـــه الحزن : استيقظى ودعيني أدخل .

ونهضت المرأة وهي تطرف بعينهـــا ، وقالت له : لايمكن أن افتح الباب إلا لهؤلاء الذين قد يستأجرون الغرف الداخلية بأكملها .

وقال وانج لنج فجأة:حسناً، وأنا كذلك قداستأجر إذا اعجبني المكان.

ودلف وراءها ، وقد تذكر الطريق جيداً ، وكان الصمت يخيم على الغرف ، وتبعها الى البهو العظيم نفسه ، ورجعت به الذاكرة الى الوراء سنوات عديدة مضت عندما وقف هنالك ينتظر جاريةمن البيت ليتزوجها وسار الى الأمام وجلس حيث كانت السيدة الكبيرة تجلس في ثوبها الستان الفضي،وحينئذ أحس أن شعوراً بالرضى الذي طالما اشتاقت نفسه اليه قد بدأ يغمر قلبه ، ولذلك قال فجأة : «ان هذا البيت سيكون لى ...»

الفصل التاسع والعشرون

كان وانج لنج إذا ماقرر شيئا فى تلك الأيام ، لا يستطيع أن ينجزه فى الحال . لذلك أخبر ابنه الأكبر بأن يدبر الأمور لانتقـالهم إلى البيت الكبير ، وبعث إلى إبنـه الثانى أن يحضر لكى يساعد أخاه وعندما أعدوا أنفسهم لذلك، انتقلت ذات يوم كل من لوتس وكوكو ، وجواريهما وحملت منقولاتهما ، ثم تبعهم ابن وانج لنج الأكبر ، وزوجته وخدمهم وبقية الجوارى ..

بيد أن وانج لم يرغب فى الذهاب فى الحال فأبقى معه ابنه الأصغر ، ولما حانت لحظة الفراق والرحيل عن أرضه التى ولد فيها ، لم يستطع أن يتحمل ذلك فى يسر ، وقال مخاطبا أولاده عندما أخذوا يشجعونه : حسنا فلتعدوا لى غرفة خاصة ، وسأحضر عندما تجـدوا الفتاة التى سيتزوجها ابنى الثانى .

ولم يبق ثمة شخص فى البيت سوى عمه وزوجته وابنهما ، وتشنج وعماله علاوة على وانج لنج ، وابنه الأصغر وابنته البلهاء .

نام وانج لنج ، وأراح جسمه لشعوره أنه مكدود منهك ، وكان البيت هادئا ، وكان ابنه الأصغر وديعا لا يعترض سبيل والده . .

وأخيراً بدأ وانج يدب نحو النشاط فأمر تشنج أن يجد فى البحث عن فتاة لابنه الثانى . وعندما سمع تشنج ما يريده وانج لنج ، حتى قام واغتسل ، وارتدى ثوبه القطنى الأزرق الجميل ، ثم أخذ يزورهذه القرية أو تلك ، ثم عاد أخيراً وقال :وجدت فتاةعلى بعد ثلاثة قرى ،فتاة طيبة

عاقلة لا عيب فيها سوى أن ابتسامتها لا تفـــارق ثغرها ، ووالدها لا يعارض فى زواجها ، وسيقدم صداقا لا بأس به ، كما وأنه يمتلك أرضا.

وسر وانج لنج ، ووجد فيما قاله له تشنج غايته وكفايته ، ولذلك عندما وصلته وثائق الخطوبة ، وقع عليه بصمته، وقال :

لم يبق لى سوى ولد واحد لم يتزوج ، وهأنذا قد شارفت النهاية فى هذه الزيجات ، وإنى لمسرور أن بدأت أشعر براحة البال .

ولما تم إعداد كل شىء ، وحدد يوم الزفاف استراح وانج لنج ، وأخذ يجلس فى الشمس وينام فى دفئها كما كان يفعل والده من قبل .

ولاحظ وانج لنج أن تشنج قد أصابه ضعف الشيخوخـــة ، قد أصبح بطىء الحركة ميالا إلى النوم بعـــد الأكل ، وأن ابنه الثالث لم يتعد طور الطفولة، ولذلك وجد أنه من الخير له أن يؤجر حقوله البعيـــدة لبعض القرويين فجاءه كثيرون ليستأجروها ، واتفق معهم على الايجار وهو أن يأخذ نصف المحصول والنصف الآخر يأخذه المستأجر .

ومنذ أن قلت مشاغله ، إعتاد وانج لنج أن يذهب أحيانا إلى المدينة، وينام فى الغرفة التى أعدت له ثم يعود إلى أرضه فى مطلع النهار، وهكذا أصبح يملأ رئتيه برائحة حقوله الرقيقة وهوائها النقى ، والبهجة تملأ نفسه .

وكأنما شاءت الآلهة أن تسبغ عليه رحمتها ، وأن يهدأ باله فى شيخوخته الهرمة ، إذ جاءه ابن عمه الذى انتابه القلق من البيت بعد أن سمع عن حرب فى الشمال ، وقال لوانج لنج : يقال إن حربا مشتعلة فى الشمال من منطقتنا ، فسأذهب ، وأخوض غمارها إذا ما أعطيتنى فضة

اشترى بها ملابس وفراشاً وبندقية مصنوعة فى الخارج كى أحملها على كتفى .

وأعطاه وانج لنج الفضة فى الحال . وقال يخاطب نفسه : حسنا فعما قريب قد يقتل ، فأحيانا يموت كثير من الناس فى الحروب .

وكان وانج لنج منشرح الصدر ، هادىء البال ، ولكنه أخفى ما بنفسه ، وطمأن زوجة عمه عندما بكت قليلا لسماع رحيل ابنها .

وهكذا ساد البيت السكون ؛ فلم يبق سوى العجوزين اللذين يخلدان دائما للنوم فى البيت الريفى ؛ أما فى بيته فكانت عقارب الساعة تقترب من ميلاد حفيده ؛ وكلما قربت وأوشكت كلما مكث وانج لنج فى بيته بالمدينة وقتاً أطول وهو يفكر فى حوادث الدهر التى مرت به ، وأنه فى هذا البيت الكبير بيت هوانج يعيش مع زوجته وأولاده وزوجاتهم وأن الطفل يوشك أن يولد من الجيل الثالث .

وكاد قلبه يثب من صدره من فرط سروره لميلاد حفيده ، فلم يترك شيئا طيباً إلا واشتراه ؛ وبدأ يميل إلى تناول الأطعمة الشهية ، التى لا يتذوقها إلا الأغنياء . وأكل معه أولاده وزوجته لوتس . ولما رأت كوكو كل ماحـــدث ضحكت ،وقالت له :إن هذه الأيام لتذكرنى بالأيام السعيدة الماضية فى هذه الغرف .

وعلى منوال هذه الحياة الحافلة بالدعة والكسل ،أخذ وانج لنج يسير مترقباً ميلاد حفيده وفى ذات صباح ذهب إلى جناح ابنه الأكبر حيث قابله ابنه، وقال له: لقد حانت ساعة الوضع إلا أن كوكو تقول إن الوضع سيستغرق وقتاً طويلا . .

وعاد وانج لنج إلى بيته فى المدينة ،وجلس وقد أحس لأول مرة منذ مرور سنوات عديدة أنه خائف ،وأنه فى حاجة إلى معونة الله فنهض وذهب إلى حانوت البخور ؛ واشترى بعض البخور ثم توجه إلى المعبد بالمدينة ليحرقها أمام آلهة آلهة الرحمة..

وبينما كان يراقب الكاهن وهو يضع البخور فى الرماد ، فكر وقد تملكه ذعر مفاجىء من فكرة خطرت فى باله هى : وماذا لو لم يجىء المولود ذكراً ،

بل إنثى . ثم نادى سريعا : حسنا إذا كان المولود ذكراً فسأدفع ثمن رداء أحمر جديد للآلهة ، ولكن لن أدفع شيئاً إذا كان المولود بنتاً . .

ولأنه لم يكن ليفكر فى هذا الأمر من قبل ، فإنه انصرف، واشترى بخوراً أخرى ، مع أن اليوم كان حاراً مليئا بالغبار ثم ذهب بعد ذلك إلى المعبد الريفى الصغير حيث كان الصنمان جالسين يرعيان الحقول والأراضى ، ودفع أمامهما البخور وأشعله ، وأخذ يغمغم لهما قائلا لقد عنينا بكما ، وما زلنا نعتنى ، أنا ووالدى وولدى ، فإذا لم يجىء المولود ذكراً ، فلن أقدم لكما شيئاً . .

وأخيراً بعد أن لا حظ أن الظلام سيرخى سدوله ، عاد إلى البيت وبعد أن انتظر طويلا جاءت لوتس إلى المنزل ثم انحنت على كوكو بسبب ضخامة جسمها وقدميها الدقيقتين ، ورنت ضحكاتها وقالت بأعلى صوتها : حسنا . . فى بيت ابنك الآن ولد ولقد رأيت الطفل جميلا ، سليم البنية . .

فضحك وانج لنج بدوره وقال : حسناً لقد كنت أنتظر هنا كرجل يولد له طفله الأول ، وهو يخشى كل شىء .

وعندما ذهبت لوتس إلى غرفتها ، جلس وانج فى مكانه وأخذ يفكر مخاطباً نفسه : لم يتملكنى مثل هذا الخوف عندما ولدت لى زوجتى طفلها الأول . إبنى الاكبر . . ثم أظله الصمت ، وعادت به الذكرى فى ذلك اليوم لما دخلت زوجته بمفردها إلى الغرفة الصغيرة المظلمة ، وكيف أنها دون أن يعاونها أحد ، قد أنجبت له بنين وبنات ، ولدتهم فى صمت ، ثم كيف كانت تعود إلى الحقول لتعمل ثانية بجواره . . نعم لقد بدا له أن هذا قد حدث منذ أمد طويل .

ولما مر شهر من عمر الطفل أقام والده وليمة ، ودعا إليها كل عظماء المدينة وصبغ مئات من بيض الدجاج بلون أحمر قرمزى ، ووزعها على ضيوفه ، وكان البيت يموج بالمدعوين ، والفرح يملأهم ، وتذكر وانج لنج الرداء الأحمر الذى وعد به آلهة الرحمة ، ولذلك هرع إلى المعبد ليدفع ثمنه . .

وفى طريق عودته ، جاءه رجل يجرى من حقول الحصاد واخبره أن تشنج راقد يحتضر ، وأنه طلب حضوره ليراه فى لحظاته الأخيرة .

ومع أن طعام غذائه كان معداً ؛ وأن لوتس نادت عليه أن ينتظر حتى غروب الشمس ، إلا أنه انطلق خارجاً ، وبعثت لوتس فى أثره جارية بمظلة من ورق زيتى؛ وكان وانج لنج يجرى مسرعا فلم تستطع الخادمة أن تسير وراءه رافعة المظلة فوق رأسه لتقيه حرارة الشمس .. ودخل وانج لنج توا إلى الغرفة التى أرقدفيها تشنج ، وجلس بجواره . وأمسك يده ، وانحنى فوقه ، وقال له بصوت مرتفع فى أذنه .

أنا بجوارك ، وساشترى لك تابوتا لايضارعه إلا تابوت والدى . .

ولم يبد تشنج حراكا بعد أن خاطبه وانج لنج بل ظل راقداً يلهث ، ويلفظ روحه حتى صعدت إلى بارئها .. وبعد موته ، انحنى فوقه وانج وظل يبـــكيه بدموع لم يذرف لها مثيلا عند موت أبيه ؛ وأمر بإعداد تابوت من أجود صنف واستأجر كهنه لجنازته ، وسار خلف نعشه فى ملابس الحداد البيضاء ؛ وجعل إبنه يضع حول مرفقه شارات بيضاء كأن قريبا له من أسرته قد مات . بيد أن بنه شكا له قائلا : أن تشنج لم يكن إلا رئيسا للخدم ، وليس من المناسب أن نحزن هكذا لوفاة خادم .

ولو ترك وانج لنج على هواه لكان قد دفن تشنج فى جدار المقبرة المبنية من الطين حيث كان يرقد أبوه ، وزوجته أولان . . ولكن أولاده أبوا ذلك . ولذلك دفن تشنج عند مدخل الجدار ، وشعر وانج بالراحة وقال : حسنا . . هذا المكان يناسبه وهذا صنيع يستحقـــه ، لقد كان تشنج يقف حائلا بينى وبين الشر .

ثم أمر أولاده بأن يدفنوه بجوار تشنج عند موته .

وبعد ذلك أخذ وانج لنج لا يذهب لرؤية حقوله إلا لماما ، فبعد وفاة تشنج ، أجر كل مااستطاع من أرضه ، ولكنه لم يكن ليرضى بأن يتحدث عن بيع ما طوله قدم من الأرض .

وأسكن أحد عماله وزوجته وأطفاله فى البيت الريفى ليعنى بمدمنى الأفيون الغارقين إلى أذقانهم فى أحلامهم .

ثم قال مخاطبا ابنه الأصغر : حسنا يمكنك أن تأتى معى إلى المدينة ، وسآخذ ابنتى البلهاء معنا حيث يمكنها أن تعيش فى الجناح الذى أقيم فيه . . إن هذا المكان شديد الوحشة ولا يمكنك أن تقيم فيه بمفردك ، ولا أحد يعلمك شيئا عن زراعة الأرض خاصة بعد وفاة تشنج .

وهكذا صحب وانج لنج ابنه الأصغر ، والبلهاء معه إلى البيت الكبير فى المدينة .

وفيما بعد أصبح وانج لنج لا يأتى إلا نادراً إلى البيت الريفى القائم وسط أرضه .

الفصل الثلاثون

والآن لم يبق لدى وانج لنج أمنيـــة يرجوها إلا وقد تحققت ، وإنه ليستطيع الآن أن يجلس على كرسيه تحت أشعة الشمس بجوار ابنته البلهاء ؛ وكان من الممكن أن تسير حياته على هذا النهج لولا ابنه الأكبر الذى لم يكن ليرضى بشيء ؛ وإنما كان يطمح فى الحصول على كل شيء ، ولذلك عاد إلى أبيه يقول : إن زواج أخى الأصغر سيكون بعد ستة أشهر ، وليس فى غرفنـــا ما يكفينا من أشياء .

وأرى أن تكون الغرف الخارجية لنا . وينبغى أن يكون لدينا ما يناسب أسرة تمتلك الوفير من المال ،والأرض الطيبة مثل أسرتنا . .

فتضايقا وانج لنج من الشاب ، وصاح فيه قائلا : إفعل كما تشاء . أفعل كما تشاء ،ولا تزعجنى قط بما تطلب .

وما كاد الابن يسمع هذا ؛ حتى انطلق من أمامه ، خشية أن يغـــير أبوه رأيه..

ولما أقبل العيد الذى يتفق فيه الناس على الإيجارات ، وجد عامة الشعب القاطنين فى الغرف الخارجية أن الإيجارات قد ارتفعت ارتفاعا فاحشـــا ، وأن عليهم أن يجدوا لأنفسهم مكانا آخر يقيمون فيه فنقلوا أمتعتهم ، وهم يسبون ويسخطون لأن رجلا ثريا سولت له نفسه أن يفعل ما يحلو لها .

وأحضر ابن وانج لنج نجارين ، فأصلحوا الأبواب ، وأعاد بناء البرك ، وأضفى على كل شيء جمالا إلى أقصى ما يدرك من جمال !

وذهب المال فى سبيل هذه الأشياء من يد وانج لنج قطعة أثر قطعة ، ولم يكن يعرف كم أعطى ، مالم يأت إليه ابنه الثانى ذات صباح ويحدثه قائلا : أبتاه هلا توجد نهاية لهذا المال المنهمر ؟ وهل نحن فى حاجة إلى أن نسكن فى قصر ؟

وأدرك وانج لنج أن ولديه على وشك التشاجر ، فقال له : حسنا . . ما هذا إلا تكريما بزواجك .

فاجابه الشاب : إنه لمن الشاذ أن يكلفنا زفاف عشرة أمثال قيمة العروس وهذا ميراثنا قد أوشك على النفاد ، لا فى شىء سوى إرضاء لكبرياء أخى الأكبر . . .

فأجابه والده سريعا : سأتحدث مع أخيك فى هذا الأمر ، وسأقبض يدى عن الدفع .

وفى ذلك المساء تحدث مع ابنه الاكبر قائلا : كفانا ما بعثرناه من فضة . . هذا يكفى .

وكان الإبن راغبا فى طاعة أبيه لأنه شعر بالرضا فى غرفه وأبهائه على الأقل فى وقته الحاضر ، ولكنه بدا يقول ثانية : حسنا . . يكفى ذلك ولكن هنالك شىء آخر ، إنه من أجل أخى الأصغر ، فليس من المناسب أن يشب هكذا جاهلا ، وينبغى ان يتعلم شيئا ، وسوف نستدعى مدرسا فى البيت ليعلمه ، وما دمت أقيم معك هنا وأساعدك ، وأخى الأكبر فى تجارته الرابحة ، فدع إذاً الصبى يختار مايحلو له .

وأخيراً قال له وانج لنج : ابعثه إلى . .

وبعد هنيهة جاء الابن الثالث ووقف أمام أبيه ، فرأى وانج أمامه صبيا فارعاً نحيلا ، لا يشبه أباه أو أمه ، إنما فيمن أمه صمتها .

وخاطبه وانج لنج قائلا : يقول أخوك إنك تريد أن تتعلم القراءة واقترض من هذا أنك لا تريد أن تعمل فى الحقل ، وبهذا لن يكون لى ابن يعمل فى الأرض . .

وكان وانج لنج يخاطبه بمرارة ، ولكن الصبى لم يقل شيئا ، فغضب وانج

لنج من صمته ، وصرخ فيه قائلا : لماذا لا تتكلم ؟ أصحيح أنك لا تريد أن تعمل فى الأرض .

وأجاب الصبي بكلمة واحدة : نعم .

وصاح وانج لنج مرة أخرى ، وقد شعر أن أبناءه يسيئون معاملته :

ما هذا الذى تريد أن تفعله معى ! أغرب عن وجهى . !

وانصرف الصبي مسرعا ، وقال وانج لنج لنفسه أن بنتيه أفضل من إبنيه . .

ومهما يكن من أمر ، فانه تصرف كما يتصرف دائما حالما يتبدد غضبه ، إذ يترك أبناءه يفعلون ما يشاءون ، ونادى على ابنه الأكبر ، وقال له :

هات معلما لإخيك الثالث إذا رغب فى ذلك .

ثم نادى على ابنه الثانى وقال له :

وحيث أنه ليس لى ابن يعنى بالأرض ، فان واجبك أن تتعهد بالإيجارات وأن تأخذ الفضة التى تأتى من غلة المحصول فى كل عام .

وسر الابن الثانى سروراً كبيراً لأنه سيعرف الدخل ، وكان حريصا كل الحرص فى يوم زفافه على ألا يبذر أو يسرف ، حتى أنه أعطى الجوارى والخدم من النقود أقل ما يجب ، مما جعل شقيقه الأكبر يخجل من تصرفه ، فمنحهم مزيداً من الفضة ، وهكذا نشب بينهم خلاف فى نفس ليلة الزفاف .

ولقد اضطر كذلك الأخ الأكبر أن يدعو عدداً ضئيلا من أصدقائه ، لأنه كان خجلا من تقتير أخيه ، ولأن عروسه كانت قروية .

وبدا على كل من كان يسكن البيت من أسرة وانج لنج أنه كان يعانى القلق

واضطراب البال فيما عدا الحفيد الاصغر لوانج لنج ، ومن هذا المولود الصغير استطاع جده وانج لنج أن يستلهم الراحة والطمأنينــة فـكان لا يكف عن مراقبته ورعايته ، ومداعبته ، والتقاطه كلما سقط على الارض..

ولم يكن هو الطفل الوحيد فى البيت فان أمه زوجة الابن الاكبر لوانج لنج كانت تلد بانتظام ، كما وضعت زوجة الابن الثانى فى ميعادها ، فولدت طفلة ابنتها البكر ، فكان ذلك مناسبا ألا تلد ذكراً بدافع الاحترام لزوجة شقيق زوجها ، وهكذا أصبح لوانج لنج فى خلال خمسة أعوام أربعة أحفاد ، وثلاث حفيدات ، فامتلأ البيت برنين ضحكاتهم ، وعويل بكائهم .

إن خمسة أعوام ليست بالمدى الطويل فى حياة الإنسان إلا إذا كان فى ربيع العمر ، أو فى خريفه ، فاذا كانت هذه الاعوام الخمسة قد منحته هؤلاء الاطفال جميعاً ، فانها قد انتزعت أيضا عم وانج لنج ، ذلك الرجل الحالم المسن . .

ولم يدر وانج لنج فى أية ساعة مات عمه ، إلا أن روحه فاضت ، ورقد ممدداً لا حراك به ذات مساء عندما دخلت عليه خادمته لتحمل وعاء حساء ، فدفنه وانج لنج فى يوم قارص برده ، شديد زمهريره ، ووضع التابوت فى مقبرة الاسرة التى كانت فى مكان منخفض عن مقبرة أبيه وأعلى من القبر الذى أعده لنفسه . ثم أمر الاسرة كلها بالحداد عليه فلبسوا ملابس الحداد عاما كاملا لان هذا كان من تقاليد الاسرة الكبيرة إذا مات أحد افرادها او أقربائها..

ثم نقل بعد ذلك وانج لنج زوجة عمه إلى المدينة ، واسكنها غرفة فى أقصى جناح بالبيت . وخصص لخدمتها جارية لتسهر على راحتها ، واعد لها تابوتا من الخشب ، وظلت هذه المرأة العجوز تمتص الافيون فى جذل وارتيــــاح وظل تابوتها إلى جانبها لتطمئن كلما رأته .

الفصل الحادى والثلاثون

كان وانج لنج قد سمع طوال حياته عن حرب تشتعل نيرانها هنا أو هناك ولكنه لم ير ذلك بنفسه مطلقا وفجأة بدأت الحرب تندلع نيرانها ، كما لو كانت رياح عنيفة قد انشقت عنها السماء .. وسمع عنها وانج لنج لاول مرة من ابنه الثانى الذى قال له : أن سعر القمح قد ارتفع فجأة لان الحرب يقترب شبحها كل يوم ويجب أن نحتفظ بخزائننا من الحبوب إلى أن يحين الوقت لان سعرها سيظل فى ارتفاع مستمر كلما أخذت الجيوش تقترب منا .

وبعد ذلك اكتسحت جماعة من الرجال المكان الذى يعيش فية وانج لنج وأسرته ذات يوم فى بواكير الصيف ، وكان حفيد وانج لنج الأصغر واقفاً بالبوابة ذات صباح مشرقة شمسه ، وعندما رأى صفوفا طويلة من رجال ترتدى أردية رمادية ، صاح قائلا : أنظر إلى هولاء القادمين ، ياجدى .

فذهب وانج لنج إلى البوابة ووقف معه ، فرأى رجالا يملأون الطريق وكانت وجوههم متجهمة تنطق بالشر فجذب وانج لنج الطفل إليه ، وقال له : دعنا ندخل ونغلق البوابة ، فهم ليسوا رجالا طيبين ، ومرآهم لايشجع على النظر اليهم .. هيا ياحبيبى الصغير .! وفجأة ، قبـــل أن يدير وانج لنج ظهره رآه أحد الرجال ، فصاح عليه قائلا . إيه يا إبن عمى .. فتطلع وانج لنج إلى هذا النداء ، فرأى ابن عمه ، فضحك هذا بخشونة ، ونادى على رفقائه قائلا : هنا يمكننا أن نقيم ، ياأخوانى ، فهذا رجل غنى وقريبى !

وقبل أن يستطيع وانج لنج أن يتحرك أو يفيق من رعبه ، وجد الرجال بجواره ، ينهمرون من خلال بوابته ، فجرى وانج لنج والطفل صوب ابنه الأكبر ، فلما سمع ماسرد عليه وانج لنج ، بدأ عليه الألم ، وانصرف إلى الرجال وما أن وقع بصره على ابن عمه ووجد أن كل رجل يحمل فى يده سكينا ، حتى



أيه . . ياابن عمى العجـــوز . . !

خاطبهم قائلا . مرحبا بكم ، مرحبا بك يا ابن عمى فى بيتك ، سنعد طعاما حتى يستطيع هؤلاء الرجال أن يأكلوا قبل أن يتابعوا سيرهم .

فقال له ابن عمه مكشراً عن أنيابه : فلتفعل ولكن لا تتسرع بعد ذلك ، فأننا سوف نقيم هنا عدة أيام ، أو شهرا ، أو عاما أو عامين لأننا سنمكث فى المدينة حتى نلبي نداء الحرب .

وتظاهر الابن الأكبر بأنه يجب أن يذهب ليعد الطعام ، فأمسك بيد أبيه وهرع كلاهما إلى الفناء الداخلى ، وأغلق الإبن الاكبر الباب بالمزلاج ، وجاء الابن الثانى يجرى ، وأخذ يدق الباب وهو يلهث وينادي قائلا . هنالك جنود فى كل مكان ، وفى كل بيت . . يجب أن نعطيهم كل مايرغبون ، ولندع الله أن تنتقل الحرب إلى أماكن أخرى فى أقرب وقت !..

فقال الابن الأكبر . يجب أن نضع النساء سويا فى أقصى غرفة ، وأن تظل الأبواب محكمة الغلق.

وفعلوا مااستقر عليه رأيهم ، وظل الابن الاكبر ووالده يراقبان البوابة صباحا ومساء ، وكان الابن يأتى اليهم كلما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وكان ابن العم مقيما معهم ، ولأنه كان قريبهم لم يستطع أحد أن يمنعه فكان يجول فى أنحاء البيت بمطلق حريته ، حاملا سكينة اللامع مفتوحاً فى يده ، وهو يتطلع إلى هذه المرأة أو تلك .

وبعد أن شاهد ابن العم كل شيء ، ذهب ليرى أمه ، فصحبه وانج لنج ليدله على مكانها ، فوجدوها نائمة فى فراشها فلم يستطع إبنها أن يوقظها إلا فى مشقة ، ثم أخذ يحملق فيها ليرى الحال الذى وصلت اليه ، والتغير الذى طرأ عليها ، وعندما رقدت لتنام مرة أخرى ، انصرف ممسكا بندقيته فى يده كعصا .

ولم يبغض وانج لنج وأسرته أحداً من هذه الجماهير الغفيرة من الرجال العاطلين قدر كراهيتهم وخشيتهم من ابن عمهم لانه كان يجرى هنـــا وهناك

كيفما يشاء ملقياً بنظراته على الجوارى ؛ ورأته كوكو وهو يفعل ذلك فقالت : هنالك أمر واحد يجب أن نتخذه ، ألا وهو أن نزوجه إحدى الجاريات مادام يقيم بيننا .

وعلى ذلك طلب وانج لنج من كوكو أن تذهب ، وتسأل بن العم عن أية جارية يختارها .

وفعلت كوكو ، وعادت تقول إنه يختار الجارية الصغيرة الشاحبة الوجه التى تنام فى فراش السيدة، وكانت هذه الجارية تدعى (بير بلسم) أى (زهرة الكمثرى) وكان وانج لنج قد اشتراها فى سنة مجاعة ،ولانها كانت فتاة رقيقة ، أشفقوا عليها ، وسمحوا لها بأن تؤدى أبسط الاعمال لسيدتها لوتس ،وعندما سمعت بذلك بير بلسم بكت حتى كادت تموت من البكاء ، وهرولت إلى وانج لنج ، وأحنت رأسها إلى قدميه، فقال للوتس : دعينا نفعل ما يمكننا ، فنرسل جارية أخرى لابن عمى.

وعلى ذلك اخـــذت كوكو فتاة بدينة أوشكت على العشرين الى ابن العم ليتزوجها ؛ ولكن الفتاة الصغيرة ظلت متعلقة بقدمى وانج لنج ، فأنهضها برقة ووقفت أمامه ، فرأى أن وجهها فاتناً صغيراً ، بيضاوى الشكل ، وكانت رقيقة ،شاحبة الوجه وفمها دقيقاً مشوبا بالاحمرار، فرفعت عينيها إليه ، واخذت تطلع اليه ، ثم مرت من امامه ، وذهبت إلى ابن العم .

وأقام ابن العم شهراً ونصف ثم اشتعل أتون الحرب ، وانصرف الجنود إلى ميدان القتال ، مخلفين وراءهم الفوضى التى احـــدثوها . ووقف ابن عم وانج لنج امامهم جميعا ، وبندقيته على كتفه ، وقال فى استهزاء . إذا لم ارجع إليكم ، فهأنذا قد تركت حياتى الأخرى ، وحفيداً لأمى .

وبعد ان ضحك معهم جميعا ، انصرف مع رفقائه الآخرين .

الفصل الثانى والثلاثون

كانت الجارية التى تزوجها ابن عم وانج لنج قد انجبت طفلة فأعطاها بعض الفضة وامرها ان تعنى بزوجة عمه فى فترة حياتها ..

وبعد موتها بعث فى طلب احد رجاله ليزوجه الفتاة لأنها كانت قد رجته ان يزوجها من فلاح . فتقبلها الرجل شاكرا ممتنا . لأنه كان رجلافقيراً فقراً مدقعا ويستحيل عليه الزواج إلا من واحدة مثلها .

وبدأ وانج لنج يحلم بأن السلام سوف يشمله حقيقة ، لأنه كان مشرفا على الخامسة والستين من عمره ، ولكن السلام تخلى عنه لان زوجتى ابنائه كانتا تكرهان بعضهما بعضا ، وبذلك انتقلت الكراهية إلى الزوجين ايضا ، ونشب الخلاف بينهما . واستحال إلى غضب شديد ..

وكان وانج لنج يعانى ضيقا خفيا من لوتس منذ ان رفض تزويج جاريتها من ابن عمه . وكانت تشعر بالغيرة من الفتاة ، واعتادت أن تصرفها من الغرفة كلما جاء اليها وانج لنج . ثم ادرك وانج لنج ان الفتاة جميلة وشاحبة كنوارة الكمثرى فبدأ يفكر فيها مليا .

وكأن المتاعب التى أحدثتها نساء بيت وانج لنج لم تكفه ، حتى جاء ابن وانج لنج الاصغر بمتاعبه . وكان قد عاش بين الجنود عندما اقاموا فى المدينه ولذلك ذهب إليه ، وقال له : إنى اعرف ما سوف اقوله ، سأكون جنديا . وسأهرع لاشترك فى الحرب .

فصاح وانج لنج قائلا : إن هذا لعمرى الجنون بنفسه . ولن اتذوق مطلقا طعم الراحة مع ابنائى .

فقال له الصبي فجأة : وقد استقرت عيناه تحت حاجبيه : ستنشب

حرب لم نسمع بمثلها على الإطلاق ، ستحدث ثورة وقتـال مريران ، وبذلك ستكون أرضنا حرة .

فقال له والده وقد ملأته الدهشة :

لست أدرى ماتريد أن تعبر عنه . . إن أرضنا حرة ، فإنى أؤجرها لمن أشاء ، وأنت تأكل منها ، وتكتسى منها ، ولست أدرى أية حرية تريدها أكثر من هذه الحرية التى تتمتع بها الآن .

ولكن الفتى غمغم فى مرارة قائلا : إنك طاعن فى السن ولا تعى شيئا .

ففكر وانج لنج ثم قال فى بطء . حسنا سنزوجك فى القريب يابنى . .

فأجابه الصبى : لست شابا عاديا ولى آمالى . . إنى أود المجد لنفسى . وعلاوة على ذلك لا يوجد فى هذا البيت جمال سوى فتاة شاحبة جميلة التى تعنى بالمرأة فى الغرف الداخلية:

وحينئذ أدرك وانج لنج أن ابنه يقصد بير بلسم (زهرة الكمثرى) فامتلأ قلبه بغيرة شاذة وبعد أن انصرف ابنه أخذ يتمتم لنفسه:

لم يعد لى سلام وأمن فى هذا البيت كله . .

الفصل الثالث والثلاثون

ولم يستطع وانج لنج أن يذوق طعم الراحة من تفكيره المتصل فيما قاله ابنه عن زهرة الكمثرى ، بل أن تفكيره فيه أحتل عقله ، ولم يصارح أحداً بشىء ، بل ركن إلى الجلوس بمفرده فى غرفته . .

وهكذا مر عليه اليوم طويلا مملا كئيباً . . ! ولما أرخى الليل سدوله كان لايزال وحيداً ، ولم يجد واحداً فى البيت كله يستطيع أن يلجأ إليه كصديق وبينما كان جالساً فى الظلام تحت شجرة الكاسيا المزدهرة الزكية الرائحة مر بجواره شخص حيث كان جالساً ، فنظر نحوه مسرعاً ، فوجدها زهرة الكمثرى فنادى عليها : يازهرة الكمثرى . . تعال . إلى . . . ! وما أن سمعته ، حتى أتت إليه

وانحنت بجسدها نحو الأرض ، وأمسكت بقدميه ، واستقرت أمامه وقال لها : إنى رجل عجوز . . طاعن فى السن . . !

وقالت له : أحبك . . أنت رحيم القلب . .

وفاض قلبه بالحب لهذه العذراء . . !

وبعد أن تزوج وانج لنج من (زهرة الكمثرى) ظل الأمر طى الكتمان ولم يعرفه أحد على عجل ، لأنه لم يقل شيئاً على الاطلاق ولماينبغى أن يتكلم وهو سيد فى بيته ؟

ولكن كوكو علمت بالأمر أولا وقالت له : حسنا إن السيدة يجب أن تعلم:

وخشى وانج لنج من غضب لوتس عليه ووعد كوكو بأن يعطيها حفنة من فضة ، وأن يعطى لوتس أي شىء تريده ..

ولم يتبق غير أولاده الثلاثة، وجاء إليه واحداً إثر الآخر ،فأتاه ابنه الثانى أولا..

كان هذا الصبى إذا جاء تحدث عن الأرض والمحصول ، وبينما كان يحدث والده ، وأخذ ينظر حوله هناوهناك فى ارجاء الغرف ليتبين صدق ماسمعه عن أبيه ؛ فنادى أبوه قائلا : هات شايا ياطفلتى ، لى ولابنى . .

وخرجت (زهرة الكمثرى) ، وحملق فيها الابن ، ولكنه لم يتفوه بلفظ ودارت بينهما أحاديث ذوشجون ، وبذلك رأى كل ما كان يريد ، ثم انصرف.

وجاء الابن الأكبر قبل أن ينتصف النهار وكان وانج لنج يخشى من معرفته فلم يناد على (زهرة الكمثرى) أولا ؛ ثم رأى ابنه الأكبر على ماهو عليه:رجل ضخم الجسم ؛ ولكنه يهاب زوجته التى نشأت فى المدينة ، ويحرص كل الحرص على أن يكون عريق الأصل . .

لذلك أحس وانج لنج نحو ابنه الأكبر بعدم الاكتراث ؛ ونادى على زهرة الكمثرى قائلا: تعال ياطفلتى ، وصبى من جديد شايا لابنى الآخر . .

وجلس الرجلان يخيم عليهما الصمت ثم قال الابن لأبيه الشيخ أخيراً : ما كنت أصدق هذا . .

فقال له وانج متسائلا : ولم لا ؟ أن هذا بيتي، وهي جاريتي الخاصة . . وبعدهذا لم ينطق الإبن بكلمة أخرى ثم نهض وأنصرف . .

ولما أرخى الليل سدوله جلس وانج لنج فى الغرفة الوسطى المطلة على الفناء ، وأضيئت الشموع الحمراء على المنضدة ، وجلس وانج لنج يدخن ، وجلست أمامه (زهرة الكمثرى) فى صمت ، وقد عقدت يديها فى هدوء على حجرها . . وكانت تختلس النظرات أحيانا إلى وانج لنج ، ثم يبادلها النظر ، والزهو يملأ جوانحه ، لما فعله معها .

ثم ظهر ابنه الأصغر فجأة أمامه ، ولم يكن قد رآه أحد وهو يدخل الغرفة وكانت عيناه تشعان بالنور ، وقد سددهما فى والده، ثم قال له فى صوت هادىء : إنى ذاهب الآن لأصبح جنديا.

وشعر وانج لنج بالخوف فجأة من إبنه الذى لم يهتم بأمره إلا نادراً منذ ولادته ، وكرر الابن قائلا مرة بعد أخرى :

إنى ذاهب الآن . . ذاهب حتما الآن . . وفجأة التفت ونظر إلى الفتاة مرة ثم نظرت بدورها إليه ، ثم وضعت كلتا يديها على وجهها ، حتى لا تراه ، ثم أرخى الشاب نظره منها ، وغادر الغرفة ، ثم عاد السكون يخيم على المكان . . وأخيراً التفت وانج لنج نحو الفتاة ، وقال لها فى رقة وحزن . إنى رجل طاعن فى السن ، ولا أصلح لك ، أعلم ذلك . أعلم أنى رجل مسن .

ولكن الفتاة أنزلت يديها من فوق وجهها ، وصرخت قائلة : أحبك حباً لا حد له .

ولما انبلج الصباح ، رحل الابن الأصغر عن البيت ، ولايدرى أحد أين رحل .

الفصل الرابع والثلاثون

تقدم العمر بوانج لنج ، ولكن غرامه (بزهرة الكمثرى) لم يهدأ ، وكانت الراحة تمازج قلبه لأنها لاتغادر غرفته ، وفى سبيل حبها له ، كانت رحيمة بابنته البلهاء مما اثلج فؤاده ، وجعله يعهد بها إلى (زهرة الكمثرى) لتعنى بها بعد موته .

وأخذ وانج لنج ينطوى كل يوم على نفسه يعيش وحيداً إلا من ابنتـــه البلهاء وحبيبته (زهرة الكمثرى) ، وكان أحيانا ينظر إليها ، فيثقل قلبه بالهم ويقول: إنك تعيشين هادئة يابنيتى .

وكانت تجيبه دائما بلطف وعرفان كبير بالجميل : إنهـا حياة هادئة ، وأنت بار بى . .

ولم يكن ليقول شيئا ، لأنه أصبح الآن ينشد السلام ويهدف إلى الجلوس فى غرفته بجوار إبنته وزهرته .

وهكذا مرت حياةوانج لنج ، وتتابعت يوما بعد يوم، والشيخوخة تخترمه وتدب فى أوصاله ، وقال لنفسه أن حياته قد انتهت ،وأنه قانع بها راض عنها ، وكان تارة يذهب إلى الغرف الأخرى: وتارة يرى لوتس ،وكانت تقابله بترحاب لأنها كانت قد هرمت كذلك وقد سرها طعامها وخمرها والفضـــة التى كانت تطلبها ، وكانت تجلس مع لوتس ولا تفارقها ، وقد أصبحتا صديقتـين تتناجيان سويا ، وتأكلان ، وتشربان وتنامان سويا ، ثم تعودان إلى الحديث قبل الأكل والنوم .

وكان كلما دخل وانج لنج إلى غرف أولاده هرعوا لإحضار الشاى إليه ، وكان غالبا مايسألهم قائلا ، لأنه كان سريع النسيان . كم حفيد لى الآن ؟

وكان أحدهم يجيبه على الفور .

إن أبناءك جميعا أحد عشر ولداً ، وثمان بنات .

ثم يسالهم قائلا . أتذهبون إلى المدرسة ، وهل تدرسون الكتب الأربعة ؟
فكانوا يضحكون من كبره وجهله . ويقولون له :
كلا ، ياجدنا ، لا أحد يدرس الكتب الأربعة منذ الثورة ! .
وبعـــد فترة أصبح لايذهب إلى زيارة أولاده ، إلا أنه كان ينادى كوكو ويسألها : هل زوجات أولادى فى وئام ؟

وكانت كوكو تبصق على الارض ، وتقول: إنهما كالهرتين تترصدان بعضهما لبعض ، وذات مرة سأل كوكو : ألم يسمع أحد إبنى الاصغر أين ذهب ؟

وكانت كوكو تعرف كل شيء يحدث فى البيت فقالت له : حسنا يقال إنه قد أصبح الان ضابطا عظيما فى شيء يقال له الثورة فى الجنوب .

وكان وانج لنج يأخذ أحيانا خادما وفراشا ، ويذهب إلى أرضه وينام فى بيته القديم المبنى من الطين ، وذهب يوما فى أواخر الربيع يجوس بين حقوله ومر بمكان بجوار تل منخفض حيث دفن موتاه فأخذ يتطلـــع إلى القبور الواحدة بعد الأخرى وتذكر كل من رقد فى ترابها ، لقد لاحوا فى خاطره فى وضوح وجلاء أكثر من أى شخص آخر فيما عدا إبنته البلهاء (وزهرة الكمثرى)، ثم فكر فجأة وقال حسنا .. سأكون هنا عاجلا . . ثم أخذ يحملق فى قطعة الأرض التى سيدفن فيها وتخيل أنه موجود تحتهـــا ، وأنه قد عاد إلى باطن الأرض إلى الابد ، وغمغم قائلا : يجب أن أرى التابوت .

وأشترى له ابنه تابوتا من خشب خاص لدفن الموتى ، خشب لايبلى كالحديد وبذلك هدأ بال وانج لنج .

واستقر عزمه على أن يعود إلى البيت فى الريف فى صحبة كل من(زهرة الكمثرى) والبلهاء والخدم الذين قد يحتاجون إليهم ، وأمر بنقل تابوته معه ؛ وهكذا اتخذ مسكنه مرة أخرى على أرضه .

وجلس وانج لنج فى الخريف فى المكان الذى كان يجلس فيه أبوه مسنداً

ظهره إلى الحائط ؛ ولم يعد يفكر فى شيء الآن على الإطلاق إلا فى طعامه وشرابه وأرضه .

وكان أحيانا يشكو قليلا من أبنائه إذالم يعودوا كل يوم إلى البيت ، فقالت له (زهرة الكمثرى) : لديهم شئون كثيرة ، ولقد أختير إبنك حاكما فى المدينة بين الأثرياء ، ولديه زوجة جديدة ، أما إبنك الاصغر فقد أخذ يؤسس لنفسه سوقا عظيما للحبوب .

وأصغى لها وانج لنج ، إلا أنه كان ينسى مايقال كلما ألقى بنظره على أرضه ..

وذات يوم أدرك بوضوح وجلاء ، لفترة قصيرة ما كان يحدث حوله ، وكان ذلك فى يوم جاءه ولداه ، وأخذ يتهاديان حول البيت فى طريقهما إلى الأرض وتبعهما وانج لنج فى صمت ، فسمع إبنه الثانى يحادث أخاه قائلا . سنبيع هذا الحقل ، وذلك أيضا وسنقتسم ثمنهما بالتساوى .. إلا أن الرجل لم يسمع سوى كلمات (سنبيع الارض) فصاح قائلا :

يالكما من أخين شريرين عاطلين ، أتبيعان الأرض ؟ فأخذ يهدآنه ، ثم قال له . كلا .. كلا . لن نبيع الأرض مطلقا .. فقال لهما : انها لنهاية أسرة . عندما تبيع الأرض . منها خلقنا ، وإليها مرجعنا .

وانحنى ، وتناول قبضة من تراب ارضه ، وظل ممسكا بها ، وغمغم قائلا : إن نهايتكما آتية لاريب فيها ، إذا بعتما الأرض ..!

وامسك الأبنان بأبيهما ، كل من ناحية ، بينما كان يضغط بيده على تراب أرضه الدافىء ، ثم شرعا يهدآنه ، وكلاهما يردد الواحد بعد الآخر .

كن مطمئنا ، ياابانا ، كن مطمئنا . لن نبيع الأرض .

ولكنهما كان يتبادلان النظر والإبتسام من فوق رأس ابيهما .

(تمت بحمد الله)

الأرض الطيبة

لبيرل بيك

ترجمة

محمد جاد حنفي

ليسانسيه في الأدب الإنجليزي ـ جامعة القاهرة
دبلوم معهد التحرير والترجمة والصحافة « «
دبلوم معهد التربية العالى للمعلمين ـ عين شمس

ملتزم الطبع والنشر مكتبة الصباح بالفجالة
تليفون ٧٦٦٩٢

مطبعة دار التأليف ٨ شارع يعقوب ت ٢١٨٢٥



لقد وهبني الله الأرض ، والزوجة ، والولد . . !

مقدمة

الأرض الطيبة: قصة الكفاح الدؤوب ، والأمل المتوثب ، والسعى الحثيث لأداء الواجب !

هى قصة الأرض التى يفيض بالخير باطنها ، ويجلو العين ظاهرها ، وتشبع البطون غلتها ، ويدفع ركب الحضارة معادنها وذهبها وفضتها ؛ هى ينبوع الحياة ورمسها ، ومهد الكائنات وقبرها ؛ تهدأ فتبتسم لبنيها وعلى وجهها نبت وزرع وأزهار ، وتغضب وتثور فتفجر من قلبها النار والخراب والدمار . .

هى الأرض القاسية الحانية ؛ العنيفة الرقيقة ؛ مبدأنا ومنتهانا ؛ منشأنا ومستقرنا ؛ مسرح نشاطنا ، ومقر هدوئنا . .

الأرض مهبط الوحى والرسل والإنسان والحيوان والحشرات ؛ ومركز الهداية والغواية والشيطان والآفات ؛ « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

الأرض الطيبة: قصة الحياة الإنسانية ، ذات الصور الريفية ، والمشاعر البريئة الفطرية ؛ قصة الصين فى ريفها ومدنها ؛ فى جوعها وشبعها ؛ فى هدوئها وانفعالها ؛ فى جدبها وثرائها . .

تحليل القصة : وانج لنج فلاح فقير ، رأى نور الحياة فى الريف ، فأحبه حباً ملك عليه وجدانه وروحه ، وقدس أرضه وأخلص لها ،

وجاد فى سبيلها بما وهبته الحياة من نشاط وصبر ، وقوة وعزم ؛ يستيقظ من نومه فيهرع إلى حقله ، وينام فيحلم بأرضه ، يجد فيجنى ، ويزرع فيحصد، ويقتصد فيثرى، يتزوج فيسعد ويرضى ، تخاصره زوجته العمر كله ، وتلد له البنين والبنات ، وتعمل معه فى حزم وصمت وثبات ، حتى إذا ماواتتهما الثروة ، وحالفهما الدهر ، نسى أهله وأرضه إلى حين ؛ أما هى فلم تبهرها الفضة والذهب ، ولم تكف عن العمل بيديها فى الحقل والطين ! .

اتحد (وانج لنج) وزوجته (أولان) فى الصفات والمشاعر ، ووحد بين قلبيهما الفقر ، وما أسرع ما تتجاوب قلوب الفقراء ! وتبدو شخصية الزوجة (أولان) أقوى من زوجها فى كدها وكفاحها وصمتها ، وظلت على حالها لم تتغير أو تتبدل ، ولذلك كانت (أولان) ذات طابع فريد ، ووحدة متماسكة ، صهرتها الحياة فى بوتقة الحزن الصامت الدفين ؛ فكانت لا تثرثر أو تهرف أو تنحرف ؛ ولاشك أنها ستحوز إعجاب القارىء لما جبلت عليه من خلال قوية ، وسمات وديعة رضية .

تغلب وانج لنج على ما اعترض سبيله من صعاب ، واجتث مافى أرضه من أشواك ، وحالفه الحظ فاشترى أرض السيد العظيم (هوانج) الذى كانت زوجته (أولان) جارية رقيقة فى بيته . . وهكذا تضرب المؤلفة الأمثلة العديدة على أن النجاح ثمرة الجد، الصابر، العامل، الكادح، القانع المقتصد ، الذى يحدوه أمل متجدد ، وتدفعه إلى الأمام غاية نبيلة .

بعد أن شبع وانج لنج وارتوى ، وصار من الأغنياء الموسرين ، بهره بريق المال ، وأسرته شهوة الحياة ، فانحرف عن الطريق المستقيم ،

وهو الذى عاش طوال حياته مثلا أعلى للسذاجة ، وطيبة النفس ، ووداعة الروح ؛ لايعرف من النساء غير زوجته وأم أطفاله ، لا يعنيه قبحها قدر ما تزدهيه أخلاقها ، ولا تستهويه أنوثتها أو تضايقه خشونتها وإنما يسبي عقله طهيها ونظامها ومعونتها . . . وبعد أن أصبح لديه المال والولد ، والصحة والفتوة ، والفضة والذهب ، طغى وانج لنج وتكبر ، ونسى سنوات البؤس والشقاء والمجاعة والقحط ، ورحيله إلى الجنوب يكدح ويستجدى ، يرضى بأكلة ، ويهنأ بكوخ ، ويسعد بدرهم ، أو حفنة من أرز أو قمح ؛ نسى هذا الشقاء كله ، ولم يعد يتذكر شيئاً سوى ماله ؛ فاحتقر زوجته ، ورماها بالقبح والدمامة ، وعيرها بالخشونة والقذارة ، وأخذ منها لؤلؤتيها اللتين ادخرتهما لوقت الحاجة ، وأغدق هداياه على (لوتس) تلك المرأة المرحة اللعوب ، الحية الرقطاء ، الناعمة الطروب؛ فتزوجها وأفرد لها فى بيته جناحاً يفيض بالنعيم والأثاث والرياش ؛ ونهشت الغيرة قلب امرأته (أولان) إلا أنها لاذت بالصمت ، تشكو همها الدفين إلى ربها ، لعله يعيد إليها زوجها ، ويحفظ عليها أمنها ، ويقى من غوائل الدهر أبنائها . . .

وهكذا أرادت المؤلفة (بيرل بك) أن تبين لنا أن المال والنساء هما غايه الإنسان المنشودة ، إذا كانت نفسه عاطلة كسولة . . .

ظلت الكوارث تترادف على وانج لنج ، فنضب معين أرضه ، وأرسل الله إليه عمه وزوجته وابنهما ليعيشوا عالة عليه ، يحطمون من صرح سعادته، ويأتون على بقية ماله وثروته ؛ وصدم والده الشيخ المحطم

من هول الفاجعة ، عند ما علم أن ولده قد تزوج ثانية ، وأنه أصبح متلافاً مبذراً . . .

تيقظ ضمير وانج لنج متأخراً ، إذ كان ذات يوم وسط حقوله ، وقد انعكست عليها أشعة الشمس فكستها بلون فضي جميل ، فصرخ هاتفاً من أعماق قلبه ، ومزق سرواله الحريرى ، ولطخ نفسه بالطين ، وعاد إلى (لوتس) فلاحاً من رأسه إلى أخمص قدميه ، فأشاحت بوجهها عنه ، ونأت بروحها منه ، ولكنه لم يعبأ بها ، أو يكترث لها ، فقد عاد حنينه إلى أرضه ، ونازعه الشوق إلى حقله ، فعاد ينظم حياته ، ويعوض مافاته ، ويصلح ما أفسدت يداه ، ويبنى من جديد ماحطمه غرامه وهواه ؛ فعكف على رعاية أبنائه وتربيتهم ، وعمل على هناءتهم بتعليمهم وتزويجهم ، وهرع إلى بيته الريفي بعد أن ماتت زوجته الريفية أولان ، ووالده الشيخ وصديقه الوفى (تشنج) ، وبعد أن قضى الله على عمه الشرير اللص ، وزوجته الماكرة الخبيثة ، وابنه الآفاق المتشرد .

عاد إلى أرضه الطيبة ، يتنسم هواءها ، ويمتع نظره بخضرتها ونباتها وزهرها ، ويشنف آذانه من موسيقى جداولها المترعة بالماء ، وطيورها الصداحة بالغناء . .

عاد إلى أرضه أصل حياته ، ومصدر ثروته ، وصرح سعادته ، وأمل أسرته ، وعند ما عاد إلى أرضه ، عاد إلى دينه ، وفكر فى آخرته وكأن نفسه كانت تقول له : « ما أجمل الدنيا والدين إذا اجتمعا » وأدرك أن السعادة ليست اكتناز المال ، وحبسه عن المعوزين والمحتاجين ، وإنما السعادة راحة البال ، ورضاء الضمير ، والصحة الطيبة ، وأداء الواجب ،

والتمسك بالشرف ، والخلق القويم ، وأن الحياة فى سرائها وضرائها ، ونعيمها وشقائها ، هى هى الحياة . . .

هذا الإطار الريفى الجميل ، رسمته لنا المؤلفة النابغة(بيرل بك) بريشتها الصناع فى صورة أنيقة عميقة ، ولوحة جميلة رشيقة ، نالت بها إعجاب الأدباء ، ورجال القصة ،فتوجوا هامتها بجائزة (نوبل للسلام)، لأمانتها فى الوصف ، وأسلوبها القصصى السلس ، وثقافتها الرفيعة ، وهدفها الإنسانى النبيل ، الذى ترتكز عليه روايتها (الأرض الطيبة) فهى لم تكتب قصة من وحى الخيال ، وإنما عاشت فى الصين ، وخبرت أهله ، وأحست بظلمهم وشقائهم ، وانفعلت بإحساسهم ، فكتبت ما رأت وما أحست فى صدق وإخلاص . . .

ولقد ولدت المؤلفة فى بلدة هيلز بورو بولاية فرجينيا الغربية بأمريكا سنة ١٨٩٢ ، ومكثت منذ طفولتها فى الصين ، وغادرتها أعواماً قليلة لتتم تعليمها فى وطنها أمريكا ، حيث نالت أرفع الدرجات العلمية التى أهلتها للعمل فى الجامعات الصينية ، وقد كتبت قصصاً وروايات عديدة منها (ريح الشرق) و(الأم) و(آلهة آخرون) ثم وصفت أهوال الحرب العالمية الثانيـــة فى روايتها (بذرة الفول) ثم أسست جمعية (الشرق والغرب) وغرضها محو الفروق بين الغربيين والشرقيين . .

ولا مراء أن روايتها (الأرض الطيبة) قد أكسبتها شهرة عالمية ، وأصبحت بها نجماً لا يخبو نوره . واحتلت مكانتها فى مصاف ديكنز وشارلوت برونتيه ، وأميلى برونتيه ، وجين أوستن ، وفرجينيا وولف من أعلام القصة الإنجليزية ؟

محمد عياد عفيفى

ملتزم الطبع والنشر مكتبة الصباح بالفجالة
تليفون ٧٦٦٩٢

الثمن ١٢ قرشا

مطبعة دار التأليف ٨ شارع يعقوب ت ٢١٨٢٥